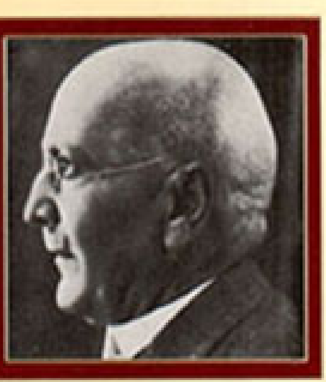
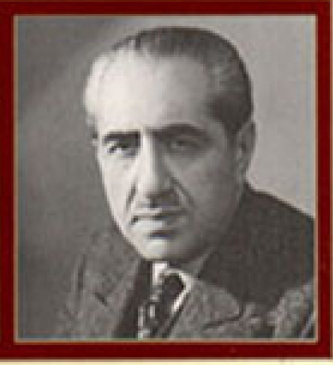
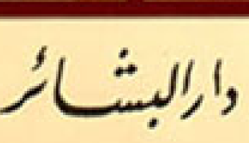




عبد الغني العطري

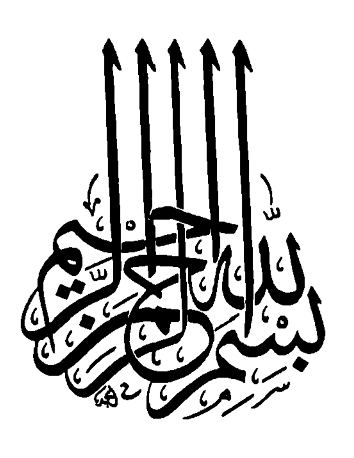




حديث العبقريات


بسم الله الرحمن الرحيم

حديث العبقريات

عبد الغني العطري

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

التحضير الطباعي مركز النبلاء
دمشق هاتف : ٢٢٢٤٣١٩
التنفيذ الطباعي
دار الشام للطباعة
دمشق هاتف : ٥٤١٥١١٢
فاكس : ٥٤٤١٢٨٤



دارُ البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف ٢٣١٦٦٦٨ - ٢٣١٦٦٦٩
دمشق ص.ب ٤٩٢٦ -فاكس ٢٣١٦١٩٦

حكايتنا مع العبقريات

هذه السلسلة من الكتب ، التي دأبنا علىٰ إصدارها في السنوات الأخيرات ، لها قصة ، لعله من المفيد أن نروي شيئاً منها

قبل أربعة عشر عاماً ، وتحديداً في العام ١٩٨٦ كان بين أيدينا مجموعة دراسات لأعمال عدد من الأعلام . . أعلام الأدب والشعر والفكر وكانت هذه الموضوعات قد نشرت في بعض المجلات العربية الكبرىٰ .

الذين تابعوا نشر هذه الموضوعات ، عزّ عليهم أن لا يجمع شملها كتاب ، يستطيع القارئ أن يرجع إليها عند الحاجة .

لم نشأ يومذاك أن نخيّب رغبة أصحاب هذا الرأي ، لذا جمعنا بعض هذه الدراسات في كتاب « عبقريات شامية »

يوم صدر هذا الكتاب ، صفق له النقاد ، ورحب به الكتاب على اختلاف ميولهم . ولكنهم مع التصفيق والترحيب ، أضافوا رغباتهم ، بأن نتابع هذه الدراسات والتراجم لحياة الأعلام . ذلك لأن معظمهم ، مروا ويمرون في دنيانا العربية ، كالطيف ، أو الحلم الجميل .

عندما يغيبون ، نذرف عليهم بعض دموع التماسيح ، ثم لا نلبث أن ننساهم تغيب أسماؤهم عن الأذهان . . وتنساهم الأجيال التالية .

كم من مجاهد كافح وقاتل ، وبذل دمه ، ثم نسيناه ؟ .

وكم من سياسي وطني ، ناضل بإخلاص ، وسجن ونفي ، ثم

غاب اسمه بعد رحيله ، ونسينا تاريخ نضاله وتضحياته ؟ .

وكم من كاتب ، وأديب ، وطبيب إنسان ، قدم وأعطىٰ وكان مثلاً رفيعاً للآخرين وعندما رحل نسينا كل عطائه ، وكل المثل العليا ، التي نادىٰ بها ، وكان قدوة لها ؟ .

هؤلاء الأعلام ، يظهرون في مجتمعنا ، ويتألقون بعض الوقت وعندما تدق ساعة الرحيل ، نشيعهم بكلمات باهتة ، ثم نطوي صفحات نضالهم إلىٰ الأبد

داؤنا الكبير ، في وطننا العربي اننا ضعاف الذاكرة ننسىٰ إحسان من أحسن ، وإساءة من أساء

ذات يوم سألني أحد أبنائي ، وهو يلقي نظرة علىٰ بعض أوراق هذا الكتاب

ـ من هو فوزي القاوقجي ؟ .

مثل هذا السؤال المستهجن ، طرحه علي أحد شبان الحي ، الذي يسكنه كلانا ، ويحمل اسم المغفور له عطا الأيوبي قال بكثير من الحيرة :

ـ سيدي . . من هو عطا الأيوبي ؟ .

هذا السؤال وذاك ، وأمثالهما تطوف في أذهان الأجيال الصاعدة كل يوم ، ولا يعرفون جواباً شافياً عليها ذلك لأن إخواننا أرباب القلم ، لم يذكروا ، أن بين واجباتهم القومية ، واجب التعريف بأعلام الوطن ورجالاته

هذا الضعف في الذاكرة ، وهذا التقصير من أرباب القلم ، علينا أن نضع حداً لهما من واجبنا أن لا ننسىٰ إحسان من يحسن ، ولا إساءة

من يسيئ من واجب حملة الأقلام ، أن يذكّروا بالأعلام والمبدعين ، الذين بذلوا وأعطوا بسخاء علينا جميعاً أن نذكرهم ونذكّر بهم ، كي يكونوا قدوة للآخرين ؛ وكي يشعر المحسن قبل رحيله ، بأن عمله لن يذهب هباء ، وأن الآخرين سيذكرونه بالحمد والثناء

* * *

عندما فتحنا باب التذكير بالأعلام والعمالقة ، كان شأننا يشبه من يضع أصبعه علىٰ الجرح النازف صرنا نتذكر هذا المجاهد ، وذاك السياسي الوطني وتتوارد إلىٰ الخاطر أسماء أعداد من العلماء والأدباء وأخذ جمهور من الأصدقاء والنقاد ، يرشحون هذا العالم ، ويذكّرون بذاك الثائر والمجاهد صرنا نشعر كذلك بأن ثمة أعداداً في شتىٰ المجالات ، ما زالوا ، والحمد لله ، علىٰ قيد الحياة عندها تذكرنا ما سبق أن قاله الفيلسوف والأديب الفرنسي الكبير « فولتير »

« كلمة رقيقة واحدة ، اسمعها وأنا حي ، خير عندي من صفحة كاملة ، في جريدة كبرىٰ ، كلها تمجيد ، تكتب عني ، عندما أكون قد متُّ ودفنت »

ازداد إيماننا ، بأن تكريم العمالقة والأعلام والإشادة بعطائهم ، لا يجوز أن يقتصر علىٰ الراحلين بل ربما كان تكريم الأحياء ، أكثر فائدة وجدوىٰ

من هذا المنطلق أخذنا نضاعف عنايتنا بتكريم العمالقة الأحياء ونحن ندعو لهم بطول العمر ، ومزيد من التألق .

* * *

في « حديث العبقريات » هذا ، حاولنا أن نعيد النظر ببعض

التراجم والدراسات ، التي سبق أن قدمناها في « عبقريات شامية » ، لأننا يوم دفعنا بهذا الكتاب إلىٰ الطبع ، كانت المادة التي تضمنها مجموعة مقالات ، سبق نشرها في بعض المجلات الكبرىٰ ولم تكن هذه الأبحاث تراجم كاملة ، تحوي تواريخ الميلاد والوفاة ومراحل الحياة ، كما يقضي بذلك مبدأ الترجمة والتعريف من أجل هذا أعدنا النظر بموضوعات هؤلاء الأعلام ، بعد أن أضفنا إليها ، ما ينقصها من تعريف أكثر دقة ، ومعلومات أكثر غزارة

ومع الحديث عن هؤلاء الأعلام ، أضفنا إلىٰ الكتاب تراجم ودراسات لأعلام وعبقريات أخرى وبلغ عدد التراجم في النهاية خمسين ترجمة ، لكل من أصحابها ، شأنه ووزنه في العطاء والإبداع

* * *

لا نريد أن نثقل علىٰ القارئ بالحديث عما بذلنا في هذا الكتاب من جهد ، ولكننا نحب أن نشير إلىٰ أن هذا الكتاب ، كالكتب التي سبقته ، ثمرة جهد وعمل طويلين ، قارب السنة من عمر الزمن .

ولا بد من الاعتراف أيضاً ، بأن الجهد فيه ليس جهدنا وحده ، هناك فئة كريمة من الأخوة والأصدقاء ، تأبىٰ إلا أن تمد لنا يد العون . . تقدم المراجع والمعلومات ، وتساعد في البحث عن صور بعض الشخصيات التي رحلت ، وبات من العسير الحصول علىٰ صورها المناسبة للنشر . ونحن نصرُّ علىٰ أن تكون كل دراسة ، مرفقة بصورة لمن نترجم له .

إلىٰ هؤلاء الأخوة والأصدقاء ، نقدم خالص الشكر علىٰ ما بذلوه من عون ومؤازرة . ونعترف أيضاً ، بأننا لولا هذا العون والتشجيع ،

لكان من العسير أن نستطيع إنجاز هذا الكتاب في الموعد الذي حددناه له

كل ما نرجوه في ختام هذا التقديم ، أن نكون قد وفقنا في أداء هذا الواجب ، نحو الحقيقة ، ونحو هذه الكوكبة الخيّرة من الأعلام والمبدعين

٣٠ حزيران ٢٠٠٠ بلودان : عبد الغني العطري

مجاهدون وثوار



فوزي القاوقجي

بَطَلٌ أسطُوري .. وَشجَاعٌ مُغامِر

١٨٩٠ - ١٩٧٧



كان أحد أبطال العرب في العصر الحديث

حياته مجموعة من الثورات والمعارك

أينما سمع بثورة أو حرب ضد الاستعمار ، سارع إلىٰ النجدة وقاتل

لم يكن يهاب العدو ، ولا يحسب حساباً للموت . شارك بمعركة ميسلون ، وأسر عدداً من الضباط الفرنسيين .

الثورات السورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) كان وراءها ، وعنصراً فعالاً وموجهاً فيها

قاد حرب الانقاذ في فلسطين . وقاتل الإنكليز في بغداد ، وحارب الفرنسيين في سورية ، وشارك ببناء القوات العسكرية في السعودية .

ولما أدركه اليأس من تجاوب بعض العرب ، مع ما يريد من تضحية وبذل ، وبعد النكبة الأليمة في فلسطين ، آثر البعد عن مسرح الأحداث

وأُحصيت الجراح التي أصابت جسده في المعارك والثورات التي خاضها ، فبلغت خمسة وتسعين جرحاً

فوزي القاوقجي ، كان بطلًا أسطورياً في العصر الحديث

سيرة حياته

أبصر فوزي بن عبد المجيد القاوقجي النور في طرابلس الشام عام ١٨٩٠

بعد أن تلقىٰ دروسه الابتدائية والثانوية ، رحل إلىٰ استانبول ، وانتسب إلىٰ كليتها العسكرية وقد وفرت له هذه الكلية تدريباً عسكرياً ، ومعرفة بأساليب القتال ، عالية المستوىٰ ، وتخرج منها ضابطاً عام ١٩١٢

أخذ يفكر إثر ذلك بالعرب ، وضرورة منحهم كياناً استقلالياً ، ولكن ضمن الوحدة العثمانية

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولىٰ أوزارها ، أخذ يعيد النظر بأهدافه

وآرائه ، فانضم إلىٰ صفوف أول جيش عربي نظامي

وعندما قرر الفرنسيون احتلال سورية ، كان فوزي القاوقجي بين المقاتلين في معركة ميسلون (٢٤ تموز ١٩٢٠) وأبلى فيها بلاء حسناً وعاد من المعركة ، ومعه عدد من الضباط الفرنسيين الأسرىٰ

في عام ١٩٢٥ أعلن الثورة في حماة وكان في قناع ضابط من القوات العسكرية التي أحدثتها فرنسا ، عقب دخولها الأرض السورية وكان له الفضل في منع المستعمر الفرنسي من القضاء علىٰ ثورة جبل الدروز ، وجعلها ثورة عامة شملت معظم الأراضي السورية ، واستمرت نحو ثلاث سنوات . وكان القائد العام لثوار الغوطة وشمال سورية . وقد كبد الفرنسيين خسائر فادحة في المعدات والأرواح وكان آخر من ترك ميدان الثورة عام ١٩٢٧

القاوقجي في بغداد

عندما انتهت أعمال الثورة السورية ، وصدر العفو العام عن المجاهدين الثوار ، رحل القاوقجي إلىٰ العراق . فكان عام ١٩٣٥ أستاذاً في مدرسة بغداد الحربية وهناك تعرف إلىٰ المجاهدين والشجعان ورجال الوطنية . وأخذ القاوقجي خلال ذلك يستعد للقيام بثورة جديدة في سورية ، بالتعاون مع فريق من الأبطال العرب . وعندما وافق الفرنسيون علىٰ عقد معاهدة مع سورية ، توقف القائد البطل عن مشروع ثورته ، واستغل ترتيباتها ، إلىٰ ثورة يشعلها في فلسطين .

وصل القاوقجي ، علىٰ رأس قوة من المتطوعين العراقيين إلىٰ فلسطين ، وخاض المعارك المظفرة وكان آخرها معركة « بيت مرني »

ولما انتهت الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، عاد القاوقجي إلىٰ بغداد ، وأدلىٰ بتصريحات حول لواء اسكندرون ، اعتبرها بكر صدقي رئيس الوزراء العراقي خطيرة ، وضارة ، فأمر بنفيه إلىٰ كركوك . وفي هذه المدينة العراقية ،

أقام القاوقجي تسعة شهور ، إلىٰ أن انتهىٰ حكم بكر صدقي

مرة أخرىٰ أخذ هذا البطل الاسطوري يُعِدُّ ترتيبات جديدة لإشعال الثورة في سورية وعيّن جماعته وأنصاره في مختلف المناطق السورية للبدء بحركات ثورية غير أن الفرنسيين علموا بما يجري في الخفاء ، فأحبطوا أعمالهم ، وأخمدوا هذه الثورة وهي في المهد

وعندما نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني في بغداد عام ١٩٤٠ شارك فوزي القاوقجي في معاركها ضد البريطانيين ، إلىٰ حين انتهاء الثورة

عاد القاوقجي بعدها إلىٰ سورية ، وشارك في معارك الحصيبة والبوكمال ودير الزور .

في الطريق بين دير الزور وتدمر ، أصيب القائد الشجاع ، بجراح بليغة ، بسبب غارة جوية مباغتة ، ونقل إلىٰ دير الزور ، ومنها إلىٰ حلب بطائرة عسكرية صحية ، ومكث فيها ثلاثة أيام .

كانت جراح القاوقجي خطيرة ومميتة وهنا عرض الألمان ، بوساطة بعض أنصارهم السريين ، وبينهم المرحوم عادل العظمة ، عرضوا نقل القاوقجي إلىٰ ألمانيا لمعالجته ، وضمان الأمان له ونقل القاوقجي سراً إلىٰ ألمانيا ، وهو فاقد الوعي . ومكث في ألمانيا حتىٰ انتهاء الحرب

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية في ربيع عام ١٩٤٥ عاد المجاهد البطل إلىٰ أرض الوطن ، وجرىٰ له استقبال رسمي وشعبي حافل في سورية ولبنان

بعد انتهاء الحرب أخذت القضية الفلسطينية تزداد خطورة وتعقيداً ، والصهيونية تكشر عن أنيابها ، تأهباً لغرسها في الجسد الفلسطيني في هذه المرحلة عهدت جامعة الدول العربية إلىٰ القاوقجي بقيادة جيش الإنقاذ . وكان ذلك في خريف عام ١٩٤٧ ، ضمن شروط فرضتها الدول العربية . وكثير منها يحفل بقيود صعبة ومعقدة .

بعد دخول الجيوش العربية إلىٰ فلسطين ، زادت حدة المصاعب وأخذت المعارك تدور في ظروف قاسية وصعبة جداً

بعد الفترة الأليمة لحرب فلسطين ، عاش فوزي القاوقجي فترة من العزلة في دمشق ثم انتقل منها إلىٰ بيروت ، في ظروف نفسية ومادية أليمة جداً ثم قرر الانسحاب من مسرح الأحداث ، لأنه لم يعد يملك القدرة علىٰ إخضاع أهدافه للظروف القائمة

ولكنه ظل يبدي استعداده لتقديم النصح والرأي ، في كل عمل سياسي ، يلمس فيه مصلحة الأمة العربية وخيرها

في هذه المرحلة أحصيت الجراح التي أصابت القائد البطل ، الشجاع ، المغامر ، في المعارك التي خاضها ، فبلغ عددها خمسة وتسعين جرحاً

وفي العام ١٩٧٧ رحل فوزي القاوقجي إلىٰ جوار ربه وطويت صفحة من صفحات البطولة النادرة في العصر الحديث

مذكرات فوزي القاوقجي

لم يكن القاوقجي راغباً في تدوين مذكراته كان يؤمن بأن فيها أسراراً يحرص العدو علىٰ معرفتها ، مهما كلفته من جهد ومال غير أن أصدقاء القاوقجي والمقربين منه ، أخذوا يحثونه علىٰ ذلك باستمرار إلىٰ أن قنع بوجهة نظرهم ، وامتثل لرغباتهم

المذكرات التي كتبها القاوقجي لا يروي فيها قصة حياته الخاصة إنها مجموعة من الأحداث والخواطر ، سجلها في مرحلتين ، وصدرت في جزءين صغيرين يتناول في الجزء الأول ما مر به من أحداث بين عامي ١٩١٢ ـ ١٩٣٢ . أما الجزء الثاني فيتناول الأحداث بين عامي ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨

في الجزء الأول يروي ما شهد من أحداث خلال طفولته ، ثم في مرحلة الحرب العالمية الأولىٰ . وقيام أول حكومة عربية في دمشق ، أيام الحكم

الفيصلي عام ١٩١٨ والثورات السورية ، وإقامته في السعودية والعراق ، والثورة الفلسطينية

أما الجزء الثاني ، فيروي وقائع النكبة التي نزلت بفلسطين والعرب ، والأحداث الأخرىٰ التي طرأت بعد عودته من ألمانيا إلىٰ أرض الوطن

في هذا الجزء يتحدث القاوقجي عن ضياع فلسطين ، وفيها سرد للوقائع والتطورات يرويها القائد الشجاع ويدعمها بوثائق رسمية وأحاديث كانت تدور في مؤتمرات واجتماعات حضرها بنفسه

ويؤكد القاوقجي أن من سيقرأ هذه الوقائع والأحداث ، سيعرف الحقيقة المرّة ، ويجد فيها وثيقة تاريخية مليئة بالعبر ، لمن يريد أن يعتبر ويرجو أن يكون نشر المذكرات جلاء واضحاً لأسباب كارثتنا في فلسطين ويقول القاوقجي فيما يقوله هذا النص الأليم :

« لم يعرف التاريخ أرضاً غالية مقدسة ، ضاعت بأرخص مما ضاعت فلسطين »

* * *

المراجع

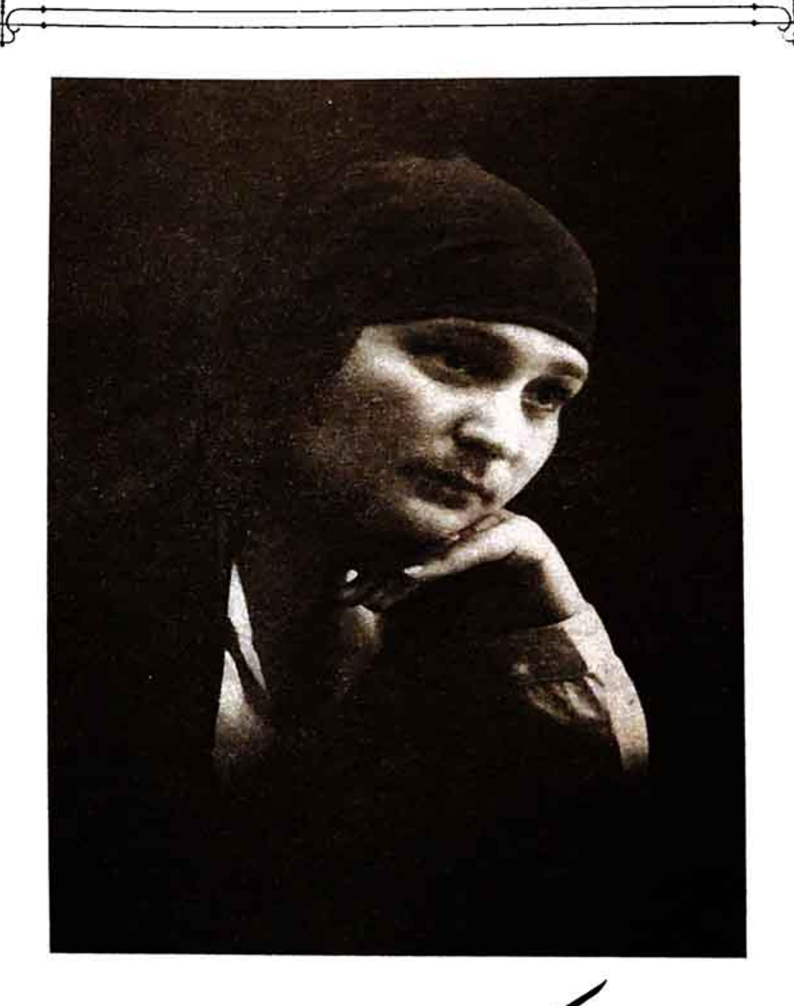
١ ـ تاريخ الثورات السورية ـ أدهم الجندي

٢ ـ مذكرات فوزي القاوقجي (جزءان)

٣ ـ سيرة عبد القادر الحسيني (المقدمة) ـ د. خيرية قاسمية

٤ ـ معلومات المؤلف ومتابعاته الخاصة

* * *



نازك العابد

جهادٌ.. وَبُطُولة.. وَتضحِيَة

١٨٨٧ - ١٩٥٩

إمرأة . . . ولكنها ليست كالنساء

توصف بأنها « جان دارك » العربية

جمعت المجد من أطرافه ، في الكفاح ، والوطنية ، ومحاربة الاستعمار ، والنهضة النسائية ، والعمل الصحفي

فريدة العصر في نضالها ، ووطنيتها ، وحماستها

شهدت معركة ميسلون وكانت مقاتلة بين الجنود ، وسقط يوسف العظمة شهيداً في ميسلون أمامها

نفاها الفرنسيون من وطنها ثلاث مرات ونفاها الأتراك مع أسرتها قبلهم .

أسست الجمعيات الخيرية والنسائية ، والمدارس ، وساعدت عائلات الشهداء بكل ما تستطيع .

امرأة حديدية . . . شجاعة ، ومناضلة

نازك العابد ، لم يعرف تاريخنا المعاصر ، امرأة في مثل وطنيتها وحماستها . . . وحيويتها المتدفقة .

شيء من حياتها

أبصرت الطفلة « نازك » النور بدمشق في العام ١٨٨٧ ، وتنتمي إلى أسرة عريقة بالوجاهة والغنى والدها مصطفى العابد من أعيان دمشق وقد تولى محافظة الكرك ، ثم ولاية الموصل في العهد العثماني

أما والدتها فهي السيدة فريدة الجلاد ، من نخبة سيدات الشام الفاضلات

وتنتسب نازك في عمومتها إلى أحمد عزة باشا العابد[١] ، وهو من رجالات السياسة العثمانية وقد عرف بعبقريته الفذة ، وسيطرته على مقدرات الدولة وسياستها الداخلية والخارجية وله مآثر وخدمات كبرى في مدينته دمشق

في هذا الجو من الوجاهة والنفوذ ، والمستوى الرفيع ، ولدت نازك العابد وقد عزفت عن مظاهر العظمة هذه ، وآثرت العلم والكفاح طريقاً لحياتها

تعلمت مبادئ العربية والتركية في المدرسة الرشيدية بدمشق ، ثم المدرسة الرشيدية في الموصل ، حيث كان والدها والياً عليها

لم تكن نازك على مودة ووفاق مع المعلمات التركيات في الموصل ، فقد كنّ متعاليات ، متغطرسات ينظرن إلى العربيات بشيء من الازدراء والاحتقار من أجل هذا كانت نازك تنفر منهن وتبتعد عنهن وألّفت فريقاً من زميلاتها الموصليات ، ليقفن صفاً واحداً من المعلمات التركيات .

درست نازك الفرنسية ، والإنكليزية ، والألمانية في معاهد خاصة ثم أرادت أن تزداد علماً بالعربية وأسرارها ، فأخذت تتردد على شيوخ اللغة وأئمتها ، وتعلمت منهم النحو والصرف ، وأصول الكتابة

اتصلت بعد ذلك بالأديبة الشاعرة ماري عجمي[٢] صاحبة مجلة « العروس » ، وهي أول مجلة صدرت في سورية عام ١٩١٠ واتفقت معها على العمل ضد المستعمر التركي ، ثم الفرنسي . واتخذت نازك من مجلتي « العروس » و« الحارس » منبراً لآرائها وأفكارها ، وكانت مجلة « الحارس »

---

(١) انظر دراسة كاملة لحياته وأعماله في كتاب «أعلام ومبدعون » للمؤلف .
(٢) انظر في هذا الكتاب ترجمة لسيرة حياتها وأعمالها .

في الحرب العالمية الأولى

في العام ١٩١٤ حاولت نازك أن تؤلف أول جمعية نسائية في دمشق ، غير أن الحرب العالمية الأولى ، التي كانت قد اشتعلت في شهر تموز من ذلك العام ، أوقفت كل نشاط اجتماعي وفي طليعتها نشاط الجمعيات يضاف إلى ذلك أن الوالي التركي السفاح « جمال » ، أقدم على نفي أسرتها كلها إلى مدينة إزمير من أجل ذلك ، دخلت نازك مدرسة الفردوس الأميركية للإناث ، وتعلمت فيها فنون الرسم والتصوير والموسيقا كما شاركت بأعمال التمريض والإسعاف ، عندما رأت المشافي تغص بالجرحى والمصابين والمشوهين في المعارك الحربية

بعد العودة من المنفى

عندما وضعت الحرب العالمية أوزارها ، بعد أربع سنوات من القتال الضاري ، عادت نازك صحبة أسرتها إلى أرض الوطن ، وأخذت تبذل الجهد المكثف لإحياء الحركة النسائية ، والمطالبة بحقوق المرأة ، ومنحها حق التصويت في الانتخابات

مشروعات إنسانية بالجملة

خلال الثورة العربية الكبرى ، التي قادها الشريف حسين عام ١٩١٦ فقد كثير من النسوة آباءهن وأزواجهن . وأصبحن بحاجة قصوى للرعاية والعون . في هذه المرحلة ، أخذت نازك على عاتقها هذا العون والمساعدة . لذا عمدت إلى تأسيس جمعية « نور الفيحاء » من سيدات دمشق وفتياتها المناضلات . وقد انتُخبت أول رئيسة لهذه الجمعية . ثم أنشأت باسم الجمعية « مدرسة بنات الشهداء العربية » ، وتولت إدارتها

بنفسها ثم أصدرت في كانون الثاني من عام ١٩٢٠ مجلة « نور الفيحاء » ، وهي مجلة نسائية أدبية ، صدر منها تسعة أعداد فحسب وكان هدفها نهضة المرأة السورية وتحررها ثم أسست « النادي النسائي الشامي » كذلك شاركت بتأسيس فرع للصليب الأحمر الدولي في سورية باسم « جمعية النجمة الحمراء » ، التي تحولت فيما بعد إلى « الهلال الأحمر» وقد عُينت أول رئيسة لهذه الجمعية كما أُسندت إليها إدارة ملجأ اليتامى وحين قضت الحاجة بإيجاد دار لجرحى الحرب ، قامت بذلك ، ووضعت حجر الأساس لمستشفى يضم مئة سرير ، واختارت أطباءه وممرضيه وموظفيه

عندما عزم الفرنسيون على احتلال دمشق ، كانت « نازك » في الجيش العربي الذي قرر الدفاع والصمود في وجه العدو الغاصب ذهبت إلى ميسلون مع وزير الحربية البطل يوسف العظمة . وحين أصيب يوسف بالرصاصة القاتلة ، وأسلم الروح الطاهرة ، كان بين يديها من أجل ذلك منحتها حكومة الملك فيصل رتبة نقيب فخرية في الجيش وكانت من قبل تتفقد الجنود بلباسها العسكري ، وكلها ثقة وإيمان برسالتها

المقاومة بعد الاحتلال

بعد معركة ميسلون ، ودخول القوات الفرنسية الغازية إلى دمشق ، لجأت نازك إلى طريق جديد في المقاومة أخذت تتصدى للمحتل ، وتزرع الشوك في طريقه ، وتحرض مختلف الأوساط ضده . تجاه هذا العداء السافر ، لم يجد المستعمر الفرنسي مخرجاً سوى بإبعاد نازك عن وطنها ، فأمر بنفيها وتكرر النفي ثلاث مرات في المرّة الأولى (١٩٢٠ـ١٩٢٢) أُبعدت إلى استانبول . وقد اغتنمت هذه المناسبة ، فدخلت الكلية الأمريكية للبنات ، وتابعت دراستها للغة الإنكليزية

وفي المرة الثانية نفيت نازك إلى الأردن وقد اختارت عمان مقراً

لإقامتها   ولما سُمح لها بالعودة إلى دمشق ، شريطة أن لا تمارس أي نشاط سياسي معاد للسلطة الفرنسية   تظاهرت بالقبول ، وأعلنت عن رغبتها بالعمل الزراعي في إحدى ضواحي دمشق   غير أنها ما لبثت أن اختلطت بالفلاحين   صارت تستيقظ باكراً مع بزوغ الفجر ، وتعمل معهم ، جنباً إلى جنب

وعندما نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، وقفت إلى جانب الثوار في غوطة دمشق ، وصارت جندياً مجهولاً بينهم ، تعمل بصمت وخفاء وتؤدي جميع الخدمات من وراء ستار   تنتقل من جريح إلى جريح ، وتقدم المساعدات السخية من مالها الخاص ، إلى أسر الضحايا والمنكوبين ، وهي متنكرة ، كيلا يشعر المستعمر ، بالدور الجديد الذي بدأت تؤديه ونذرت نفسها له .

زواجها وانتقالها إلى بيروت

بعد هذا النضال الطويل ، والكفاح المستمر ، آثرت نازك الاستقرار فوافقت على الزواج من الكاتب والمؤرخ اللبناني المشهور محمد جميل بيهم وكان من أشد المعجبين بنشاطها ، ووطنيتها ، وتضحياتها ، التي لا تقف عند حد .

وهكذا انتقلت نازك العايد إلى بيروت ، لتقيم في بيت الزوجية

في بيروت استأنفت نازك نشاطها الاجتماعي ، فأسست جمعية « عصبة المرأة العاملة » ، ثم جمعية « إخوان الثقافة » بالاشتراك مع زوجها   ثم أسست « جمعية تأمين العمل للاجئي فلسطين »   وقد أصبحت هذه الجمعية مؤسسة ثابتة ، لها موازنة سنوية ، تتلقاها من تبرعات المحسنين . وكان من ثمار هذه الجمعية أيضاً ، تأسيس ميتم لبنات الشهداء في لبنان ، ومدرسة لتلقينهن العلوم الابتدائية ، والخياطة

والتطريز ، والضرب على الآلة الكاتبة بالإضافة إلى ناد أدبي ومكتبة كذلك شاركت بعدد من المؤتمرات النسائية ، في سورية ولبنان ومصر ، والمؤتمرات النسائية في العالم

وظلت نازك العابد ، مثالاً حياً للمرأة العربية المكافحة طوال سنوات حياتها

ووافتها المنية في صيف عام ١٩٥٩ ، فرحلت إلى جوار ربها ، بعد أن جعلت من حياتها صفحات من النضال المتواصل ، والوطنية الصادقة ، ووريت الثرى في بيروت

الجدير بالذكر أن هذه الإنسانة ، النبيلة ، المكافحة لم ترزق بأبناء ولا بنات ولكنها قامت بتربية عشر بنات في بيتها ، وهذبت وأرشدت مئات من بنات الوطن.

كذلك لم تترك كتباً وآثاراً من تأليفها غير أن مقالاتها الكثيرة ، لو أتيح لها من يجمع شتاتها ، لكان منها أكثر من كتاب

ولا بد من القول إن جامعة الهيئات النسائية في بيروت ، أقامت لها بعد رحيلها حفل تأبين كبيراً ، تكلم فيه الخطباء وأشادوا بما قدمته من خدمات وتضحيات طوال حياتها

أما دمشق ـ ونازك العابد ابنة دمشق البارة الوفية ـ فقد نسيتها الجهات المسؤولة فيها ومن الخير إعادة النظر بهذا الموقف ، وهذا التجاهل غير المقصود . من الخير إعادة النظر بخدماتها الجليلة لتكون هذه الإنسانة مثلاً يقتدى لدى الأجيال الصاعدة والقادمة

* * *

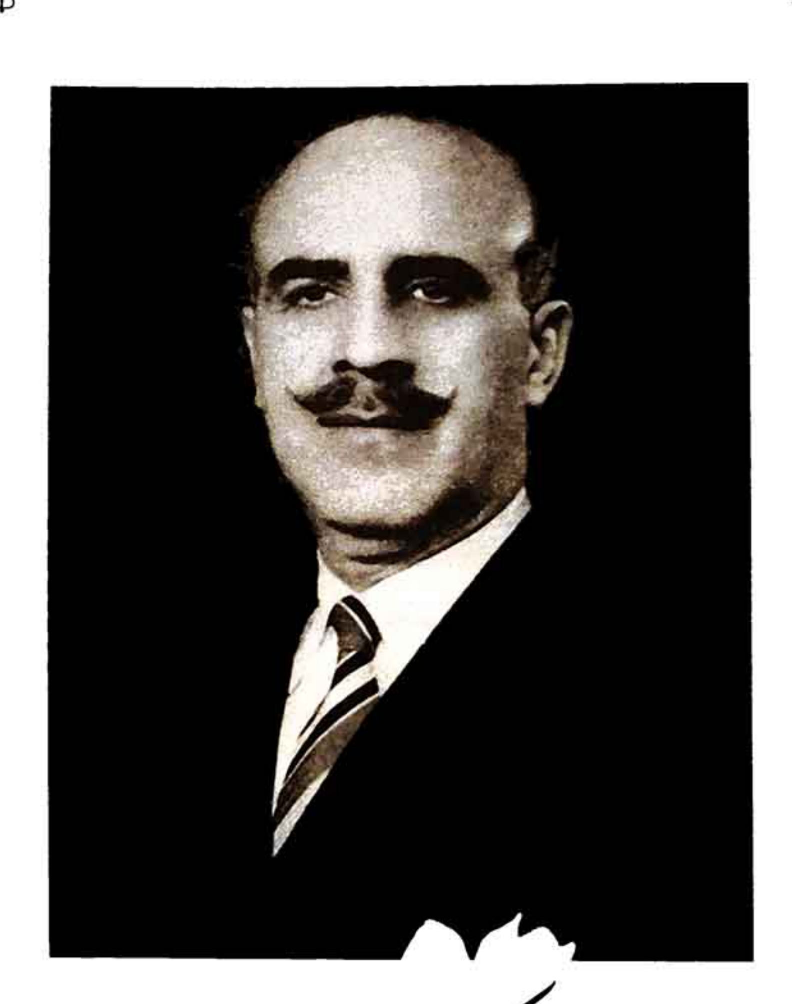
المراجع

١ـ نساء شهيرات من الشرق والغرب ـ وداد سكاكيني وتماضر توفيق

٢ـ مقال مخطوط ـ للدكتور برهان العابد .

٣ـ أديبات عربيات ـ عيسى فتوح

* * *



د. عبد الكريم العائدي

سليل أسرة العلم والجهاد..

١٩٠٩ - ١٩٧٠

كان أحد أركان أسرة العلم ، والوطنية

أخوه الأكبر الدكتور أحمد منيف ، كان أحد رموز النهضة العلمية في سورية

وأخوه الأصغر ، الشهيد البطل شوكة ، كان أحد رجال الثورة ، واستشهد فيها

جمع بين الوطنية المتطرفة ، والعلم ، والإدارة الحكيمة سُجن ، ونُفي وعُذّب ، وحب الوطن يسري في دمه

تولى عدداً كبيراً من المناصب التربوية ، والإدارية ، والقومية

وكان فيها مخلصاً لعمله ، وموضع تقدير ، ومحبة كل من عرفه .

عبد الكريم العائذي ، واحد من أركان الأسرة « العائذية » أسرة العلم . . . والجهاد . . . والوطنية .

قصة حياته

أبصر الطفل عبد الكريم بن عثمان بن محمد العائذي النور بدمشق في العام ١٩٠٩ ، وينتمي إلى أسرة كريمة ، عريقة بالعلم والوطنية والجهاد

أخوه الأكبر الدكتور أحمد منيف العائذي ، أحد أعمدة العلم ، وحامل لواء النهضة العلمية في سورية

وأخوه الأصغر شوكة ، شارك بالثورة السورية عام ١٩٢٥ ، وكان أحد أبطالها ، واستشهد فيها

جمع عبد الكريم المجد من أطرافه . . . جمع حب العلم ، وعشق الوطن ، والجهاد من أجلْ حرية الوطن

تلقى علومه الابتدائية والثانوية ، في الكلية العلمية الوطنية ، التي أسسها ورعاها شقيقه الأكبر الدكتور أحمد منيف[١]

---

(١) انظر دراسة مفصلة لحياة وأعمال الدكتور أحمد منيف العائذي ، في كتاب « عبقريات من بلادي » للمؤلف .

تابع عبد الكريم دراسته العالية ، فانتسب إلى المعهد الطبي العربي ، قسم طب الأسنان وجراحتها ، وتخرج منه طبيباً في العام ١٩٢٩

كان الدكتور عبد الكريم ، خلال ذلك ، يعمل سراً مع إخوانه الوطنيين وقد قام بنشاط كبير ، وشارك بتأسيس « عصبة العمل القومي » ، وتضم عدداً من خيرة الشبان المثقفين ولا هدف لهذه العصبة سوى تحرير الوطن ، وتحقيق الاستقلال ، وجلاء المستعمر وقد أصدرت هذه العصبة جريدة باسم « العمل القومي » ، وكان الدكتور العائدي يدير شؤونها ويشرف على تحريرها

تضايق المحتل الفرنسي ، من نشاط عبد الكريم الملحوظ ، فقرر اعتقاله ، لوضع حد لهذا النشاط المعادي وأحس عبد الكريم في الوقت المناسب ، بما يضمره الفرنسيون له وكان ذلك بعد استشهاد أخيه شوكة في الثورة ، فتوارى عن الأنظار ، ثم سافر إلى الأردن سراً ، ومنه إلى الديار الحجازية

أقام الدكتور عبد الكريم هناك ، وافتتح عيادة طبية ، مارس فيها معالجة مرضى الأسنان عدة سنوات ، إلى أن تبدلت الأحوال ، وصدر عفو عام عنه وعن رفاقه المناضلين ، فعاد إلى دمشق

بعد عودته من الديار الحجازية ، أسند إليه شقيقه الدكتور أحمد منيف ، مهمة الإشراف على مدرسته الكلية العلمية الوطنية ، وإدارتها وظل الدكتور عبد الكريم يمارس عمله هذا ، ستة عشر عاماً ، ويغرس في صدور طلابها حب الوطن ، ويحثهم على تلقي العلم ، في آن واحد

في أواخر عام ١٩٤٣ أُسند إليه منصب قائم مقام مدينة دوما وما لبث أن عُين بعدها مديراً عاماً للشرطة والأمن . . . ونقل بعدها محافظاً لحوران

وفي عام ١٩٤٨ عُين محافظاً لمدينة حماه واستمر في عمله هذا ، إلى

أن قام الضابط الأحمق حسني الزعيم بانقلابه المشؤوم ، في الثلاثين من آذار ١٩٤٩ ، فاعتقله وزج به في السجن ، وظل سجيناً طوال خمسة وعشرين يوماً

عُيّن الدكتور العائدي بعدها مديراً للعشائر ثم نقل إلى دير الزور ، ليكون محافظاً للفرات في حزيران من عام ١٩٥١

عُين بعد ذلك مديراً لمكتب مقاطعة إسرائيل الإقليمي في سورية

ورشحته سورية فيما بعد لمنصب المفوض العام لمكاتب مقاطعة إسرائيل في جامعة الدول العربية فشغل هذا المنصب طوال عامين

وفي عام ١٩٧٠ رحل الوطني المجاهد الدكتور عبد الكريم العائدي إلى جوار ربه ، عقب إصابته بجلطة دماغية قاتلة وشيع إلى مثواه الأخير تشييعاً حافلاً

وكان الدكتور عبد الكريم قد تزوج من سيدة فاضلة من آل « مَدْوَر » ، ورزق منها بالسيدين المعتز بالله وشوكة ، والآنستين جهينة ، وهدى وقد عمل المعتز بالله في الحقل الوطني ، ثم مارس المحاماة أما شوكة فقد آثر العمل التجاري الحر وتخرجت السيدة جهينة من كلية العلوم ، وتزوجت من السيد سعيد الدالاتي وكذلك فازت هدى بشهادة الدكتوراه في الطب ، وتزوجت زميلاً لها ، ويعملان حالياً في الولايات المتحدة

نظرة في حياته وأعماله

كان الدكتور عبد الكريم العائدي ، من خيرة رجال الوطن ، وأكثرهم إخلاصاً ، وتضحية ، وشجاعة . شارك بتأسيس « عصبة العمل القومي » ، وكان فيها اللولب والموجه ، والعنصر الفعال وكان شبان هذه العصبة طائفة من المثقفين ، الذين تلتهب في صدورهم روح الوطنية ، وحب التضحية والحرص على تحقيق سيادة الوطن وحريته ، دون أن يكون لهم أي هدف آخر

وقد أصدرت العصبة جريدتها اليومية ، كما أشرنا ، فكان الدكتور العائدي يتولى الإشراف على كثير من شؤونها وكان لهذه الجريدة ، والعصبة من ورائها ، الأثر الكبير في توجيه الجيل الصاعد ، ومضاعفة تعلقه بالوطن ، والتضحية من أجله

كان الدكتور عبد الكريم ، إلى جانب وطنيته الصادقة ، محباً للعلم ، متأثراً بأجواء أخيه الأكبر ، الدكتور أحمد منيف العائدي ، الطبيب ، العالم ، مؤسس الكلية ، التي تخرج منها ألوف من خيرة رجال الوطن ، وبينهم وزراء ، وعلماء ، وأطباء ، وأدباء ، وشعراء وفنانون

كان إلى جانب وطنيته الصادقة ، إدارياً حازماً ، يتمتع بذكاء وقاد ، ومقدرة على إدارة الأمور ، ومعالجة الصعب منها بشكل خاص وكان يعامل من حوله من موظفين ومرؤوسين بالرقة ، والمحبة ، الممزوجين بالحرص على المصلحة العامة ، وسيادة القانون

كان لا يسمح لصغير أو كبير بتجاوز القانون . العدل رائده ، والمساواة بين المواطنين هدفه . ولا فضل لديه لمواطن على آخر ، إلا بالعدل والحق

من أجل هذا كان الدكتور عبد الكريم يتمتع بحب واحترام من حوله من إداريين وأصحاب حقوق .

عندما بدأ الدكتور العائدي حياته العملية ، عقب عودته من الديار الحجازية ، تولى مهمة مدير الكلية العلمية الوطنية . يومذاك كان المؤلف أحد طلاب هذه الكلية كان يلمح الدكتور عبد الكريم ، بقامته المديدة ، وهو يراقب دخول الطلاب ، ثم مغادرتهم لدى انتهاء الدوام . ويلمح في نظراته الحزم في المعاملة ، والمحبة لأبناء الوطن وكان شديد الحرص على معرفة سلوك كل طالب ، ومدى تقدمه في دراسته ، أو تقصيره في واجباته كانت إطلالته اليومية ، على الطلاب ، ورقابته الدائمة لهم ، تبعث في نفوسهم شيئاً من الرهبة ، وتدفعهم إلى أداء الواجب ، والتقيد بالنظام

في فترات الإضراب والمظاهرات ، كان باستطاعته أن يحول دون مشاركة الطلاب بها غير أنه لم يحاول ذلك ، ولعله لم يفكر به كان الدافع الوطني ، يحدوه إلى تجاهل تحركات الطلاب الوطنية ، ولو استطاع لشاركهم بها ، وحثهم عليها غير أن منصبه يحول دون ذلك بالتأكيد كان الدكتور عبد الكريم ، يكتفي بالغياب عن مكتبه في الإدارة ، ويتجاهل ما يفعله طلابه والتجاهل ، في ظروف كهذه ، يعتبر تشجيعاً ، وحثاً على الإضراب والتظاهر ، ضد الانتداب الفرنسي

كان الدكتور عبد الكريم إنساناً طيباً ، ونبيلاً ، ووطنياً صادقاً في وطنيته ولو أنصفت الأيام ، لجعلته يحتل مناصب أكبر وأرفع . . . مناصب تحتاج إلى الحكمة ، وبعد النظر ، والكفاءة والتوجيه السليم ، الذي يعطي كل ذي حق حقه ، دون شفيع أو وسيط

* * *

المراجع

١ـ من هم في العالم العربي .

٢ـ كتاب « الدكتور أحمد منيف عثمان العائدي » ـ تأليف الدكتور عزة مريدن .

٣ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة .

* * *



علي رضا باشا الركابي

جزء من تاريخ سورية الحديث

١٨٨٦ ـ ١٩٤٢

عاصر الحكم العثماني ، وكان ركناً بارزاً فيه

عندما رحل الأتراك ، ونهض الحكم العربي الفيصلي ، شكل أول وزارة في تاريخ سورية .

وشكل وزارتين في الأردن ، ووضع للأردن نظامه المالي والإداري

دعم الثورة السورية لدى قيامها ، وهو رئيس للوزراء في الأردن .

تقلب في عدد كبير من المناصب ، وعهد إليه بعدد كبير آخر من المسؤوليات والمهام .

كان إدارياً حازماً ، ونزاهته تعتبر من الأساطير في هذه الأيام .

رضا الركابي كان جزءاً من تاريخ سورية الحديث .

غير أنه لم ينل حقه الكافي من الشهرة ، والدراسة ، والتحليل .

شيء من حياته

أبصر علي رضا باشا الركابي النور بدمشق في عام ١٨٨٦ ، وينتمي إلى أسرة دمشقية عريقة ، تعرف بالاستقامة والتقوى .

تلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة الرشدية العسكرية . وانتقل منها إلى المدرسة الإعدادية . ولأنه كان متفوقاً على جميع أقرانه ، وتقديراً لعلامات النبوغ والعبقرية لديه ، فقد أُرسل إلى المدرسة الحربية في الاستانة ، حيث درس فيها الشؤون العسكرية . وتخرج منها حاملاً رتبة « رئيس أركان حرب »

بعد تخرجه من المدرسة الحربية عُيّن قائداً للجيش التركي في القدس ، ووكيلاً لمتصرفها

عندما أُعلن الدستور العثماني ، عين رئيساً للشعبة الخاصة في الأستانة ونقل منها إلى المدينة المنورة ، حيث عين محافظاً فيها وقائداً لجيشها ، وذلك بعد أن جرت ترقيته إلى رتبة أمير لواء

رحل إلى العراق ، حيث تسلم قيادة الجيش في بغداد والبصرة

عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، استشارته الحكومة العثمانية ، بين من استشارتهم من قواد جيوشها ، بشأن دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب حليفتها الدولة الألمانية ، أو عدمه وكان رأي رضا باشا الركابي ، أن تظل الدولة العثمانية على الحياد ، لأنه كان مطلعاً على حقيقة وضع الجيش العثماني وأسلحته وعتاده ، وضعف إمكاناته ولأنه أشار بضرورة الحفاظ على الحياد في هذه الحرب الطاحنة ، فقد اعتُبر من الانهزاميين والجبناء ، فصدر الأمر بتسريحه ، وإحالته إلى التقاعد وكان وراء تسريحه وتقاعده عدد من المسؤولين والضباط المندفعين والمتحمسين لخوض الحرب ، إلى جانب الصديقة والحليفة الدولة الألمانية

عندما عاد الركابي إلى دمشق ، بعد تسريحه ، أراد جمال باشا الإفادة من علمه وخبرته ، مع حرصه على وضعه تحت رقابته ، لذا أمر بتعيينه رئيساً لبلدية دمشق ، ورئاسة التحكيمات وقد آثر الركابي قبول هذين المنصبين ، كي يدفع عن نفسه الشبهات فقد كان الرجل في حقيقته من مؤسسي «جمعية العربية الفتاة » و« جمعية العهد » وهاتان الجمعيتان كانتا أول من زرع بذور القومية العربية في العهد العثماني .

شكل أول وزارة سورية

عقب إعلان الثورة العربية الكبرى ، ودخول الجيش العربي دمشق ، عُين رضا الركابي حاكماً عسكرياً للمنطقة الشرقية .

عندما أعلن المؤتمر السوري استقلال سورية ، في الثامن آذار ١٩٢٠ ، وتسلم زمام الحكم الأمير فيصل بن الحسين ، ونودي به ملكاً على سورية ، عهد إليه بتشكيل أول وزارة عربية ، فتسلم الركابي زمام الأمور ، وشكل الوزارة ، ولُقِّب بالحاكم العسكري

بعد معركة ميسلون غير المتكافئة ، ودخول القوات الفرنسية إلى دمشق ، وانتهاء العهد الفيصلي ، رحل رضا الركابي إلى مصر وانتقل منها إلى الحجاز وهناك كلفه الشريف حسين بالذهاب إلى الأردن ، لمساعدة ولده الأمير عبد الله بتأسيس وإدارة دولة شرقي الأردن

رضا الركابي في الأردن

في عمان ألف الركابي في الثاني عشر من آذار ١٩٢٢ الحكومة الأردنية الأولى وعمل على وضع القوانين والأنظمة المناسبة للدولة الأردنية الجديدة ، ولاسيما في نطاق الأنظمة المالية والجهاز الإداري

وفي الثالث من تشرين الأول ١٩٢٢ دعاه الأمير عبد الله إلى مرافقته في رحلة إلى لندن ، لعقد معاهدة بين الأردن وبريطانيا ، وبحث الشؤون العربية هناك

ومكث الركابي مع الأمير عبد الله بعض الوقت ثم غادر الأمير لندن واستبقى رئيس وزرائه للاتفاق مع وزارة المستعمرات البريطانية على الشكل النهائي لحكومة الأردن

وقد وفق رضا الركابي بالحصول على موافقة بريطانيا على استقلال المنطقة استقلالاً نيابياً ، على أن لا يشملها وعد بلفور المشؤوم بإنشاء الدولة الصهيونية على الأرض الفلسطينية .

عاد الركابي بعدها إلى الأردن . ثم نشأ بين الأمير عبد الله وبينه خلاف حول بنود هذا الاتفاق ، أدى إلى تقديم استقالته من رئاسة الوزراء

وفي أوائل عام ١٩٢٤ دعي رضا الركابي ثانية إلى تشكيل الوزارة في الأردن فاستجاب لهذه الدعوة ، وشكل الوزارة ثانية وظل في منصبه هذا إلى حزيران من عام ١٩٣٦ ، حيث استقال ، وانتقل للإقامة بين حيفا والقدس طوال سنتين ونصف السنة .

وكان الركابي يوم شكل وزارته ، قد أعلن في برنامجه الوزاري ، العمل بالصدق والإخلاص في القول والعمل ، وتوزيع العدالة بين جميع أفراد الشعب ، والمراعاة التامة لشؤون الاقتصاد ، والاعتماد على الكفاءات في التوظيف ، وقمع بذور الفساد ، وكل ما يسيء إلى السمعة ودعا إلى التعاضد والتكاتف في جميع أمور الإصلاح ، وصيانة المنطقة من الأحوال المخلة بالأمن

وكان الركابي وهو رئيس للوزراء في الأردن ، يدعم الثورة السورية بكل إمكاناته سراً ، ويذكي روح المقاومة بين صفوف الثوار ومن أجل هذا ، لم يستطع عقب استقالته من رئاسة الوزارة العودة إلى أرض الوطن ، بل آثر الإقامة في فلسطين ، إلى أن انتهت الثورة ، وصدر العفو العام على كل من شارك بالثورة وكان خلال إقامته في الأرض الفلسطينية ، يعيش عيش الكفاف ، بسبب فقره وضيق ذات يده

بعد عودته إلى دمشق ، ووفاة الملك الهاشمي فيصل الأول ، اعتزل الرجل ، النزيه ، المستقيم ، العمل السياسي ولزم بيته ، وانقطع عن الناس

ورحل رضا الركابي إلى جوار ربه ، في يوم الاثنين الخامس والعشرين من أيار عام ١٩٤٢ ، بعد أن عانى من المرض طويلاً ، وأصيب بالشلل

بعض صفاته وأخلاقه

يوصف رضا الركابي ، بأنه إنسان مثالي في حياته ، يعشق النظام ، ولا يسامح أو يتسامح مع من يخل به أو يتجاوزه ، مهما كان هذا الإخلال صغيراً . كان يحاسب مرؤوسيه على أي خطأ أو تجاوز حساباً لا هوادة فيه ولا لين . كان الموظفون الذين يعملون تحت إمرته ، يتصورونه شبحاً مرعباً فهو قد يطل فجأة على هذه الدائرة أو تلك ، ليتفقد سير العمل ، ويطمئن إلى حسن سير الأمور، وأنه لا يوجد أي موظف لا يقوم بواجبه على الوجه الأكمل .

كان إلى جانب ذلك مستقيماً ، صادقاً ، نزيهاً ، ونزاهته وطهارة يده مضرب الأمثال

كان حريصاً على أن ينال كل ذي حق حقه كاملاً ودون وساطة ، أو شفاعة ، أو زلفى من أحد   ويعتبر هذا اللون من الوساطات من أبرز عيوب شرقنا العربي

هذا شيء عن بعض طباعه واستقامته   أما صفاته الشخصية ، فيقول من عرفوه عن قرب أو صحبوه ، إنه كان ربعة إلى القصر ، ممتلئ الجسم ، حاد النظرات ، عيناه براقتان ، يصعب على محدثه التحديق بهما   وكان يتمتع بحيوية دفاقة ، ونشاط كبير . وكان يصب هذا النشاط والحيوية في العمل الذي يتولى أموره

ومن مآثر رضا الركابي التي لا تنسى ، أنه أمر ، عندما كان رئيساً للوزارة السورية الأولى ، بتأسيس المجمع العلمي العربي أسوة بالدول الكبرى في العالم . وبذلك سبقت سورية جميع الأقطار العربية إلى تأسيس مثل هذا المجمع

* * *

المراجع :

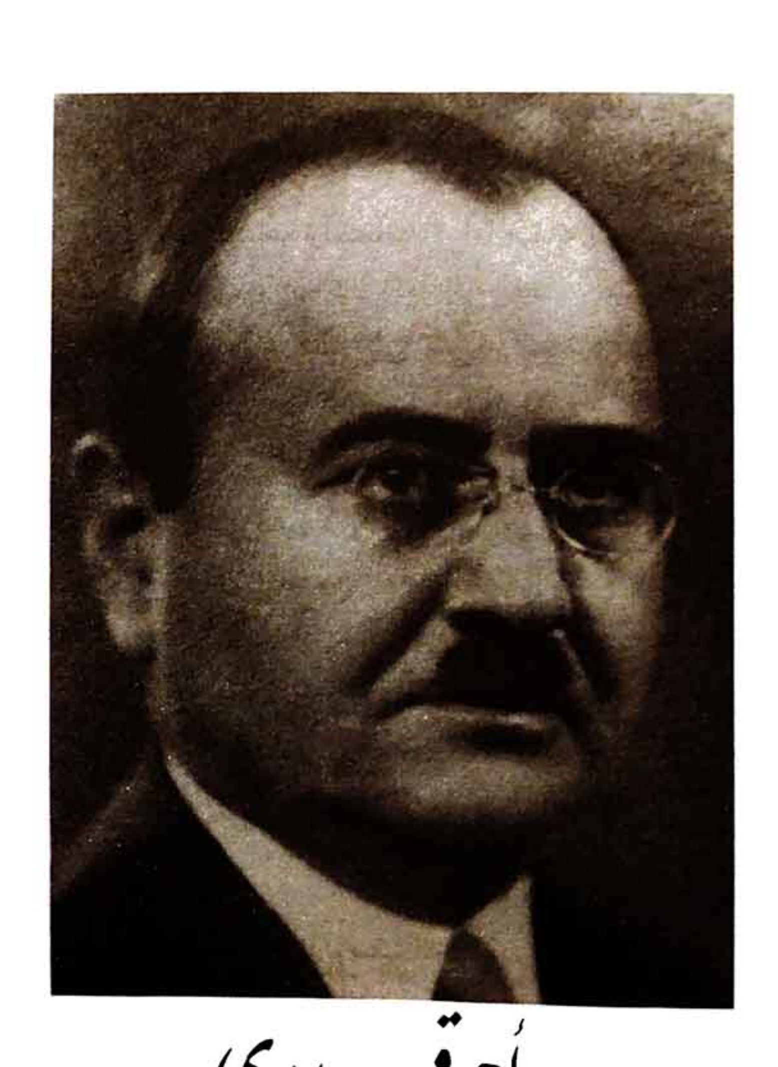
١ـ سورية والعهد الفيصلي ـ يوسف الحكيم

٢ـ أعلام العرب في السياسة والأدب ـ فايز سلامة .

٣ـ عبقريات شامية ـ د . إبراهيم الكيلاني .

٤ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي .

* * *



د. أحمد قدري

من رجال الثورة العربية الكبرى

١٨٨٩ - ١٩٥٨

كان وطنياً ومجاهداً ، من خيرة رجال الوطنية والجهاد
كافح وناضل ، وحارب الاستعمار بضراوة
نُفي ، وسجن ، وطورد ، وحكم بالإعدام ، وهو صامد
وأنقذ حياة الزعيم شكري القوتلي ، عندما أقدم على الانتحار ، وهو في سجن الأتراك
كان من أوائل من دعا إلى القومية العربية ، والإصلاح السياسي
كان في دمشق مع طلائع الاستقلال ، لدى دخول الملك فيصل
وكان مع الملك فيصل ، لدى انتقال عرشه إلى بغداد
طرده الإنكليز بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني
وعاد إلى وطنه دمشق ، ليتابع رسالته في خدمة مواطنيه
كان أحد رجال الثورة العربية الكبرى . وقد أرّخ لهذه الثورة بكتاب شامل ، يعتبر من أفضل وأصدق ما كُتب عنها

قصة حياته[1]

أبصر النور في مدينة بعلبك عام ١٨٨٩ وكان أبوه قد تقلد مناصب رفيعة في الجيش العثماني ، كما وُلِّي قيادة حامية سهل لبنان ، وغرب سورية ، وولاية البصرة وفلسطين

شارك الدكتور قدري بالثورة العربية الكبرى ، والحركة الوطنية ، مع رجال الثورة ، وفي مقدمتهم السيدان شكري القوتلي وجميل مردم بك ، والأبطال الذين أعدمهم السفاح التركي جمال ، يوم السادس من أيار عام ١٩١٦ في دمشق وبيروت

كذلك شارك بالدعوة السرية ، وعمل على تأسيس جمعية « العربية الفتاة » في فرنسا عام ١٩٠٨ وتولى رئاستها

---

(١) (*) معلومات هذا الفصل ، زودنا بها السيد سعد قدري الترجمان ، حفيد الدكتور أحمد قدري ، المقيم في الرباط بالمغرب

كان الدكتور قدري يتدفق حماسة ، ونشاطاً ، واندفاعاً وراء الدعوة إلى الإصلاح السياسي والقومية العربية

وكان في دمشق مع طلائع الاستقلال والملك الهاشمي فيصل عام ١٩٢٠

هاجر إلى مصر بعد دخول القوات الفرنسية إلى سورية ، وأقام في الاسكندرية وقد آلمته الأحداث السياسية المتتالية انهيار عرش الشريف حسين في الجزيرة العربية ، وتقسيم سورية ، بعد احتلالها من قبل القوات الفرنسية وقد آثر الإقامة في الاسكندرية ، وافتتح فيها عيادة طبية ، بعد أن عرف أن الفرنسيين يلاحقونه ، وأنهم أصدروا عليه حكماً بالإعدام ، بسبب مواقفه الوطنية المتطرفة

الدكتور قدري في بغداد

عندما انتقل عرش الملك فيصل إلى بغداد ، بعد انهيار حكمه في دمشق ، استدعاه الملك الهاشمي، وجعله طبيبه الخاص، وعينه رئيساً لجماعة بغداد . ومدرساً في كلية الطب . وظل الدكتور قدري في عمله هذا عشرين عاماً. وعرف خلال ذلك بعلاقاته الودية مع رجال الوطنية هناك ونضاله ضد الإنكليز

عندما قامت حركة السيد رشيد عالي الكيلاني الثورية ، لم يُقدّر للدكتور قدري المشاركة بها ، غير أن حكام العراق الجدد ، اضطروا للرضوخ للضغط البريطاني ، بطلب إبعاد الدكتور أحمد قدري . . . فتم لهم ما أرادوا !. .

من أجل ذلك ، عاد الدكتور قدري إلى موطنه الأول دمشق ، تصحبه زوجته السيدة فائزة بنت أحمد مختار مردم بك وولداه السيدان زهير ووائل . وكان ذلك في العام ١٩٤١ وقد استرد الدكتور المجاهد والمكافح ، جنسيته السورية وكان قد احتفظ بها طوال إقامته في العراق ، بالرغم من أنه عُيّن في إحدى المراحل قنصلاً للعراق في مصر ، ووزيراً مفوضاً في فرنسا عام ١٩٣٥

جاء الدكتور قدري إلى دمشق عام ١٩٣٦ للمشاركة بالكفاح الوطني من أجل الاستقلال ، ثم غادرها ثانية إلى بغداد .

تقلد الدكتور قدري منصب الأمانة العامة لوزارة الصحة منذ العام ١٩٤١ ، كما درّس تاريخ الطب في كلية الطب واستمر في عمله إلى حين وفاته في العام ١٩٥٨

كان الدكتور أحمد قدري صديقاً شخصياً للزعيم الرئيس شكري القوتلي ، وللعديد من رجالات العلم والأدب والسياسة في العراق وسورية . وكان عنصراً فعالاً في إنقاذ حياة الرئيس القوتلي ، يوم أقدم على الانتحار ، وهو في السجن أيام الحكم التركي[1]

يمتاز الدكتور قدري بوضوحه وصراحته ، الأمر الذي جعل مواقفه السياسية والاجتماعية تتسم بالصدق والإخلاص .

كان الدكتور المجاهد ، يدعو إلى التآزر والمحبة والتآخي والمساواة ، في ظل نظام اجتماعي ، تحكمه القومية العربية ، رغم تعدد الأديان

وللدكتور قدري يد بيضاء على مواطنيه ، فقد كان يمارس عمله الطبي ، في أحد أحياء دمشق الشعبية ، ويعالج المعوزين والفقراء مجاناً ، دون أي مقابل

ويذكر أنه قام بتمثيل سورية في مؤتمر الصليب الأحمر الدولي في ستوكهولم عام ١٩٤٨

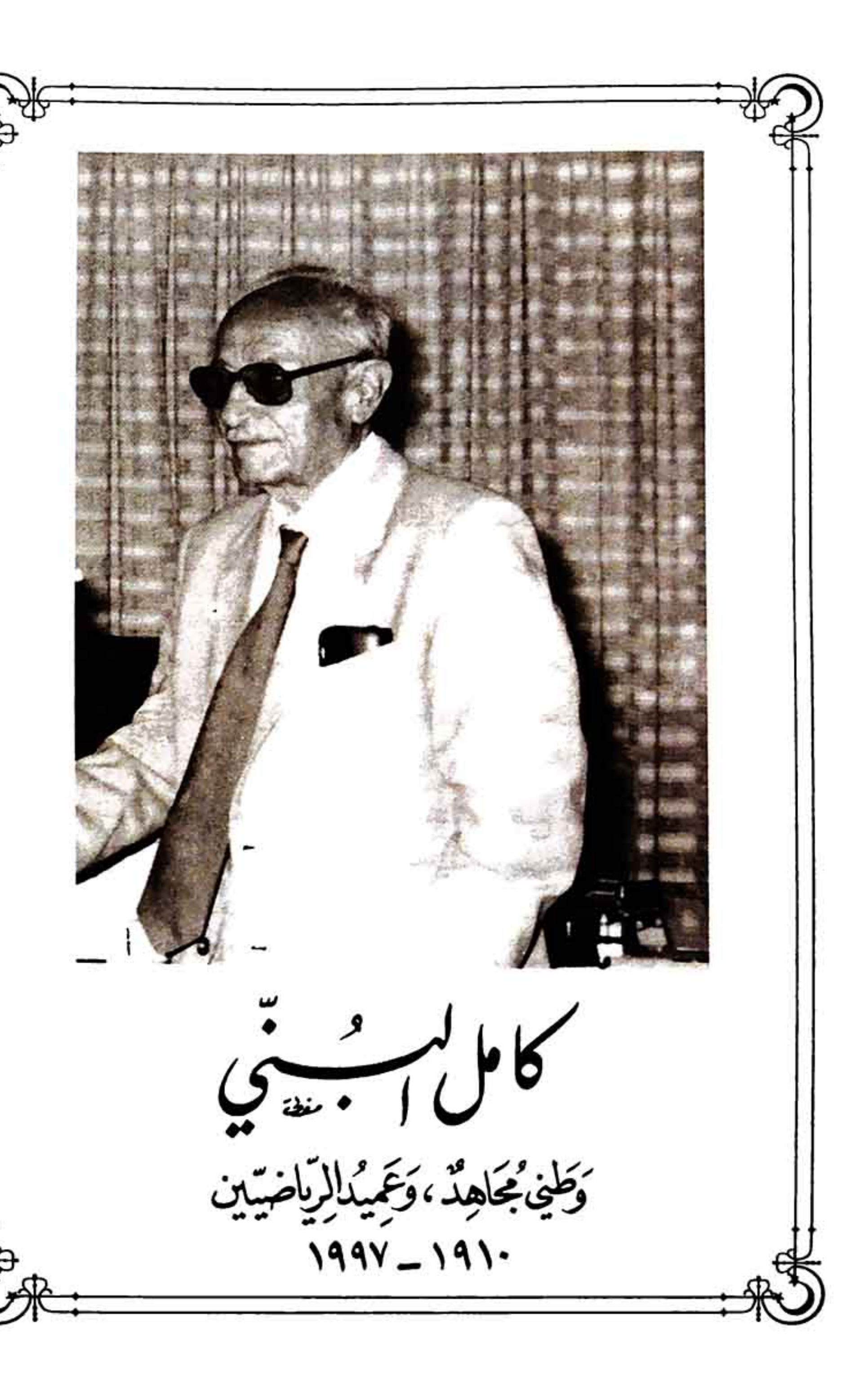
بقي أن نقول إن هذا المواطن المجاهد ، وضع كتاباً ضافياً عن « الثورة العربية الكبرى » يتجلى فيه الصدق والحقيقة بأجلى معانيهما ولعله أفضل ما خطته الأقلام عن هذه الثورة الكبرى ، لأن هذا الرجل الكبير عاش أحداث الثورة بكل تفاصيلها ودقائقها ، وكان أحد رجالها وأبطالها المجهولين

وقد تولت وزارة الثقافة طباعة هذا الكتاب القيم . . كتاب « الثورة العربية الكبرى » ، وأعادت طباعته أكثر من مرة ، بعد أن نفدت نسخه

وللدكتور قدري كذلك عدد من المؤلفات الطبية الجامعية في الأمراض الجلدية والتناسلية .

---

(١) راجع تفاصيل محاولة الرئيس القوتلي الانتحار ، وهو في سجن الأتراك ، لينقذ إخوانه المجاهدين من الإعدام ، وذلك في كتاب « عبقريات من بلادي » للمؤلف .



كامل البُنّي

وَطَني مُجَاهِدٌ، وَعَمِيدُ الرِّيَاضِيّين

١٩١٠ ـ ١٩٩٧

كان شعلة من الحماسة والوطنية في شبابه

وكان عدواً لدوداً للاستعمار وأعوانه .

كان يشعل المظاهرات ، ويحرّض عليها ، ويخطب فيها

اعتقل وسجن مراراً ، وأصيب برصاص العدو

وكان هذا الرصاص وآثاره ، أوسمة رافقته طوال حياته

وتعلق بالرياضة وصحافتها عمل محرراً صحفياً ، ثم أصدر أول جريدة رياضية في سورية

وأسس عدداً من النوادي الرياضية

وحمل لقب عميد الصحافة الرياضية

كامل البني كان مجاهداً ، وصحفياً، ورياضياً ، ومحدثاً لبقاً ، وظريفاً من الظرفاء ، وصديقاً وفياً لكل من عرف من رفاق الدرب ، وأصدقاء العمر

قصة حياته

أبصر محمد كامل بن محيي الدين البني النور بدمشق في عام ١٩١٠ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في المدارس الحكومية وانصرف منذ فجر شبابه إلى العمل الوطني ، والتحريض على الإضراب ، وتنظيم المظاهرات ، حسب توجيهات « الكتلة الوطنية » ، التي كانت تقود معركة الاستقلال .

خلال المظاهرات الصاخبة ، أصيب الشاب المجاهد كامل بعدد من الرصاصات في جسمه ورافقته آثارها طوال عمره وكان يعتبر آثار هذه الرصاصات أوسمة يعتز بها . وهي في الواقع كذلك

كان الأستاذ كامل البني دائم الاتصال بزعماء الكتلة الوطنية ، يتلقى

التعليمات ، مع عدد من الشبان الوطنيين المكافحين ، ثم ينفذونها على الوجه الأكمل

وقضى « أبو مروان » شطراً كبيراً من حياته في العمل الوطني ، ومساعدة الثوار ، ومؤازرة كل عمل فيه خدمة للوطن والمواطنين

اتجه كامل بعد ذلك إلى الصحافة ، فعمل محرراً في جريدة « الأيام » التي كان يصدرها نقيب الصحافيين الأستاذ نصوح بابيل .

كان كامل البني منذ فجر شبابه ، محباً للرياضة ، متعلقاً بها حتى العشق . في نطاق هذا العشق أسهم بتأسيس عدد من الأندية الرياضية ، في مقدمتها نادي بردىٰ ، ونادي دمشق الأهلي ، ونادي الشباب كما كان من مؤسسي الاتحاد السوري لكرة القدم . وشارك أيضاً بتأسيس أول اتحاد سوري للرماية .

في عام ١٩٥٥ أصدر جريدة « الأسبوع الرياضي » فكانت أول جريدة تعنى بنشر أخبار الرياضة والرياضيين في سورية . ومن أجل هذا منح صاحبها لقب « عميد الصحافة الرياضية » عام ١٩٨٧ ، تقديراً لخدماته الطويلة وإخلاصه ، ونضاله الوطني .

ومنحته اللجنة الأولمبية الدولية ، جائزة أفضل إعلامي رياضي ، أسهم بنشر الروح الأولمبية في عام ١٩٨٨

ومنحه الاتحاد العربي للألعاب درع ووسام الاتحاد للإعلاميين الرياضيين العرب المتميزين ، الذين قدموا خدمات كبرى للحركة الرياضية العربية ، وذلك عام ١٩٩٦ ، باحتفال كبير أقيم في القاهرة

ومنحته محافظة دمشق وسام التقدير والبراءة ، كرمز وطني من رموز الثقافة والتراث الوطني عام ١٩٩٦

وكان اتحاد الصحفيين قد كرمه عام ١٩٩٠

كان الأستاذ كامل البني في سنوات حياته الأخيرة يعمل نائباً لرئيس اللجنة المركزية لتوثيق وأرشفة الحركة الرياضية في سورية وظل يعمل في هذا المجال حتى وفاته وقد أسهم إسهاماً فعالاً في تسجيل تاريخ الرياضة السورية منذ عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩٦٤ وقدم الوثائق والصور والمعلومات المهمة عن تلك المرحلة .

ورحل الوطني المجاهد ، ومؤسس أول جريدة رياضية إلى جوار ربه في الرابع من حزيران عام ١٩٩٧

حفل تأبينه الكبير

بعد أربعين يوماً من رحيل الأستاذ كامل البني ، أقام الاتحاد الرياضي ، مساء التاسع من تموز ، حفلاً تأبينياً كبيراً له ، تكلم فيه عدد من كبار الرياضيين ورجال الصحافة .

في هذا الحفل ألقى المؤلف ، الكلمة التالية :

أيها السيدات والسادة

شيئان لو بكت الدماء عليهما عينان حتى تؤذنا بذهاب
لم تبلغا المقدار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

ونحن أيها الأخوة والأخوات فجعنا بغياب واحد من أغلى الأحبة إلى قلوبنا ، لما كان يتحلى به من نبل ووفاء ، وحب وإخلاص وتضحية ، لكل من عرف أو صادق .

كان زميلنا وصديقنا ورفيق دربنا الأستاذ كامل البني مجموعة من

الصفات الحميدة ، والخصال الإنسانية النبيلة كان وطنياً متطرفاً في وطنيته ، لا يقبل بأنصاف الحلول ، ولا يستسلم للوعود الخلابة في أية قضية تتعلق بالوطن

كان ثائراً ومجاهداً في صف متقدم من الثوار والمجاهدين

في مطلع شبابه عاصر كامل البني الاحتلال الفرنسي لأرض الوطن ، فكان عدواً لدوداً لهذا الاحتلال ، وشوكة في حلقه ، وقذى في عينه كان يشارك بتنظيم المظاهرات ويسهم بإغلاق الأسواق ، ولا يتردد في إلقاء الخطب الحماسية ، التي تحرض على العصيان ، وتدعو إلى التمرد والثورة

كان كامل البني في كل تحركاته ثورة على الاستعمار وأعوانه ورموزه ومن أجل ذلك سجن كما سجنا ، وتعرض للضرب كما تعرضنا وشرّفنا الاستعمار بأذاه واضطهاده

كان كامل البني صوتاً داوياً من أصوات الوطن ، يتلقى التعليمات والتوجيهات مع عدد من الشبان المناضلين من رجالات « الكتلة الوطنية » ، التي تقود معركة الاستقلال ، فينفذها مع رفاقه المناضلين على أحسن وجه وأكمل صورة .

كان كامل البني شعلة من الوطنية والحماسة والحيوية وكان خير قدوة للشباب المناضل في سبيل أمته ، والمخلص لبلاده ، والعامل على تحقيق ما تصبو إليه من حرية وسيادة .

شيء آخر جدير بالذكر والاهتمام ، ذلك أن حماسة أخينا كامل وثورته ووطنيته ، كانت تنتقل إلى سائر الشبان والطلاب كانوا يتخذونه قدوة

لهم ، ينهجون نهجه ، ويهتدون بهديه ، ويسيرون في ركابه   ومن هنا ندرك أن نهج كامل الوطني ، كان يؤتي ثماره شهية يانعة ، ويساعد من ثم على اختصار عمر الاحتلال لأرض الوطن

هذا عن الوجه الوطني والقومي ، لأخينا الحبيب أبي مروان   أما الوجه الآخر ، الذي يتعلق بالعمل والهواية ، فنقول إن زميلنا الراحل تعلق بالرياضة ، وأحبها حتى العشق والهيام ، ومارسها فتىً وشاباً ، وكان خير داعية لها ، ومحرض على ممارستها   وقد أسهم في هذه المرحلة بتأسيس عدد من النوادي الرياضية ، بينها نادي بردى ، ودمشق الأهلي . كذلك كان من مؤسسي الاتحاد الرياضي لكرة القدم   كما أسهم بتأسيس أول اتحاد سوري للرماية   ولم يكتف « أبو مروان » بكل ما قدم للرياضة والرياضيين من خدمات ، بل أسس في منتصف الخمسينيات أول جريدة رياضية هي « الأسبوع الرياضي » ، التي ما زالت تصدر حتى اليوم ، رغم جميع العقبات التي تواجهها   وهكذا كانت « الأسبوع الرياضي » أول صحيفة رياضية في سورية ، واستحق صاحبها ومؤسسها لقب عميد الصحافة الرياضية في هذا الوطن

أيها الإخوة الأعزاء

رفيق دربنا وزميلنا الغالي ، في مهنة البحث عن المتاعب ، الأستاذ البني كان وجهاً مميزاً من وجوه دمشق   وكان عَلَماً من أعلامها ، وعيناً مضيئة من عيونها   كان اسمه يتردد في كل مجلس ، وذكره الحسن يخفق على كل لسان . ولا أحسب أن واحداً من أبناء دمشق ، لم يسمع به ويعرف الكثير عن أخلاقه ، ونبله ، ووفائه لجميع أصدقائه .

كامل البني وجه مضيء من وجوه دمشق ، له في كل مجتمع ، ولدى كل طبقة أو شريحة أصدقاء وأنصار ، فهو صديق للجميع ، وأخ محب ودود لكل الناس لم يكن له عدو أو مبغض ، لأنه كان يضمر الحب والخير للجميع ، ويحسن إلى كل من يستطيع الإحسان إليه

كان زميلنا وصديقنا الغالي أُنسَ المجالس ، ولولب الحياة والحركة فيها حديثه يحفل بالذكريات الحلوة والطرائف ، وقصص الراحلين القدامى من سياسيين وعلماء وظرفاء . كان الجميع يصغون إليه بشوق ومتعة ، ويطربون لما يسمعون من قصص تأسر القلب ، وتسكر الروح

كان « أبو مروان » واحداً من سيوف الصحافة الوطنية المناضلة ، التي قادت معركة الاستقلال والتحرير وكانت تربطه صداقة حميمة بالزميل الكبير الراحل نصوح بابيل نقيب الصحافة وصاحب جريدة « الأيام » . وكان الأستاذ بابيل يضمر له محبة خاصة ، بسبب حماسته الدائمة ، ومواقفه الوطنية ، التي لا هوادة فيها ولا لين وكان يكثر الإصغاء إلى أحاديث أخينا كامل ـ ويضحك لطرافتها من أعماقه

وبعد ، فما من ريب أن الخسارة بفقد الصديق والزميل العزيز ، والمربي الكبير كامل البني فادحة وأليمة وستظل ذكريات جهاده ونضاله الطويلين حديث كل من عرفه . وستظل مواقفه الوطنية ، وحماسته المتدفقة وأخلاقه الرفيعة ، نبراساً تهتدي به الأجيال الصاعدة . وسيظل كامل البني الوجه الدمشقي الأصيل في ذاكرة الألوف من أصدقائه ومحبيه .

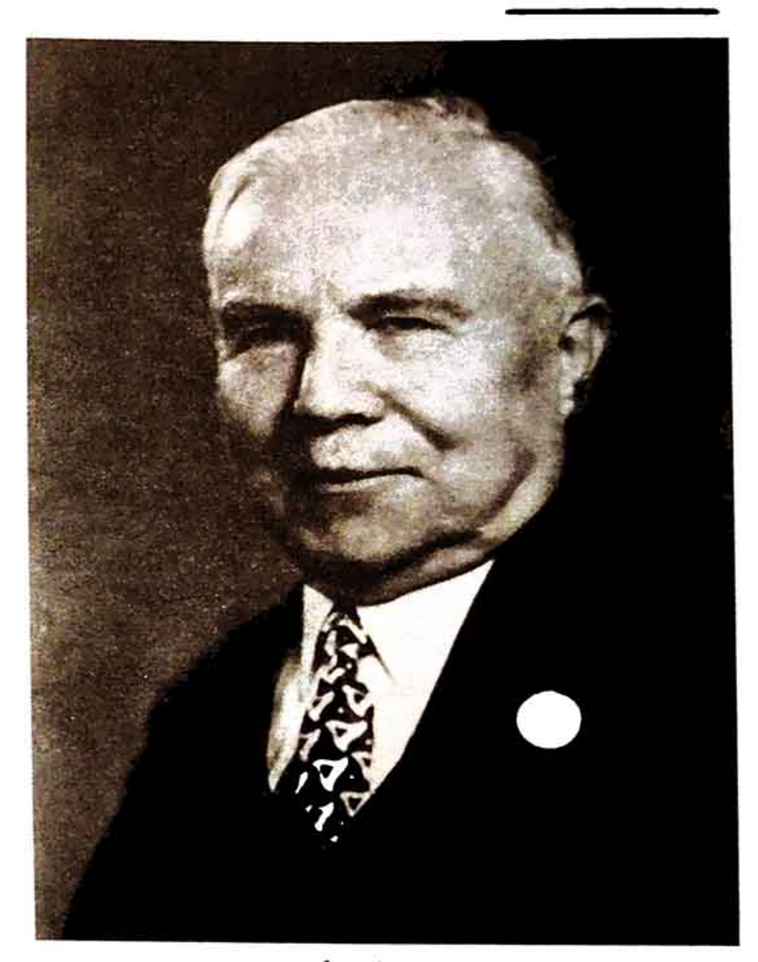
وإذا كان لنا من عزاء في غياب هذا الصديق الحبيب ، فعزاؤنا بأبنائه الطيبين البررة . وقد علمت أنهم آلوا على أنفسهم متابعة رسالة أبيهم

الغالي ، وحمل الراية ، التي دأب على حملها الوالد الوطني ، والمجاهد الشريف

رحم الله أخانا الغالي أبا مروان وأسكنه فسيح جناته ، وعزاء لنا جميعاً بفقده . والسلام عليكم

* * *

سياسيون



فارس الخوري

العقل النيّر والعلم الغزير والوطنية الصادقة

١٨٧٧ - ١٩٦٢

كان إحدى عبقريات الوطن العربي دون منازع

وكان رجل الأزمات ، والمهمات الصعبة

أدهش العالم بذكائه ، وبلاغته ، وقوة حجته

سُجن ، ونفي أيام الاستعمار

وشكل الوزارة أربع مرات بعد الاستقلال ، وكان وزيراً مرات كثيرة .

إنه العقل النيّر ، والرأي السديد في كل أزمة سياسية ، وكل موقف صعب .

دافع عن سورية في هيئة الأمم ، واستطاع أن ينتزع من مجلس الأمن إعجابه ، واعترافه باستقلال سورية ، وجلاء القوات المحتلة .

كان يفوز بالنيابة بإجماع الناخبين .

ويفوز برئاسة المجلس بإجماع النواب .

ويفوز بحب العرب ، بإجماع القلوب .

فارس الخوري ، أسطورة في العقل النيّر ، والعلم الغزير ، والوطنية الصادقة .

أسطورة قد لا تتكرر

قصة حياته بالتفصيل

أبصر فارس بن يعقوب جبور الخوري النور عام ١٨٧٧ في بلدة كفير حاصبيا وكانت يومذاك تابعة لولاية سورية أيام الحكم التركي . وله أربعة إخوة وثلاث أخوات ، وكانت أسرته أرثوذكسية ، غير أن فارس مع واحد من إخوته تبعا الجد جبور ، الذي اعتنق المذهب البروتستاني .

تلقى فارس علومه الابتدائية في مدرسة صيدا الداخلية الأميركية ، والثانوية في الجامعة الأميركية ببيروت . وتخرج عام ١٨٩٧ حاملاً شهادة الـ B. A. وكانت تعادل إجازة الثقافة في العلوم والآداب .

في عام ١٨٩٦ قدم إلى دمشق واستقر فيها ، وأُسندت إليه إدارة كلية الروم الأرثوذكس « الآسيّة »

وفي عام ١٩٠٨ درس الفرنسية والألمانية والتركية والحقوق وامتهن المحاماة

تزوج من أسماء جبرائيل عيد ، وهي فلسطينية من مدينة عكا وأنجبت له ابنه الوحيد « سهيل »

حياته العملية

في عام ١٩١٠ انتخب عضواً في بلدية دمشق ـ المحافظة حالياً

وفي عام ١٩١٤ انتخب نائباً عن دمشق في مجلس المبعوثان في الأستانة

وفي عام ١٩١٦ اعتقل في خان الباشا بدمشق ، واتهم بالاشتراك بالثورة العربية ، وحوكم في ديوان عرفي ، ونفي إلى الأستانة عام ١٩١٧ غير أنه عاد إلى دمشق عام ١٩١٨ ليشارك برفع العلم العربي في دمشق ثم اختير عضواً في أول حكومة عربية بعد جلاء العثمانيين

شارك عام ١٩١٨ أيضاً بتأسيس مجلس الشورى وكان فيه عضواً

بعد تأسيس المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩ انتخب عضواً عاملاً فيه

وكان في عام ١٩١٩ من الذين سعوا لتأسيس معهد الحقوق ، وظل فيه أستاذاً لغاية العام ١٩٤٠

في عام ١٩٢٠ اختير وزيراً للمالية في الوزارات الثلاث التي تشكلت في العهد الفيصلي

وفي عام ١٩٢١ عين مشاوراً حقوقياً في بلدية دمشق وظل في هذا المنصب لغاية العام ١٩٣٥ ، وحل مكانه ابنه سهيل ، وهو دكتور في

الحقوق

وفي عام ١٩٢١ سعى لتأسيس نقابة للمحامين وكان فيها أول نقيب

وفي عام ١٩٢٢ عين فارس الخوري نائباً عن دمشق في مجلس الاتحاد السوري المشكل من دويلات دمشق وحلب والعلويين

وفي هذه السنة نفسها ، قدم مشروعاً لجر مياه عين الفيجة إلى دمشق

وتمت الموافقة عليه في شباط ١٩٢٤ وتم تدشينه باحتفال كبير في الثالث من آب ١٩٣٢

وفي عام ١٩٤٥ تأسس حزب الشعب وكان فارس الخوري من مؤسسيه وواضع منهاجه ونائباً لرئيسه .

عندما أعلنت الثورة السورية ، قبض عليه الفرنسيون ، ونفوه إلى جزيرة أرواد في ٢٦ آب . وبقي في المنفى ٧٦ يوماً

بعد عودته عُيّن وزيراً للمعارف في وزارة الداماد أحمد نامي ولكنه استقال مع زميليه الوطنيين لطفي الحفار وحسني البرازي ، فقبض عليه معهما ، وساقوهم إلى الحسكة ، ثم إلى اميون في لبنان . ثم فرضت عليهم الإقامة الجبرية خارج سورية ، فمكثوا في لبنان إلى سنة ١٩٢٨

بعد عودته إلى دمشق ، أسهم بتأسيس « الكتلة الوطنية » التي قاومت الاحتلال بضراوة ، وحققت الاستقلال التام .

عمل فارس الخوري في شتى المجالات الوطنية ، وفي التدريس والمحاماة والتأليف . وفي المجال الاقتصادي وضع نظام شركة الإسمنت الوطنية عام ١٩٢٩ . ووضع بعده نظام شركة المغازل والمناسج .

في أوائل عام ١٩٣٦ انتخب عضواً في الوفد السوري الذي ذهب إلى باريس لمناقشة المعاهدة مع فرنسا . وفي العام نفسه جرت الانتخابات النيابية ، ففازت

الكتلة الوطنية بالأكثرية الساحقة ، وانتخب فارس الخوري رئيساً للمجلس النيابي . وظل رئيساً له حتى العام ١٩٣٩ عندما تم حل المجلس

وفي انتخابات عام ١٩٤٣ فاز بالنيابة من جديد ، ثم برئاسة المجلس

وفي تشرين الأول ١٩٤٤ شكل الوزارة السورية ، التي استمرت بالحكم من ١٤/ ١٠/ ٤٤ وحتى الخامس من نيسان ١٩٤٥ وكان في الوقت نفسه وزيراً للداخلية والمعارف فيها

الخوري شخصية عالمية

وفي السابع من نيسان ١٩٤٥ شكل الوزارة للمرة الثانية واستمرت وزارته لغاية ٢٣ آب . خلال ذلك كان فارس الخوري رئيساً للوفد السوري الذي ذهب إلى سان فرانسيسكو لحضور مؤتمر سان فرانسيسكو ، وهناك ألقى خطبته التي أحدثت ضجة عالمية وتحول فارس الخوري من شخصية عربية إلى شخصية عالمية

وفي ٢٦ آب شكل الوزارة للمرة الثالثة ، وظل رئيساً لها حتى الثلاثين من أيلول .

وفي ٢٦ تشرين الأول ١٩٤٥ أعيد انتخابه رئيساً للمجلس النيابي ، كما عين رئيساً للوفد السوري في دورة الأمم المتحدة في لندن من ١٤ كانون الثاني لغاية ١١ شباط ١٩٤٦

في هيئة الأمم عرض الفارس البطل ، قضية الجلاء عن سورية ولبنان ، وارتفع صوته عالياً ، وناقش أساطين مجلس الأمن ، وفنّد الاتفاق البريطاني الفرنسي الموقع في ١٣ كانون الأول ١٩٤٥ الذي يتضمن بقاء قوات أجنبية في سورية ولبنان . واستطاع أن ينتزع عطف مندوبي الدول ، وإعلان موعد الجلاء التام في ١٥ نيسان ١٩٤٦ واحتفلت سورية بهذا الحدث العظيم في ١٧ نيسان ١٩٤٦ وكان فارس الخوري أحد أهم رجالات سورية الذين حققوا لها

في ٣١ كانون الأول ١٩٤٦ انتُدب الفارس ، ليمثل سورية في مجلس الأمن مدة سنتين. وهناك ترأس المجلس في شهر آب ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨.

في هيئة الأمم دافع فارس الخوري عن القضايا العربية بشكل عام ، وقضية فلسطين بشكل خاص وناقش وجادل وأسمع العالم كله الرأي العربي بعروبة فلسطين

في تشرين الثاني من عام ١٩٤٧ وخلال غيابه عن دمشق ، أعيد انتخابه رئيساً . وظل رئيساً له لغاية نيسان ١٩٤٩ ، عندما قام الضابط الأحمق حسني الزعيم بانقلابه المشؤوم ، واعتقل شكري القوتلي رئيس البلاد الشرعي ، وحل المجلس النيابي !

ظل فارس الخوري يمثل سورية في هيئة الأمم لغاية عام ١٩٥٢ تاريخ عودته إلى الوطن .

وفي سنة ١٩٥٤ دُعي الفارس لتشكيل الوزارة للمرة الرابعة ، إثر أزمة وزارية حادة واستمرت وزارته في الحكم حتى السابع من شباط ١٩٥٥

وظل فارس الخوري يذهب كل عام إلى جنيف لحضور جلسات لجنة القانون الدولي لغاية العام ١٩٦٠ . عندما أصيب بكسر في عنق فخذه الأيسر ، واضطر إلى ملازمة الفراش ، طوال ما تبقى من حياته

وفي الثاني من كانون الثاني ١٩٦٢ رحل فارس الخوري ، فكرّمته سورية كل التكريم ، وشُيّع إلى مثواه الأخير على مستوى الرئاسة الأولى ، بعد أن لف جثمانه بالعلم السوري ، ووضع على عربة مدفع . وشاركت بتشييعه جميع الطوائف . وكان الشيوخ ومقرئو القرآن الكريم يرتلون الذكر الحكيم في

أمسيات التعزية به حسب وصيته

فارس الخوري شاعراً

في كتاب المؤلف « عبقريات شامية » أنشأ فصلاً موسعاً حول شاعرية فارس الخوري بدأه بقوله

« حين أغمض فارس الخوري عينيه في الثاني من كانون الثاني عام ١٩٦٢ ، افتقد الوطن العربي كله ، السياسي الفحل ، ذا المواقف الوطنية الصلبة ، التي تدل على الحنكة ، والعقل ، وبعد النظر

وافتقدت فيه الأمة رجل الاقتصاد ، ومؤسس المعامل والشركات المساهمة ، ورائد كل مشروع وطني

افتقد فيه العلم أحد أركانه ، والمجمع العلمي أحد أعضائه ، ومعهد الحقوق رئيسه ومديره وموجهه ، والمجلس النيابي ، العقل الكبير المفكر

وأحس بفداحة المصاب ، والخطب الجلل ، كل فرد في الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه . وأدرك الفراغ الكبير ، الذي تركه فارس الخوري

وتبارى الكتّاب وأرباب القلم ، ورجال الفكر ، في تعداد مآثر العلامة الراحل ، فلم يتركوا مواقفه البطولية في الأمم المتحدة إلا عددوها ، ولم ينسوا إقدامه على حل الأزمات الداخلية المعقدة إلا ذكروها ، ولم تغب عن أذهانهم صورته الخالدة ، وهو يرأس المجلس النيابي السوري ، ويدير أعماله وجلساته بكفاءة نادرة .

كذلك لم ينسوا علمه ولا أدبه ، ولا حنكته ، ولا قيادته السليمة للاقتصاد الوطني .

ولكنهم نسوا شيئاً واحداً غاب عن أذهانهم أن فارس الخوري لم

يكن السياسي ، والعالم ، ورجل الاقتصاد والقانون فحسب بل كان شاعراً من فحول الشعراء ولو تفرغ له وأعطاه بعض وقته وعنايته ، لاستطاع أن يكون بين الخالدين من الشعراء

طغت السياسة على مواهب فارس الخوري التي لا تحصى ، فصرفته عن الشعر ، ونسي الناس أنه شاعر رقيق فحل ، ذو كعب عال في دنيا القوافي ، وأن انشغاله في عوالم السياسة والاقتصاد ، والعمل الوطني والقومي والعلمي ، جعله ينصرف عن الشعر ، ولا يقوله إلا في المناسبات ، أو عندما يجد فراغاً من الوقت وأنى له الفراغ ، وسعة الوقت ؟

ورغم هذا كله ، قال فارس الخوري كثيراً من الشعر ، ووقف على المنابر في كثير من المناسبات ، ليكون بطلاً من أبطال القوافي كما نشرت له الصحف والمجلات كثيراً من هذا الشعر وما يزال شعره موزعاً ، لم ير النور في ديوان أو كتاب .

ويبدو أن الرجل كان منصرفاً إلى قول الشعر في مطلع شبابه ، محباً له ، ومولعاً به . ودليلي على ذلك أنه في العام ١٩٠٥ نظم ملحمة تبلغ أبياتها عدة مئات ، في وصف الحرب الضارية التي دارت رحاها بين اليابان والروس في الثامن من شباط عام ١٩٠٤ ووضعت أوزارها في الخامس من أيلول العام التالي وأسفرت عن انتصار اليابان انتصاراً ساحقاً في هذه الحرب الضروس نظم الفارس ملحمته ، ووصف وقائعها وصفاً دقيقاً ، وأرّخها تأريخاً عادلاً ومنصفاً هذه الملحمة ، طبعت في كتيب صغير ، تبلغ صفحاته ثمانية وستين ، وأهداها إلي صديقه الدكتور حسين حيدر ، الذي قام بطبعها في مصر على نفقته ، وقدم لها تقديماً جيداً ، وأثنى عليها الثناء العاطر

وكان الدكتور حيدر قد طلب من صديقه الشاعر ، أن ينظم قصيدة يؤرخ بها هذه الحرب ، فلبّى علامتنا الكبير طلب صديقه ، ونظم بدلاً من القصيدة

ملحمة ، وقسمها إلى أربع قصائد طويلة ، أو قل إن شئت أربعة أجزاء

الملحمة المذكورة تعتبر من جيد الشعر وروائعه وقد نظمها فارس الخوري بأسلوب قصصي شائق ، وهو في أوج الشباب ، قبل أن تشغله السياسة والمعارك الوطنية عن الشعر والعلم والأدب وإني لأتمنى على مجمع اللغة العربية - والفارس كان عضواً بارزاً من أعضائه - أن يعمل على إعادة طبع هذه الملحمة التاريخية ، طبعاً أنيقاً متقناً ، ليعيد إليها الحياة ، ويضعها بين يدي القارئ العربي ، إلى جانب شعره الموزع المجهول . والقارئ الأصيل يعرف كثيراً عن جهاد فارس الخوري وعلمه ، ولكنه يكاد يجهل كل شيء عن شاعريته »[1]

آثاره ومؤلفاته

ترك العلامة فارس الخوري الآثار والكتب التالية

١- موجز في علم المالية - طبعة أولى سنة ١٩٢٤ وطبعة ثانية ١٩٣٧

٢- أصول المحاكمات الحقوقية - الطبعة الثانية ١٩٣٦

٣- الجزاء - مفقود

٤- وقائع الحرب الروسية اليابانية - ملحمة شعرية في أربع قصائد ١٩٠٦

٥- ديوان فارس الخوري - مخطوط لم يطبع وهو مجموعة قصائد جمعها نسيم شفيق الخوري وقدم لها بدراسة لتكون أطروحة

٦- أوراق فارس الخوري - مذكراته بقلمه مع رسائل وأوراق أعدتها وحققتها حفيدته السيدة كوليت في خمسة أجزاء صدر منها ثلاثة

* * *

---

(١) هذه السطور كانت تقديماً للدراسة التي كتبها المؤلف عن الملحمة المذكورة ، ويمكن الرجوع إلى النص الكامل في كتاب « عبقريات شامية » الذي صدر عام ١٩٨٦

المراجع

١ـ فارس الخوري وأيام لا تنسى ـ محمد الفرحاني

٢ـ فارس الخوري حياته وعصره ـ حنا خباز وجورج حداد

٣ـ ذكريات ـ علي الطنطاوي ـ الطبعة الثانية ـ جدة ١٩٨٩

٤ـ أوراق ـ الدكتور منير العجلاني

٥ـ عبقريات شامية ـ عبد الغني العطري .

* * *



فخري البارودي

وَطنيّة وَجهاد .. وَأدب وفنّ

١٨٨٦ ـ ١٩٦٦

إنه رجل التاريخ جمع صفات الوطنية ، والجهاد ، والتضحية ، والأدب ، والشعر ، والفن ، والظرف

إنه عبقرية نادرة ، وثروة قومية ، وصفحات مشرقة من البذل والعطاء ، ولون دمشقي أصيل لا يتكرر

كان في طليعة رجال السياسة إخلاصاً ، وتضحية ، وإقداماً ، وواحداً من الأدباء والشعراء

وصاحب مشاريع وطنية واقتصادية كثيرة .

وكان عاشقاً للفن ، وركناً من أركانه

وكان واحداً من أظرف الظرفاء ، والكرماء ، والمحدثين

جمع المجد من أطرافه .

أحبه مواطنوه كافة حتىٰ العشق ، وأطلقوا عليه لقب « زعيم الشباب » وكان زعيماً مرموقاً بين الشبان والشيوخ

عندما رحل إلىٰ جوار ربه ، مشت دمشق كلها خلف نعشه وبكت الملايين حزناً لفقده .

مولده ونشأته

أبصر الطفل فخري النور بدمشق في العام الهجري ١٣٠٤ الموافق للعام ١٨٨٦ وهو ـ كما يروي في مذكراته ـ ابن محمود بن محمد حسن . وكان وحيد أبويه ، ومن أجل ذلك نشأ في أحضان العز والدلال ، والرفاهية ، وفي أسرة مترفة بالجاه والمال .

أرسلته أمه في طفولته المبكرة إلىٰ « الكتّاب » قرب دار الأسرة في حي القنوات . وصاحبة « الكتّاب » عجوز كسيحة ، قبيحة الشكل والمنظر وقد وصفها البارودي في الجزء الأول من مذكراته بقوله

أما « الخجا » فكبيرة وكسيحة و « كهينة » شر من الآفات
وجه قبيح ما رأيت نظيره بين العجائز في جميع حياتي

وكـــأن إبليســـاً أقـــام بجسمهـــا أو أنهـــا فـــرخ مـــن السعـــلاة

أقام البارودي عند « الخجا » إلىٰ أن ختم القرآن الكريم فنقله والده إلىٰ كتّاب آخر ليتعلم القراءة والكتابة

ولدىٰ بلوغه العاشرة من العمر ، أرسله والده إلىٰ المدرسة العازارية ليتعلم اللغة الفرنسية وهنا لمس البارودي الفارق الكبير بين الكتاتيب والعازارية

وتنقل البارودي بعدها في عدد من المدارس ، إلىٰ أن فاز بالشهادة الابتدائية من مدرسة « الباغوشية » بدرجة أعلىٰ. وهذه الشهادة مكنته من الانتساب إلىٰ المدرسة الاعدادية في مكتب عنبر. ويقول البارودي إنه فرح بدخوله المدرسة الاعدادية ، لأن تلميذ هذه المدرسة كان يتمتع بمكانة عالية في الأوساط، نظراً لتفشي الجهل. وكان من يحوز الاعدادية يُعدّ من أرقىٰ شبان ذلك الزمن، وينظر إليه الناس، كما ينظرون اليوم إلىٰ حامل الدكتوراه ! . ويروي البارودي إنه نال الاعدادية ، بعد ست سنوات ، في العام ١٩٠٨

صاحب جريدة ساخرة

في العهد التركي ، أيام الظلم والظلام ، طاب للبارودي ، أن يكون صاحب جريدة ، أو كما كانوا يسمونها في ذلك الحين « كزّيطة » ، وهي كلمة مشتقة من كلمة « غازيتا » الايطالية ، فأنشأ جريدة أسبوعية شعبية ، تحمل اسم « حط بالخرج » كان يحررها بالعامية ، وبأسلوب يخيل إلينا إنه ضاحك ، ومرح ، وخفيف الظل وما إن صدر منها عددان ، حتىٰ ثارت ثائرة أبيه ، وهدده بالطرد من المنزل إذا ظهر اسمه في الجريدة ثانية فاضطر للاتفاق مع عارف الهبل ، علىٰ أن يكون هذا مديراً مسؤولاً عنها ، وأن يتابع البارودي تحريرها سراً .

أوقف البارودي جريدته الشعبية هذه ، بعد سنة من صدورها ، ليلبي دعوة

العلامة محمد كرد علي ، مؤسس المجمع العلمي العربي ورئيسه ، ويعمل معه في تحرير جريدته « المقتبس »

وتاقت نفس البارودي بعد ذلك إلىٰ متابعة العلم ، فسافر إلىٰ فرنسا سراً ، دون علم أبيه ، ولكنه ما كاد يبلغها ، حتىٰ جاء من يخبره بأن والده غاضب أشد الغضب ، وأنه أقسم أن لا يرسل إليه أي مبلغ من المال كما أقسم بالطلاق علىٰ جميع الأهل ، بأن لا يرسل واحد إليه شيئاً فاضطر البارودي إلىٰ العودة ، واعتبر رحلته للسياحة ، لا لطلب العلم ، عملاً بنصيحة الناصحين .

البارودي والحياة الزوجية

في العام ١٩١١ تزوج البارودي من كريمة السيد أحمد الدالاتي واستمرت حياته الزوجية اثنين وأربعين عاماً . ويعترف صاحبنا في مذكراته بأن زوجته كانت مخلصة ، وصالحة ، ووفيه له واحتملت كثيراً من المتاعب والهموم بسبب السجن والنفي ، والتشريد الذي تعرض له خلال نشاطه السياسي أيام الانتداب الفرنسي ، بالإضافة إلىٰ سهره وانشغاله بلقاء الأصدقاء .

ويثني البارودي علىٰ زوجته أطيب ثناء ويقول :

ولي زوجة ما في الأنام مثالها حبتني بعطف لا يضارعه شكري
عشقت بها الأخلاق والود والهنا وحسن سجايا الغيد يندر في عصري
قضينا معاً عشرين عاماً مكرراً كعشرين يوماً لا تعد من العمر

مرحلة الكفاح الوطني

عقب عودة البارودي إلىٰ دمشق وزواجه ، بدأ كفاحه الوطني في مقاومة الاحتلال التركي . وحين قدّر لسورية أن تستقل ، ويعتلي عرشها الملك الهاشمي الراحل فيصل الأول ، كان البارودي في طليعة من رحب بالعهد ،

وتفانىٰ في خدمته ولكن الفرحة لم تطل ، إذ ما لبث الانتداب الفرنسي أن أطل بوجهه الكالح ، وجثم فوق الصدور فكان لفخري البارودي دور أي دور في مقاومته ، وإذكاء الروح الوطنية كانت الجماهير تزحف كل يوم إلىٰ داره في حي القنوات ، تهتف بسقوط الانتداب ، وتحيّي الاستقلال ، وتطالب بالجلاء ولا تنصرف قبل أن يطلّ عليها « زعيم الشباب » ـ وهذا هو لقبه آن ذاك ـ فيتكلم ويذكي حماستها ، ويدعوها إلىٰ النضال والمقاومة ، حتىٰ يتحقق الجلاء والاستقلال من أجل هذا سُجن البارودي وعذب ، ثم نفي إلىٰ محافظة الحسكة وعندها تفجرت الثورة الداخلية في البلاد ، وأضربت سورية بكاملها إضراباً عاماً شاملاً ، استمر أربعة وستين يوماً حدث ذلك في العام ١٩٣٦ ولم تقبل دمشق بالعودة عن إضرابها إلا حين رضخت فرنسا لمطالب الشعب ، وقبلت أن تعيد « زعيم الشباب » من منفاه وحين أُعلن أن البارودي سيعود إلىٰ دمشق ، خرجت العاصمة السورية عن بكرة أبيها خرجت بشيبها وشبانها ، ونسائها وشيوخها وأطفالها . خرجت بقراها وضواحيها وأريافها ، لاستقبال الزعيم العائد . . . وظلت دمشق ، حتىٰ أرخىٰ الليل سدوله ، تنتظر عودته ، ولكن البارودي ، الذي كان صاحب الكلمة الأولىٰ في الشعب ، لم يقدّر له أن يصل فعاودت دمشق خروجها لاستقباله في اليوم الثاني بحماسة أشد من اليوم الأول . . . وتكرر ما حدث أمس ، ولم يعد البارودي من المنفىٰ . . فباتت دمشق حزينة ، قلقة ، تكفكف دموع الحزن والخيبة . . . ومرة ثالثة خرجت دمشق ، لاستقبال الرجل ، الذي أصبح أملها ومحط رجائها وقائدها . . وفي هذه المرة وصل البارودي ، وسط مظاهرات شعبية لم تشهد البلاد لها مثيلاً طوال حياتها وحُمل الرجل علىٰ الأكتاف حيناً ، ورفع مع السيارة التي تقله حيناً آخر . . . وباتت دمشق في تلك الليلة تكفكف ، لا دموع الحزن والأسىٰ ، بل دموع الفرح والبهجة والسرور . واستمرت الاحتفالات بعودة الزعيم البطل أياماً وليالي عديدة

بلاد العرب أوطاني

وفي فترة الكفاح الوطني هذه ، وضع فخري البارودي عدداً من الأناشيد الوطنية ، التي لا تزال الإذاعات ترددها في المناسبات القومية ، كما يتغنىٰ بها طلاب المدارس السورية الابتدائية والثانوية ومن هذه الأناشيد نشيده المعروف

بــــلاد العـــــرب أوطــــانـــــي   مـــــن الشـــــام لبغـــــدان
ومـــــن نجــــد إلـــــىٰ يمــــن   إلـــــىٰ مصـــــر فتطـــــوان

ومن أناشيده الوطنية

أنــــت ســـــوريــــة بــــلادي   أنــــت عنـــوان الكـــرامـــة

ومنها أيضاً

ســــوريـــة يــــا ذات المجـــد   والعـــزة فـــي مـــاضـــي العهـــد

ومنها أيضاً

نحـــن جنـــد الله شبـــان البـــلاد   نكـــره الـــذل ونـــأبىٰ الاضطهـــاد

البارودي . . . والموسيقا

عندما تحقق للبلاد استقلالها ، وفازت بسيادتها ، تخلىٰ زعيم الشباب ، عن زعامته السياسية ، وانصرف إلىٰ نواح عديدة من الحياة ، أهمها الفن والموسيقا . وأستأنف حملته من أجل تأسيس معهد للموسيقا وكان قد بدأ هذه الحملة في العام ١٩٤٠ مع الدكتور منير العجلاني ، حين كان وزيراً للشباب . ووفق هذه المرة في تأسيس هذا المعهد ، الذي دعي بالمعهد الموسيقي العربي وقد جمع فيه ورثة الموسيقا القديمة ، أمثال الشيخ علي الدرويش وعمر البطش وسعيد فرحات كما جمع إليه عدداً من المثقفين الموسيقيين الجدد . ومن الغريب أن البارودي لم يكن يجد تعارضاً بين

الموسيقا الشرقية والموسيقا الغربية ، فكان يسعىٰ إلىٰ تدريسهما معاً ، شريطة أن تكونا منفصلتين وكان يعتقد أن التداخل بينهما مخالف للمنطق والواقع والعلم ، لأن طريقة كل منهما منفصلة عن الأخرىٰ ومن هنا كان ينتقد أشد الانتقاد أولئك الذين يستعملون الأسلوب الغربي في الغناء العربي والعكس بالعكس

وكما سعىٰ فخري البارودي إلىٰ تأسيس المعهد الموسيقي ، عمل علىٰ بعث فكرة رقص السماح وغيرها من الرقصات العربية المتوارثة وكان يدعو بإلحاح وإصرار إلىٰ النهوض بفن الرقص عامة لعلاقته بالموسيقا وكان يعتقد أنه إذا نهض الرقص نهضت الموسيقا وكان يؤمن بأن الرقص فن محترم كسائر الفنون الراقية ، ويسخر سخرية لاذعة ممن يعتقد أنه فن معيب كذلك كان يعتبر الرقص من التراث العربي ، والسعي إلىٰ ترقيته دليل علىٰ الوطنية الصادقة

ومن الطريف أن بعض المتزمتين هاجموه ذات يوم في إحدىٰ الصحف بسبب دعوته هذه . وقد رد علىٰ هذا الهجوم بقصيدة قال فيها

وإنـي اليـوم إذ ادعـو لـرقـص فـإنـي كـم دعـوت إلـىٰ الكفـاح

ونحب أن نشير هنا إلىٰ أن كل الموشحات تشترك وتتآلف لتشكل رقص السماح ، لأن رقص السماح عبارة عن كلام يغنّىٰ بأنغام معروفة ، وأوزان مختلفة ، فيتحرك الراقص علىٰ أنغامها ويضرب برجليه .

سهراته ونوادره

كان بيت فخري البارودي محط الأنظار ، وكانت سهراته في داره العربية الشرقية بحي القنوات ، تضم الصفوة المختارة من أهل الفن والظرف والسياسة والصحافة والأدب . . . ولم تكن هذه السهرات مصنوعة ولا متكلفة ، ولم تكن تسير علىٰ برنامج كان فخري البارودي لا يترك غريباً يدخل البلد ،

أو ضيفاً ذا وزن سياسي ، أو أدبي أو فني ، دون أن يدعوه إلىٰ بيته   فإذا دعاه كانت الدعوة بسيطة لا تكلف فيها ولا تصنع   والكرم في هذه الدعوات مرتبط بحظ الضيف   وقد تبلغ تكاليف الدعوة عشر ليرات   وقد تصل إلىٰ ألفين . . . وكلاهما سواء عنده . قد يدعو شخصية بارزة ، ثم يدعو معها عشرات من الأصدقاء   وكثيراً ما زرناه في لياليه فوجدنا مائدته أفرغ من فؤاد أم موسىٰ . وفي اليوم التالي قد نجد خروفين ، وليس في الدار أكثر من مدعوين ! .

وأكثر هذه السهرات والليالي تحفل بالنادرة النادرة ، والحديث الشهي الجذاب ، والطرف الطريفة ، التي قد لا تسمعها ولا تحلم بها إلا في مجلس البارودي

وإلىٰ جانب النادرة ، والطرفة ، والحديث الشائق ، هناك الطرب الصحيح ، الذي قلما نسمعه في هذه الأيام   كانت دار البارودي علىٰ بعد خطوات من دار الإذاعة القديمة ، الكائنة في شارع النصر . وكان للبارودي فضل كبير علىٰ الإذاعة ، وكثير من الإذاعيين . وكان الموسيقيون والمغنون يكنون له أقصىٰ درجات الحب والإجلال والتقدير . فقد أحسن إليهم جميعاً ، ورعىٰ معظمهم مادة ومعنىٰ ، فكانوا يحملون آلاتهم الموسيقية ، ويأتون إلىٰ داره ، فيأكلون ويشربون ويغنون ويعزفون حتىٰ مطلع الفجر

وكانت هذه السهرات البارودية حديث المجتمع السوري ، ومحط آماله . . . كثيرون كانوا يحلمون بأن يسعفهم الحظ ، ويكونون ذات ليلة علىٰ مائدة البارودي ، ينعمون بالحديث والنادرة ، ويشنّفون الآذان والأسماع بأعذب الأنغام ، وألطف الألحان   لقد كان الطرب في سهرات البارودي طبيعياً ، لا كلفة فيه ولا صنعة ، لذا كان يملأ النفس نشوة ومرحاً

البارودي وصباح فخري

ولعل من أبرز الفنانين الذين رعاهم البارودي وسهر علىٰ توجيه مواهبهم المطرب الأستاذ صباح فخري ، الذي تقول هويته إنه من مواليد العام ١٩٣٣ ،

ويحمل اسم صباح الدين الشيخ محمد أبو قوس   لقد عرفه البارودي فتىً صغيراً ، فتوسم فيه الخير ، وتنبأ له بمستقبل فني باهر ، فأطلق عليه اسمه ، وبذل في توجيهه وتعليمه وتدريبه كثيراً من ماله ووقته   ولمع اسم صباح فخري بعدئذ ، واحتل مكانة فنية يحسده عليها كثير من أهل الفن والطرب وعشق مطربنا الغناء العربي القديم ، ولا سيما التواشيح والأدوار القديمة ، فعرفت به وعرف بها ، ولم يعد بمقدور أحد من أهل الفن أن ينازعه عليها

أمير الشعراء في دمشق

قلنا إن فخري البارودي لم يكن يدع شخصاً ذا مكانة يدخل دمشق دون أن يدعوه إلىٰ داره فيكرّمه بما يستطيع ، وأحياناً بأقصىٰ ما يستطيع

وعندما زار أمير الشعراء أحمد شوقي دمشق في العام ١٩٢٨ كان البارودي علىٰ ما يبدو مفلساً ، فأسرع إلىٰ قريته في بلدة دوما ، وباع أرضاً من الزيتون ، ودعا أمير الشعراء   وكان برفقته الموسيقار محمد عبد الوهاب   ودعا كذلك نخبة من كبار الموسيقيين والعازفين إلىٰ سهرة في داره

ويروي البارودي أنه في هذه السهرة كلف الموسيقار الكبير بتلحين نشيده الوطني المعروف

بـلاد العـرب أوطـانـي   مـن الشـام لبغـدان
ومـن نجـد إلـىٰ يمـن   إلـىٰ مصـر فتطـوان

فطلب عبد الوهاب أن يستبدل البارودي كلمة « تطوان » بغيرها ، فاعتذر البارودي وقال له ، إن تطوان هي بعض حدود بلادنا العربية ، ويستحيل تغييرها ، فتبسم عبد الوهاب وقال له

ـ طيب أنت فاكرني يا فخري بيه ملحن جغرافيا ؟ . .

ورفض تلحين النشيد ذائع الصيت

مع حسني تللو

بعد أن تحدثنا بشيء من الإيجاز عن مولد البارودي ونشأته ، وألمحنا إلىٰ بعض مواقفه الوطنية ، وتعلق الشعب السوري به ، وعن رعايته للفن والغناء ورقص السماح وسهراته ، . . . بعد أن تحدثنا عن كل هذا ، جدير بنا أن نتحدث عن صديق البارودي الحميم ، وتوأم نفسه ، ورفيقه في سهراته ، ونديمه في كل مجلس وناد ونعني بذلك ، ظريف دمشق المعروف المرحوم حسني تللو

كان حسني تللو واحداً من أظرف ظرفاء دمشق إذا تكلم صمت الآخرون ، وأصغوا إلىٰ طرفه ونوادره التي لا تنتهي وكان سيد المجالس ، وأميراً من أمراء الظرف وخفة الروح يصبو إلىٰ مجلسه وسماع طُرَفه الكبار والسياسيون والأدباء وأهل الفن وكان يستعين برواية طرفه ، لا بالألفاظ الرشيقة المنمقة وحدها ، بل كان يشرك في رواية نوادره ، وجهه وعينيه الكبيرتين الجاحظتين ، وحاجبيه ، وخديه ، ويديه ، وربما أذنيه ، وكل تقاطيع وجهه وكرشه الضخم المكتنز فإذا ما بدأ برواية قصة أو طرفة ، لجأ إلىٰ الصوت الهادئ ، وأشرك أسلحته المذكورة في التعبير ، فيضج الحاضرون بالضحك المتواصل ، بينما يظل حسني تللو يتابع رواية نوادره ، دون أن يبتسم أو تنفرج له شفة

هذا هو حسني تللو ، الذي دامت صداقته للبارودي ستين عاماً . ويقول صديقنا الشاعر المرحوم أحمد الجندي ، إن البارودي وتللو اختلفا ثلاثين سنة من أصل الستين ، ولكنه اختلاف لا ينقطع فيه الكلام والطعام ، بل كانت تظهر علىٰ وجه كل منهما سحابة من الامتعاض تضحك الثكلىٰ . وكان لحسني تللو عند البارودي وظيفة دائمة هي الإثارة وما كان أحد يستطيع إغاظة فخري البارودي كحسني تللو

ومن العجيب أن البارودي وتللو لم يكونا متشابهين في شيء

كان أحدهما وهو البارودي ، رفيعاً نحيلاً ، والآخر سميناً مكوراً وكان الأول عصبياً إلىٰ درجة الانفجار . . وكان تللو بارداً هادئاً حتىٰ الصقيع وكان البارودي يتحدث بسرعة مئة كلمة في الدقيقة بينما تظل الكلمة الواحدة في فم الآخر وقتاً طويلاً ، ولا تخرج في النهاية إلا متثاقلة ، كأنها تخجل أن تفارق الشفة التي تلوكها وتعجنها

كان البارودي زاهداً بالطعام ، يأكل أكل الطيور أكثر الأيام وكان تللو يأكل باستمرار ، ولعل ألذ شيء عنده في الحياة ، أن لا يرىٰ فكيه ساكنين .

كان البارودي ذا أذن موسيقية مشهورة ، وكان تللو أزهد الناس بالموسيقا غير أن تللو رغم كل ما مرّ بك ، الرأس المفكر ، والعقل المدبر لحياة البارودي كلها

كان البارودي إذا ترك صديق عمره ، ارتبكت أحواله مادياً ، وساءت علاقاته مع بعض الناس ، واضطرب ميزانه ، كأن الطبيعة جعلت هذين الصديقين صنوين يكمل أحدهما الآخر وحين مات البارودي في الثاني من أيار عام ١٩٦٦ عن ثمانية وسبعين عاماً ، انزوىٰ حسني تللو في بيته ثلاث سنوات ، لم يغادره إلا لماماً ، إلىٰ أن اشتد به الأسىٰ والمرض ، فغادره إلىٰ الدار الفانية عن خمسة وسبعين عاماً ، حيث لحق برفيق عمره ونجيّ روحه

ذات يوم في إحدىٰ سهرات الشتاء الباردة ، قفزت ذبابة إلىٰ مجلس البارودي ، وصارت تضايقه بحركاتها وألعابها السمجة . . . ووقفت فجأة علىٰ أذنه ، فثار وغضب ثم صاح :

ـ يا ناس . . . يا عالم . . . ذبابة في عزّ الشتاء والبرد ؟ .

فحملق به حسني تللو ، وقال بعد صمت طويل :

ـ ليش مستغرب يا فخري بك ؟ يمكن تكون لابسة كنزة صوف ! . .

كان البارودي يستقبل كل من يلقاه بالعناق والقبلات ، ويرفق قبلاته هذه بسيل من النوادر والتعليقات وكان يسمي قبلاته هذه للشبان ، وذوي الوجه الصبوح بالضريبة وذات يوم التقىٰ صديقه الشاعر المصري أحمد رامي ، فانهال عليه لثماً وتقبيلاً ، فسأله رامي

ـ صحيح يا فخري بيه أن قبلاتك للشباب ضريبة ، زي ما بيقولوا ؟ .

فأجابه البارودي علىٰ الفور :

ـ أي والله صحيح . . . بس قبلاتي لك لله ورسوله ! .

مذكراته ومؤلفاته

ترك البارودي من المؤلفات جزءين من مذكراته ، تحدث في الأول عن نشأته وأسرته ، وبيئته والمجتمع الدمشقي في ذلك الحين أما في الجزء الثاني فقد تحدث عن رحلته إلىٰ فرنسا . وكان مقدراً لهذه المذكرات أن تصدر في عشرة أجزاء ، كما أشار إلىٰ ذلك ، ولكنها توقفت عن الظهور بعد الجزء الثاني .

وترك البارودي عدة مؤلفات أخرىٰ حول كارثة فلسطين ، والسفور والحجاب ، والصلح مع إسرائيل وغيرها . وله عدا ذلك كتاب ضخم عن الموسيقا يسهِّل تعلم النوتة الموسيقية بطريقة ابتكرها ، وعمل من أجلها زمناً طويلاً . . . ولكن هذا الكتاب الجليل ، احترق مع بالغ الأسف ، يوم احترقت داره في الثامن عشر من تموز عام ١٩٦٣ ، خلال محاولة الانقلاب الفاشلة التي جرت في ذلك اليوم .

وللبارودي ، عدا ما تقدم ، ديوانان من الشعر ، الأول : « تاريخ يتكلم » والآخر : « قلب يتكلم » . وقد سجل في الأول مجموعة قصائد ومقطوعات ، قالها في مناسبات شتىٰ . . . وجمع في الثاني شعر المناسبات والأخوانيات ، التي كانت تمليها الظروف واللقاءات المختلفة ، وما أكثرها عند فقيدنا الكبير .

وشعر البارودي بسيط ، لا تكلف فيه ولا صنعة وهو يجنح أحياناً إلىٰ السهولة المفرطة ، حتىٰ يبدو في ثوب فضفاض ، يدنو به أحياناً من العامية وكثيراً ما تزعج شاعرنا القوافي ، وتغيب عن ذاكرته الألفاظ الفصيحة ، والمعاني البليغة ، فيعزف عنها ، ويستعين بالعامية ويتحاشىٰ غضب سيبويه ونفطويه ، وأبي الأسود الدؤلي ، والخليل بن أحمد الفراهيدي ، فيضع ما يحتاجه من الألفاظ العامية بين قوسين والشواهد علىٰ ذلك أكثر من أن تحصىٰ في شعر البارودي بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إنه من النادر أن تخلو قصيدة له من كلمات عامية ، وضعها بين أقواس ، ليتحاشىٰ ـ علىٰ حد قوله ـ نقد الناقدين ، ولوم المتزمتين . وهو حين يضطر إلىٰ ذلك يقول « أعانني الله علىٰ تعقيدات لغتهم ، وأغاثني من تقعراتهم » ـ ويقصد أئمة اللغة والنحو ـ.

وجه بعضهم اللوم إلىٰ البارودي ، حين تقدمت به السن ، وهو ما زال ضاحكاً ، مرحاً ، يحيا كأبناء العشرين وقد رد علىٰ هؤلاء مؤكداً « إن نفسه ما زالت خضراء »

جـــلابيـــب الصبـــا عتقـــت وأحـــلامـــي كمـــا عـــرفـــت
(ونفســي لــم تــزل خضــرا) وممـــراحـــاً كمـــا خُلقـــت
وطـــول العمـــر لـــن تبلـــىٰ ولـــو لـــلألـــف قـــد وصلـــت

وفي صيف العام ١٩٤٩ ذهب البارودي إلىٰ نبع الباروك في لبنان لقضاء أيام . وبحث هناك عن صديقه الشاعر أمين نخله فلم يجده ، فأبرق إليه بالبيتين التاليين :

تعال إلىٰ عين الصفا واترك الجفا أمين إلىٰ م البعد قل لي أما كفىٰ ؟
تعـال وأسـرع علّنـا بـاجتمـاعنـا تعود لنا ذكرىٰ الزمان الذي عفا

وحين قرأها أمين نخله حضر إلىٰ الباروك ، وقضىٰ مع صديقه فخري البارودي أسبوعاً من أجمل أيام العمر

مداعبات الأحباب

عرفنا أن شعر البارودي يتصف بالمرح والنكتة وخفة الروح وهو دون ريب صورة صادقة لصاحبه ذات يوم من العام ١٩٣٠ زاره في قريته « الجرباء » بالغوطة الأستاذان خليل مردم بك وأحمد شاكر الكرمي ، ونائب دمشق زكي الخطيب وحين أرادوا العودة ، كتبوا ـ ولعل الكاتب المرحوم خليل مردم بك ، لأنه الشاعر الوحيد بينهم ـ علىٰ جدار الغرفة هذه الأبيات

ألا يـا صـاحـب « الجـربـا »	بـلاك الله بـالجـرب
فـإنـا قـد وجـدنـا	عنـدك البلـوىٰ علـىٰ كثـب
فلـدغ البـق والنـا	مـوس يـدنينـا مـن العطـب
ومـذ خفنـا الحمـام فقـد	لجـأنـا منـك للهـرب

وحين ركبوا العربة قال له خليل مردم بك

ـ تركنا لك هدية في قاعة السمر

فلما قرأ البارودي الأبيات « الهدية » كتب هذه الأبيات الضاحكة وسلمها لهم قبل أن يذهبوا

ألا يـا عصبـة الأشـرار	أهـل الـزور والكـذب
أأدعـوكـم وأكـرمكـم	وأهجـىٰ دونمـا سبـب ؟
يلـذكمـو الهجـاء كمـا	يلـذ الحـك ذا الجـرب
فمـا أنتـم سـوى « نَـوَر »	ولستـم مـن بنـي العـرب
فشعـركمـو ونثـركمـو	وهجـوكـم علـىٰ ذنبـي

بعض طرائفه الشعرية

ذات يوم من العام ١٩٥٠ ذهب البارودي إلىٰ بيروت ، ونزل في فندق « نيوررويال » وكان تعباً ، فأراد أن ينام ، ولكن صخب الموسيقا من الملهىٰ المجاور ، حال دون ذلك . فلما هدأت الموسيقا ، بعد منتصف الليل

بساعات ، أخذ صرصور ثقيل ، يرسل غناءه والحانه فإذا ما ترك البارودي سريره وهبّ ليبحث عنه سكت وإذا عاد الشاعر إلىٰ سريره ، استأنف الصرصور غناءه ! . وفي الصباح كانت هذه الأبيات

يا ليلة النحس في بيروت حالفني ... فيها النعاس وكرب النفس مشؤوم
لاالبق، لاالقمل، لاالبرغوث ازعجني ... لا البرغش الفظ ، لا الذبان ، لا البوم
لكنما صرّ صرصور فأقلقني ... وطار نومي وجفني منه محروم
في أول الليل صوت « الجاز » أرّقني ... والقلب في الصدر مهموم ومغموم
ما كاد يسكت قرع الطبل واأسفي ... حتىٰ سمعت صريراً كله شوم
في غرفتي حل صرصور فأقلقني ... والجسم من صوته المسموم، مسموم!
يصرّ صريراً ، فإن أنهض « لألقطه » ... يسكت ، وإن نمت يستهويه ترنيم !
وإن رجعت أعاد العزف متصلاً ... كأن ترنيمه للغيظ تنغيم
يا ليلة لم أذق طعماً لغفوتها ... قضيتها ، وأنا بالغيظ محموم

كان فخري البارودي علىٰ موعد مع رئيس المجمع العلمي العربي العلامة محمد كرد علي ، ولكن رئيس المجمع نسي الموعد ، فرد البارودي علىٰ ذلك بقوله :

إني لأعجب من وعد يخالفه ... رئيس مجمعنا العلمي في البلد
ما دام « ريّسنا » دامت سلامته ... معلم النشء هادي الناس للرشد
قد بات يخلف في ميعاده علنا ... فلا ملام ولا عتب علىٰ أحد !

وكان للبارودي مساجلات مع بعض الشعراء ذات يوم رأىٰ الشاعر محمد البزم يفكر ، فكتب إليه بيتاً ، فأجاب عليه . وجرت بين الرجلين المساجلة التالية :

البارودي :

أراك كثير الهم منقبض الصدر ... أصابك عشق أم سئمت من العمر ؟

البزم

أجل قد مللت العمر ، والعمر ملني وشمت من الأيام حادثة النكر

البارودي

بحقك خفف من همومك « نتفة » فما العمر إلا ما يمر من الدهر

وما الهم إلا وهم فكر ، فلا تكن أسيراً لأوهام الخيال أو الفكر

البزم

علىٰ أنني ، والله يشهد أنني أخو همة ، لا تقتضيني سوىٰ الفخر

البارودي

أخو الفخر من لا ييأس العمر إنما أخو الفخر من قد عاش متسع الصدر

أيام . . . بلا مرح

كان البارودي كما عرفناه ، متفائلاً ، مرحاً ، ضاحك السن ، ينشر البسمة أينما حل ، ويبعث الأمل في نفس كل من يلقاه . . . ولكن هذا الرجل المتفائل المرح ، كانت تمر به في أحيان قليلة ، ساعات من اليأس ، يعتزل فيها الناس ، ويغلق بابه دونه ، ولا يطيب له أن يلقىٰ من الناس أحداً ويقول في ديوانه « تاريخ يتكلم »

« بعد رجوعي من عمان التزمت داري ، ولم أخرج إلىٰ الأسواق خوفاً من الحالة التي كانت تسيطر علىٰ البلاد ، أيام خروج الفيشيين ، ودخول الديغوليين إلىٰ دمشق . وكانت دمشق في ذلك الحين ، ما تزال تحت الانتداب الفرنسي . ويردف البارودي مقدمته هذه بالأبيات التالية

سئمت من الدنيا فطلقت أهلها ثلاثاً ، وهل مثلي يلام علىٰ الزهد

ولما رماني الدهر، والدهر قُلّب فررت إلىٰ عمان، خوف الأذىٰ المردي

قضيت بها عامين وحدي مشتّتاً سلا فيهما صحبي، ولم يذكروا عهدي

فلم يسألوا عني ، ولا عن صداقتي ... ولي ألف خل في العراق وفي نجد
وعشت فريداً مبعداً عن أحبتي ... وهل في الورىٰ شيء أمر من البعد ؟
فعدت وعاد الناس من كل جانب ... خصوصاً صحابي يخلصون صفا الود
فلا كان هذا الود بعد الذي جرىٰ ... وصحبة ذي الوجهين، ماذا ترىٰ تجدي؟
وإني سأبقىٰ ما حييت بوحدتي ... أعيش سعيداً سالماً ، مفرداً وحدي

هكذا تألم البارودي من تنكر الصحب ونسيانهم وهكذا حزن وابتأس ، لتجاهلهم وعدم سؤالهم عنه ، خلال تغيبه عن دمشق في عاصمة الأردن ولكن هل استطاع البارودي أن يعيش طويلاً وحده ؟ لقد سئم وحدته بعد وقت قصير ، وغفر لمن نسي وتنكر ، وقبل اعتذار المعتذرين ، وحجتهم بأن الظرف لم يكن يسمح بالسؤال ، فضلاً عن الزيارة بلىٰ عاد البارودي إلىٰ جميع صحبه ، ولم يحقد علىٰ أحد ، لأن الحقد لم يكن يجد سبيلاً إلىٰ قلبه الكبير

ضيق . . . وأزمات

وما دمنا في معرض الحديث عن اغتراب البارودي ، خلال الحرب العالمية الثانية في الأردن ، فجدير بنا أن نذكر أن ظروفاً مادية قاسية ، مرت بالزعيم السياسي ، ذي الوطنية الصادقة ، والشاعر الأديب المرح الضاحك أبداً وقد روىٰ البارودي أن رجلاً جاءه في العام ١٩٤١ يشكو إليه ، ويدعىٰ أحمد القعقاع ، ضيق ذات يده ، وقلة العمل ، وهو اللاجئ المشرد ، فاستعان به علىٰ قضاء حوائجه وطبخ طعامه وسكنا معاً في غرفة واحدة ، قسماها بستارة إلىٰ قسمين ، قسم له ، والآخر لسكن الرجل والطبخ وكان ابن عمة البارودي يرسل إليه من دمشق كل شهر راتباً شهرياً من أملاكه قدره خمسة عشر ديناراً وذات يوم تأخر الراتب ، بسبب إغلاق الحدود بين سورية والأردن وكان الوقت عيداً ، فاضطر أن يقترض من أحد الباعة جنيها لينفقه في العيد . .
ودخل ذات يوم إلىٰ المطبخ ، فوجد أحمد القعقاع يشتم الدهر ، ويرقع قميص

البارودي بقطعة من جرابه ، فأنشأ يقول

يـا أحمـد القعقـاع مهـلاً ولا تكـن ... بَـرمـا ولا تجـزع علـىٰ الأسبـاب
فـالـدهـر دولاب ، ورزقـكَ قسمـة ... والصبـر يفتـح مغلـق الأبـواب
إن جـاء عيـد فـاستـدنـا « ليـرة » ... ورقعـت سـروالـي ببعـض جـرابـي
كـم مـرّ عيـد والـدراهـم فـي يـدي ... « كالكشك » تأتيني بغير حساب
فـاصبـر فـربـك لا يضيّـع أجـرنـا ... والـرزق كـالآجـال رهـن كتـاب
وحيـاتنـا بـالفقـر وهـي بليـة ... تطـوىٰ علـىٰ جـوع ودون ثيـاب
خيـر لنـا مـن أن نعيـش بـذلـة ... نحنـي الـرؤوس لطغمـة الأغـراب
وإذا الحـواضـر والقصـور نبت بنـا ... فلنـا الهنـا بمضـارب الأعـراب

ولم يتغير البارودي في شيخوخته عن نهج حياته أيام الصبا والشباب والكهولة ، من حب للمرح والمزاح والنادرة والطرب والموسيقا وفي هذا يقول

كلمـا يـزداد عمـري فـي الأنـام ... سنـة يـزداد فـي قلبـي الغـرام
فـأنـا شيـخ بعقلـي إنمـا ... أنـا فـي قلبـي وأحـلامـي غـلام
نحـن فـي عيـش رغيـد وبـه ... قـد رضينـا فعلـىٰ الـدنيـا السـلام

لغة العيون

وقبل أن نفرغ من الحديث عن البارودي وشعره ، نحب أن نذكر أن الرجل تحدث ذات يوم عن العيون ، ووصف جمالها وسحرها فقال :

لغـة العيـون تفـوق كـل لغـات ... تـوحـي عـن الأغـراض بـالنظـرات
مـن غيـر مـا كلـم ولا همسـات ... بيـن الأنـام تـدار بـاللحظـات
لغـة العيـون عـواطـف وشجـون ... حـركـاتهـن حـواجـب وجفـون
والقصد من نظر المخاطب يفهم ... واللحـظ ينبـئ بـالضميـر ويعلـم
عنـي خـذوا درس الهـوىٰ وتعلمـوا ... ما في عيون الناس من حركات

بعض المعاني في العيون عويصة والبعض ظاهرة بها منصوصة
ولكل معنىً نظرة مخصوصة فيها الذي يغنيك عن صفحات
وهناك عين قل أعوذ بربنا طعناتها في الجسم أفتك من قنا
إن مر صاحبها فتضطرب الدنا وترىٰ الجميع يعوذ بالآيات
خوف الإصابة بعضهم قد يتفل ويعوذ بالرحمن ثم يبسمل
كي لا يحل به البلاء المنزل بمصيبة من هذه النظرات

* * *

وبعد . . . فما نعرف أن رجلاً أجمعت القلوب علىٰ حبه ، والتعلق به ، والإعجاب بصدق وطنيته ، وحيويته النادرة ، وذكائه الوقاد ، وحماسته المتدفقة ، وخفة ظله ، والنكتة التي لا تفارق شفتيه ، كما أجمعت علىٰ حب فخري البارودي . إن وطنيته لا تبارىٰ ، وحماسته لكل مشروع وطني ، أو اجتماعي ، أو فني ، حماسة لا تجارىٰ . . كان البارودي في صدق وطنيته ، كما وصفه شاعر العراق معروف الرصافي بقوله

من أراد منكم أن يعزّ بلاده فليسع سعي معزّها البارودي

ولقد ختم البارودي ديوانه « تاريخ يتكلم » بهذا البيت :

بعد موتي أمتي تعرفني فأنا في أمتي كالعافيه

ولكن أمة البارودي لم يتح لها أن تعرفه بعد موته ، كما كان يتوقع ، لأسباب لا مجال للخوض فيها

وفي الصفحة الرابعة والثمانين من ديوانه « تاريخ يتكلم » أورد البارودي الأبيات الثلاثة التالية ، وأوصىٰ بأن تكتب علىٰ شاهدة قبره :

قفوا أيها الزوار قربي هنيهة وقولوا سلام أيها الميت الحر

وطوفوا حيال القبر صحبي وفكروا بمـوت أكيـد ثـم يتبعـه حشـر
تروا أن كأس الموت حق على الورى وكـل لـه يـوم ، وإن ألّـف العمـر

وحين أغمض البارودي جفنيه في العام ١٩٦٦ غاب ذلك اللون المرح عن حياة دمشق ، واختفت الابتسامة من الوجه الذي لم تكن تفارقه ، وذبلت الوردة الحمراء على غصنها ، لأنها لم تعد تجد الصدر الذي يزدان بحملها ، والقلب الذي يعشقها أكثر من سائر الورود

لقد غاب البارودي ، وظل مكانه في دنيا الوطنية ، والظرف ، والذوق ، والحماسة ، والفن ، شاغراً . . . وربما ظل شاغراً إلى الأبد

* * *

المراجع :

١ ـ تاريخ يتكلم ـ فخري البارودي .

٢ ـ قلب يتكلم ـ فخري البارودي .

٣ ـ أرشيف المؤلف ، ومعلوماته الخاصة ، من خلال العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه بالزعيم الوطني الكبير فخري البارودي .

* * *

الدكتور عبد الرّحمن الكيّالي

العالِم ... الوطَني ... المجاهد

١٨٨٧ ـ ١٩٦٩



كان واحداً من علماء سورية الأعلام

ووطنياً من خيرة رجال الوطنية

كافح الاستعمار بضراوة

وعمل إلىٰ جانب إخوانه زعماء سورية الأبرار : هنانو ، والجابري ، والأتاسي ، والقوتلي ، والخوري ، الذين قادوا معركة الحرية ، وحققوا الاستقلال والجلاء

كان إلىٰ جانب ذلك طبيباً ، إنساناً ، متواضعاً ، محباً للخير ، ولكل الناس

أجمع خصومه السياسيون علىٰ حبه ، وتقديره ، واحترامه ، قبل أنصاره ومؤيديه

عبد الرحمن الكيالي إنسان كبير كبير

ووطني ، ومكافح جليل .

وعالم من خيرة العلماء والمفكرين

رحل بصمت ، بعد كفاح طويل ، دون أن ينال حقه الكافي من التقدير والتكريم

مولده ونشأته[١]

أبصر الطفل عبد الرحمن النور عام ١٨٨٧ في مدينة حلب . ونشأ وترعرع في أسرة فاضلة ، عرفت بالحفاظ علىٰ الدين ، والتعلق بالعلم والكتاب يضاف إلىٰ ذلك الحرص علىٰ خدمة المواطنين ورعاية شؤونهم

تلقىٰ علومه الابتدائية والثانوية في المدرسة السلطانية بحلب وانتسب بعد ذلك ، إلىٰ كلية الطب في الجامعة الأميركية ببيروت ، وتخرج منها طبيباً عام ١٩١٤

---

(١) معلومات هذا الفصل زودنا بها مشكوراً السيد الدكتور نزار ابن الدكتور عبد الرحمن الكيالي

عقب اندلاع الحرب العالمية الأولىٰ في ذلك العام ، التحق بخدمة الجيش العثماني ، كطبيب مشرف علىٰ الشؤون الصحية للقطعة العسكرية ، المرابطة في مدينة الحمراء ، وتولىٰ معها طبابة مستشفىٰ حماة طوال أيام الحرب التي امتدت من عام ١٩١٤ لغاية العام ١٩١٨

عندما وضعت الحرب أوزارها ، عاد الدكتور الكيالي إلىٰ حلب ، وعُيِّن رئيساً لأطباء المستشفىٰ الوطني

في الحياة السياسية

في المؤتمر الوطني الذي عقد عام ١٩٢٠ في عهد الملك فيصل بن الحسين ، انتخب نائباً عن حلب .

عقب دخول القوات الفرنسية إلىٰ سورية ، التحق الدكتور عبد الرحمن الكيالي بحركة المقاومة الوطنية ، ضد السلطة الفرنسية ، واشترك مع إخوانه المجاهدين الزعيم إبراهيم هنانو ، وهاشم الأتاسي ، وشكري القوتلي ، وسعد الله الجابري ، وفارس الخوري ، بتأسيس « الكتلة الوطنية » هذه الكتلة التي قادت معركة النضال الوطني طوال ربع قرن ، واستطاعت أن تحقق الاستقلال التام لسورية ولبنان عام ١٩٤٦

في العام ١٩٢٨ انتخب الدكتور الكيالي نائباً عن مدينة حلب ، في المجلس النيابي التأسيسي وقد فاز فيه رجال الكتلة ، وحصلوا علىٰ أغلبية المقاعد النيابية ، في مواجهة مرشحي السلطة الفرنسية . واستطاعوا وضع أول دستور لسورية ، غير أن الفرنسيين ، لم يرضوا عن نتائج هذه الانتخابات ، فأقدموا علىٰ حل المجلس التأسيسي وتعليق أحكام الدستور

عاد الدكتور الكيالي ، في هذه المرحلة ، إلىٰ متابعة النضال ضد السلطة المحتلة . وتضاعفت حركة المقاومة الوطنية . وانتشرت المظاهرات الدامية ، في مختلف المدن السورية ولا سيما في دمشق ، التي أعلنت الاضراب العام

طوال ستين يوماً كاملة الأمر الذي أرغم السلطة الفرنسية علىٰ فتح باب المفاوضات مع الكتلة الوطنية . وتم بعد ذلك التوقيع علىٰ معاهدة عام ١٩٣٦

ثم جرىٰ انتخاب الرئيس هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية السورية وتم تشكيل أول وزارة دستورية برئاسة جميل مردم بك وتولىٰ فيها الدكتور عبد الرحمن الكيالي منصب وزارتي العدل والمعارف

قام الدكتور الكيالي في وزارة العدل بإصلاح القضاء وفي وزارة المعارف حرر النظام التعليمي من أدران الحكم الفرنسي ، كما قام بإرسال البعثات الطلابية إلىٰ الخارج ، لتلقي الدراسات الخاصة وكانوا من ثم نواة للنهضة العلمية والاجتماعية في سورية

بعد الهدنة

كانت هذه المرحلة ، بمثابة هدنة بين الحكم الوطني ، والسلطة الفرنسية حتىٰ عام ١٩٣٩ العام الذي نشبت فيه الحرب العالمية الثانية لدىٰ بدء هذه الحرب في أيلول ذلك العام ، قامت السلطة الفرنسية بإبعاد العناصر الوطنية عن الحكم ، وتعيين أنصارها حتىٰ العام ١٩٤٣ ، عندما دخلت قوات الحلفاء إلىٰ سورية ولبنان ، وتم بعد ذلك إعلان استقلال البلدين الجارين

في هذه السنة جرت انتخابات نيابية جديدة ، وفاز الدكتور عبد الرحمن الكيالي بالنيابة عن حلب . ثم أسندت إليه مهام ثلاث وزارات معاً ، هي العدل والأوقاف والأشغال العامة .

وظل الدكتور الكيالي وزيراً في الوزارات الوطنية ، التي تعاقبت علىٰ الحكم

في العام ١٩٤٥ انتهىٰ عهد الكتلة الوطنية ، وحل مكانها حزبان كبيران هما : الحزب الوطني ، الذي قام بتأسيسه فريق من رجال الكتلة الوطنية ، وبينهم الدكتور الكيالي ، وكان يمثل حزب الأكثرية ويتولىٰ شؤون الحكم

وثانيهما حزب الشعب ، الذي أسسه السيدان رشدي الكيخيا وناظم القدسي وكان يمثل المعارضة

الاستقالة والعودة إلىٰ حلب

في العام ١٩٤٦ استقال الدكتور عبد الرحمن الكيالي من الوزارة ، وآثر العودة إلىٰ حلب ، ليستأنف عمله طبيباً ، ورئيساً لجمعية العاديات ، وخدمة المجمع العلمي العربي ، الذي كان عضواً فعالاً فيه يضاف إلىٰ ذلك حرصه علىٰ دعم الحزب الوطني ، الذي تولىٰ رئاسته منذ أوائل الخمسينيات وظل رئيساً له حتىٰ إلغاء الأحزاب السياسية ، بقرار من جمال عبد الناصر ، لدىٰ قيام الوحدة بين سورية ومصر

وانصرف الدكتور الكيالي ، في سنوات حياته الأخيرة ، إلىٰ كتابة مذكراته السياسية

ورحل الدكتور الكيالي إلىٰ جوار ربه ، صباح يوم الجمعة في الثالث عشر من أيلول ١٩٦٩ وشيع إلىٰ مقره الأخير باحتفال كبير يتفق مع علمه ، ونضاله ، ووطنيته

بعض صفاته وأخلاقه

كان الدكتور عبد الرحمن الكيالي أحد أعلام السياسة والفكر العربي في القرن العشرين

كان طبيباً في مقدمة الأطباء علماً ، وذكاء ، وحرصاً علىٰ تقديم خدماته الإنسانية إلىٰ مواطنيه كافة .

كان يمارس عمله الإنساني بالتواضع الذي عرف عنه، والإخلاص الذي اشتهر به .

كان سياسياً حكيماً ، وخطيباً مِصْقعاً دافع عن حقوق أمته وقضاياها القومية أمام مختلف المحافل والمجالس الدولية والمحلية .

كان زعيماً وطنياً كبيراً ، آمن بمبدأ « الدين لله والوطن للجميع » ودعا إليه

كان عميق الفكر ، شغوفاً بالمطالعة في شتىٰ العلوم والآداب وقد استوعب ثقافة عصره ، وعمل بإخلاص علىٰ تقديم فكره وثقافته ، وخبرته إلىٰ جميع مواطنيه

ولعل أبرز صفاته ، أنه كان إنساناً في المقام الأول وقد ترفع عن صغائر الأمور ، وتطلع إلىٰ المستقبل بنظرة شاملة وأجمع الناس ، حتىٰ الخصوم السياسيون منهم ، علىٰ احترامه وتقدير أخلاقه ونبله ، وصفاء سريرته ، وحرصه علىٰ الصالح العام

آثاره ومؤلفاته

ترك الدكتور عبد الرحمن الكيالي عدداً من الآثار والمؤلفات القيمة منها

ـ رد الكتلة الوطنية علىٰ بيانات المفوض السامي الفرنسي

ـ كتاب المراحل ـ وقد صدر منه أربعة أجزاء ، وفيها تسجيل للوقائع والأحداث السياسية في سورية بين عامي ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ بالإضافة إلىٰ أجزاء غير مطبوعة تتعلق بالفترة بين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٥٨

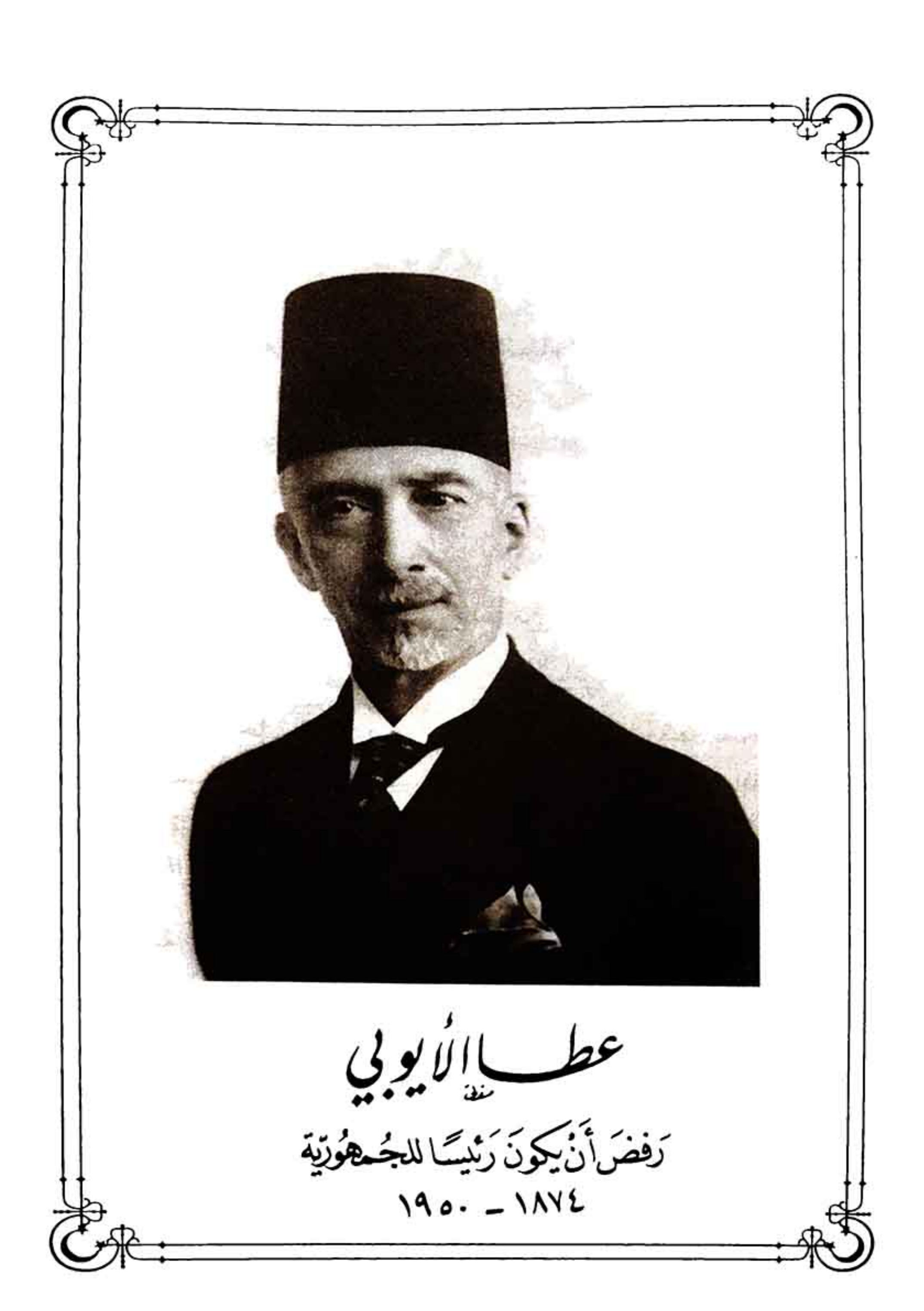
ـ رسالة عن الإمام جعفر الصادق

ـ دراسة عن شريعة حمورابي .

ـ كتاب الجهاد السياسي ـ يستعرض فيه آراءه السياسية خلال مرحلة النضال الوطني

ـ أضواء وآراء ـ كتاب صدر منه جزءان ويتضمن خلاصة فكره السياسي وفلسفته في قضايا المجتمع العربي .

* * *



عطا الأيوبي

رَفضَ أَنْ يكونَ رَئيسًا للجُمهُوريّة

١٨٧٤ ـ ١٩٥٠

ينحدر من أسرة عريقة بالأصالة والنسب

كان سياسياً رصيناً ، يتصف بالعقل والحكمة

وكان في حكمه عادلاً وحازماً

يرفض جميع الوساطات

كان جم التواضع ، كثير الحياء والأدب ، ولا يعرف الحقد سبيلاً إلىٰ قلبه

عندما جرت انتخابات الرئاسة الأولىٰ ، حاول بعض أهله القيام بنشاط معين في مجلس النواب لصالحه ، ودون علمه فلما علم بالأمر ، وجه اللوم للفاعلين ، وأعلن أن مصلحة البلاد ، تقتضي أن يكون رئيس الجمهورية ، شكري القوتلي ، ولا أحد سواه

بعد خمسين عاماً ، من رحيل عطا الأيوبي ، لا تزال البلاد كلها ، تضمر له كل المحبة والتقدير

ويحمل أحد أكبر شوارع دمشق ، اسمه

قصة حياته

أبصر عطا بن محمد علي الأيوبي النور بدمشق في العام ١٨٧٤ وينتمي إلىٰ أسرة عريقة مترفة

تلقىٰ تعليمه الابتدائي في بعض مدارس دمشق ثم رحل إلىٰ الأستانة ، وأكمل دراسته العالية في المكتب الملكي العثماني ، وتخرج منه ، بعد أن درس الآداب والعلوم السياسية ، وخرج إلىٰ الحياة العملية ، علىٰ جانب كبير من العلم والمعرفة . وعُيِّن قائم مقام ثم جرىٰ ترفيعه إلىٰ متصرفية اللاذقية ورفِّع بعدها إلىٰ متصرفية « اينيشل سلفيكا » المستقلة ثم نقل إلىٰ لواء الكرك .

عقب جلاء القوات العثمانية ، ووصول الأمير فيصل إلىٰ دمشق، كان عطا الأيوبي ، في مقدمة مستقبليه والمرحبين به ولدىٰ تشكيل أول حكومة

وطنية ، وقع الاختيار عليه ، فكان وزيراً للعدل

بعد معركة ميسلون ، وانهيار الحكم الفيصلي ، خرج الأيوبي ، بوصفه وزيراً للداخلية ، لوداع الملك فيصل في حوران ؛ كما خرج علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن اليوسف للغرض نفسه وفي جو من الحماسة ، قتل الدروبي واليوسف ونجا السيد الأيوبي من القتل بأعجوبة

عُين السيد الأيوبي مديراً للداخلية في الخامس من كانون الأول ١٩٢٠ حتىٰ الخامس والعشرين من آب ١٩٢٢

وتولىٰ وزارة العدل من ٢٠/ ١٢/ ١٩٢٤ حتىٰ ٤/ ٥/ ١٩٢٦ في وزارة صبحي بركات

وعين وزيراً للعدل ثانية من ١٧/ ٣/ ١٩٣٤ لغاية ٢٢/ ٢/ ١٩٣٦ في وزارة الشيخ تاج الدين الحسني

وشكل الوزارة في ٢٣ شباط ١٩٣٦ ، وكان فيها وزيراً للداخلية واستمرت وزارته بالحكم لغاية ٢١ كانون الأول عام ١٩٣٦

وفي ٢٥ آذار ١٩٣٦ كلف برئاسة الدولة ، فشكل الوزارة وكان فيها وزيراً للداخلية والدفاع الوطني . واستمرت وزارته لغاية الرابع عشر من آب ١٩٤٣

وفي سنة ١٩٥٠ انتقل السيد عطا الأيوبي إلىٰ جوار ربه ، وشيع إلىٰ مقره الأخير ، مأسوفاً عليه ، مبكياً علىٰ نزاهته في الحكم ، وعقله الراجح في معالجة شؤون الدولة .

موقفه من الانتداب الفرنسي

لم يكن موقف السيد الأيوبي بعد الاحتلال الفرنسي مع الوطنيين المتطرفين كان من الوطنيين المعتدلين ، يؤمن بمعالجة الأمور بالحكمة والروية . والاحتلال في نظره أمر واقع ويرىٰ أن التفاهم بين الوطنيين المتطرفين « الكتلة الوطنية » ، والمحتل الفرنسي ، أمر لا بد منه من أجل

كان يؤمن كذلك بضرورة تهيئة جو مناسب لبدء المفاوضات مع الفرنسيين يومذاك آمنت « الكتلة الوطنية » بسلامة موقف الأيوبي ، وقبلت أن يكون المفاوض والوسيط بينهما . وقد نجح السيد الأيوبي بوساطته هذه ، واستطاع ، بحكمته وعقله الراجح ، أن يهيئ جواً من الوفاق ، لإجراء المفاوضات

وجرت المفاوضات ونجحت بالفعل ، وكانت برئاسة السيد هاشم الأتاسي وتم بعد ذلك وضع نصوص المعاهدة في دمشق وجرىٰ التوقيع عليها غير أن المعاهدة عندما عُرضت علىٰ البرلمان الفرنسي، رفضها جملة وتفصيلاً عند ذلك اضطر السيد عطا الأيوبي إلىٰ الاستقالة ، ولزم بيته

وتوطدت عرىٰ الصداقة والتعاون ، بينه وبين رجال الكتلة ، فقد ازدادوا قناعة بنزاهته وصدق وطنيته

بعض صفاته وأخلاقه

كان عطا الأيوبي جم الأدب ، رفيع التهذيب ، رقيق الحاشية ، لا يثور ولا يغضب ، ولا يحقد علىٰ أحد، كثير الحياء والخجل ، شديد الوفاء للصديق ولكل من يعرف ، حريصاً علىٰ مودة الأصدقاء ، لا يعادي أحداً ، ولا أحد يعاديه

كان خلال حكمه ، لا يقبل شفاعة ملتمس ، ولا رجاء متوسط في غير الحق . كان يخشىٰ أن يشيع قبول الالتماس في قلوب الحكام ، فيمحو مكارم الأخلاق

من مبادئه الثابتة ، أن الحاكم إذا كان عادلاً في حكمه وسلوكه ، فلا حاجة للوساطة والشفاعة ، إلا إذا أرادوه العدول عن الحق إلىٰ الظلم ومخالفة القانون .

من أبرز صفاته ، أنه كان يغار علىٰ عمله غيرة شديدة ، ولا يدع كبيرة

ولا صغيرة من أعمال وزارته ، دون أن يقلّبها علىٰ مختلف الوجوه ، ولا يرهق موظفيه بتدقيقها ، ولا يعتمد عليهم كان موظفوه يعتمدون علىٰ فطنته وخبرته وذكائه ، في تسيير جميع الأمور

كان جم التواضع ، يزور جاره الفقير ، ويواسي البائس ، ويمشي في جنازة الميت ، ولا يأنف من زيارة الأسواق التجارية ومجالسة من يعرف من أصحاب المتاجر الصغيرة . ويستمع إلىٰ شكاواهم ، ويعمل علىٰ خدمتهم وانصافهم

كان إنساناً نبيلاً ، وطيباً ، ومتواضعاً ، رغم أنه ينتسب إلىٰ أسرة ارستقراطية الأصل والمنشأ

من آرائه السياسية ، أن الوطنية ليست وقفاً علىٰ فئة دون أخرىٰ . فالتاجر إذا صدق ، والطبيب إذا عالج مريضه بإخلاص ومهارة ، والمحامي إذا برّ باليمين التي أقسمها ، والمعلم إذا أحسن رعاية طلابه وعلمهم أن حب الوطن من الأيمان ، وأن الدين لله والوطن للجميع ، والصحافي إذا نشر الأخبار الصحيحة وذكر الحوادث بأمانة ، وكان شريفاً فيما يكتب ويعلق ، فإن كل واحد من هؤلاء ، وغيرهم ، يكون قد أدىٰ واجبه الوطني والإنساني ، ولا يفضلهم الجندي الشجاع ، الذي مات أو سيموت في ساحة الوغىٰ دفاعاً عن الوطن

الأيوبي رفض رئاسة الجمهورية

في عام ١٩٤٣ كُلف السيد عطا الأيوبي بتشكيل الوزارة ، لوضع حد للأزمة القائمة بين الكتلة الوطنية والفرنسيين ، وإنهاء الاضراب في سورية ، وإجراء مفاوضات بين الطرفين

وقامت وزارة الأيوبي ، بإجراء انتخابات حرة ونزيهة ، أسفرت عن فوز الكتلة الوطنية بالأكثرية المطلوبة برئاسة السيد شكري القوتلي ومن البديهي أن يقوم المجلس بعدها بانتخاب القوتلي رئيساً للجمهورية

قبل أن تجرىٰ انتخابات رئيس الجمهورية ، قام أحد أبناء السيد الأيوبي مع

صديقه رفيق السعيد، بجولة في المحافظات ، هدفها الحصول علىٰ تأييد ترشيح النواب للسيد عطا الأيوبي لرئاسة الجمهورية وقد استطاع هذان الشابان الحصول علىٰ تواقيع اثنين وسبعين نائباً ، بتأييد هذا الترشيح ، من أصل مئة وعشرين نائباً. فعل الشابان ذلك ، دون علم السيد عطا الأيوبي

اتصل الخبر بعد ذلك بالسيد شكري القوتلي ، فأوفد السيد نعيم الانطاكي وزير العدل إلىٰ الأيوبي معاتباً ، وعرض عليه التنازل عن الرئاسة ، إذا كان الأيوبي راغباً بها

فوجئ السيد الأيوبي بما حدث ، فاستدعىٰ ولده مع صديقه ، ووجه إليهما اللوم الشديد علىٰ ما أقدما عليه ، وقال لهما

ـ إن مصلحة الوطن تقضي بأن يكون شكري القوتلي رئيساً للجمهورية وحده ، ودون سواه . وأنا لا يمكن أن أتقدم عليه .

بعد خمسين عاماً

بعد خمسين عاماً من رحيل المغفور له السيد عطا الأيوبي ، لا يزال المواطنون ، والأجيال التي رأت النور بعد غيابه ، تحمل أطيب ذكرىٰ ، وأجمل انطباع عن هذا الرجل النبيل الطيب

وقد أحسن المسؤولون ، حين أطلقوا اسمه علىٰ أحد أكبر شوارع دمشق ، وهو الذي يحفل بكرام العائلات الدمشقية .

عطا الأيوبي كان مجاهداً صامتاً ، وأحد رجال الوطن الأوفياء

المراجع

١ ـ معلومات خاصة زودنا بها نجله الأستاذ محمد علي الأيوبي .

٢ ـ سورية والانتداب الفرنسي ـ يوسف الحكيم .

٣ ـ أعلام العرب في السياسة والأدب ـ فايز سلامة


د. توفيق الشيشكلي
زعيم وطبيب وأديب
١٨٨٤ ـ ١٩٤٠

جمع بين السياسة ، والطب ، والأدب

وكان من البارزين ، والمتفوقين فيها

كانت مقالاته الاجتماعية والفكرية ، تؤكد أنه سياسي ضليع

وكانت مواقفه الخطابية ، وبيانه المشرق ، وفصاحته تشير إلى أنه خطيب مِصقَع ، قل نظيره بين الخطباء

احتل مكانة رفيعة في القلوب ، بفضل وطنيته الصادقة ، وتضحياته الجسيمة ، ومواقفه الصلبة من أعداء الوطن

كان خطيب « الكتلة الوطنية » في كثير من المناسبات

وكان في طليعة من يؤخذ رأيهم ، ويستشارون في المواقف الصعبة ، والأزمات الحادة

توفيق الشيشكلي كان زعيماً سياسياً ، ووطنياً كبيراً وقد نسيه الكثيرون مع الأسف . . . حتى معظم أبناء مدينته المناضلة ! .

شيء من حياته

أبصر توفيق بن عبد الرحمن الشيشكلي النور في مدينة حماة عام ١٨٨٤ ، وتلقى تعليمه الابتدائي في حمص ، حيث كان والده مستنطقاً فيها أما علومه الثانوية فقد تلقى قسماً منها في حماه . ورحل من ثم إلى دمشق ليدخل مكتب عنبر ، ويتابع دراسته الثانوية فيه ، ويحصل على الشهادة منه

دخل كلية الطب العثمانية بدمشق ، وتخرج منها طبيباً عام ١٩١١ ، متخصصاً بأمراض العيون

تزوج عام ١٩١٧ ولكنه لم ينجب

أحب السياسة ، وبدأ بممارستها ، وهو في سن مبكرة ، غير أن اتجاهاته الاجتماعية ، وتطلعاته الفكرية والأدبية كانت تحدُّ من اندفاعه السياسي

شارك بكثير من الجمعيات الوطنية السرية ، التي كانت تعمل من أجل إشعال الثورة ضد المحتلين الفرنسيين وكان من أركان حزب الاستقلال

رشح نفسه في الانتخابات النيابية عن حماة عام ١٩٢٨ ولكن التزوير الذي

حصل ، والتلاعب بأوراق ونتائج الانتخابات ، حالت دون نجاحه

اشتدت المقاومة الشعبية ، واتسع نطاقها بين عامي ١٩٣٨ و١٩٣٢ ، واستطاعت هذه المقاومة أن تقضي على العناصر الرجعية وكان ذلك كله بفضل قيادته الحكيمة للقوى الشعبية ، وزعامته التي أخذت تتنامى وتقوى

وقفز الدكتور الشيشكلي ، بعد هذا النجاح الكبير ، إلى مرتبة الزعامة الكاملة في حماة ، ولم يعد له في مدينته أي منازع أو منافس . وأخذ يتنقل من نصر سياسي إلى آخر ، وصار عَلَماً سياسياً ، لا في حماة وحدها ، بل في سورية كلها ، وبعض الأقطار العربية الأخرى بات وجهاً عربياً مرموقاً ، يدعى إلى المؤتمرات واللقاءات الكبرى ، ويؤخذ رأيه ويستشار بكثير من قضايا الوطن المصيرية

عندما نشب القتال بين السعودية واليمن ، بسبب الخلاف المزمن على الحدود بين البلدين الجارين ، شكلت سورية وفداً من أركان الكتلة الوطنية ، برئاسة المغفور له هاشم الأتاسي ، لإصلاح ذات البين وكان الدكتور توفيق الشيشكلي أحد أعضاء هذا الوفد

في هذه المرحلة أصيب قلب الشيشكلي بالوهن والمرض ، بينما كانت زعامته تقوى وتتسع .

لدى قيام الحركات الوطنية ، واتساع المقاومة الشعبية عام ١٩٣٦ كان الدكتور الشيشكلي طريح الفراش ، بسبب اعتلال صحته . غير أن المستعمر الفرنسي أبى رغم مرضه ، إلا أن يقتلعه من فراشه ، ويزج به في سجن الشرطة العسكرية

وعندما استرد الشيشكلي بعض صحته ، استطاع أن يدير معركة الانتخابات ، ويفوز بالنيابة . وانتخب بعد هذا أميناً لسر المجلس النيابي عدة مرات . وكان له الأثر البارز في تسيير شؤون المجلس والكتلة الوطنية

وفي صباح اليوم الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ رحل الدكتور توفيق الشيشكلي إلى جوار ربه . وهو في ذروة زعامته ، وتعلق الشعب بقيادته ، وأشد الحاجة إلى حكمته وسديد رأيه

وقد نقل جثمانه إلى قاعة دار العلم والتربية

وشيعته حماة في اليوم التالي تشييعاً قل نظيره . وشاركت بالتشييع وفود

من مختلف المدن السورية ، بالإضافة إلى وفود قدمت من بعض الأقطار العربية الأخرى

ورثاه أحد الشعراء بقصيدة من رائع الشعر قال فيها

وسارت حماة خلف نعشك كتلة تشيــع آمـــالاً وتبكــي أمـــانيـــا
وأقســم لـم تشهـد حمـاة ولا رأت كـرزئـك يـومـاً أو كيـومـك بـاكيـا

بعض صفاته وأعماله

كان توفيق الشيشكلي يمتاز بمجموعة من الصفات الحميدة. كان متواضعاً ، صادق الوعد ، محباً لوطنه ومواطنيه ، حريصاً على تقديم الخدمات إلى من حوله من الأهل والصحب وكان وفاؤه لأصدقائه موضع تقدير كل من عرفه ، بل كان مضرب المثل بين المواطنين

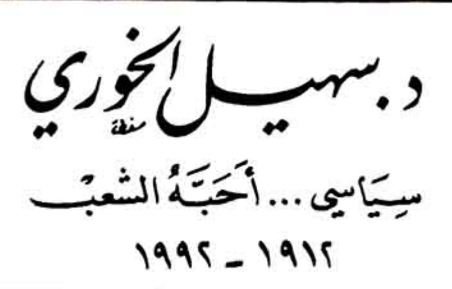
كان إلى جانب عمله كطبيب بارع ، وطنياً في طليعة رجال الوطنية ، وسياسياً قديراً ، بعيد النظر ، انضم إلى الكتلة الوطنية التي قادت معركة الاستقلال وحققته ، منذ تأسيسها . وكان فيها عضواً بارزاً ، وركناً يُعتدُّ برأيه ، ويستشار في كل أمر من أمورها . وقد ساعده على ذلك تفوقه الأدبي وموهبته الصحافية . وقد أصدر جريدة « التوفيق » فترة من الزمن ، ونشر فيها مقالاته الاجتماعية ، وآراءه الفكرية . وكان يدعو فيها إلى الإصلاح والتعاون . ولم تطل فترة صدور الجريدة ، فقد أرغمت على التوقف بسبب الظروف السياسية .

وكان الدكتور الشيشكلي ، كما أشرنا ، خطيباً سيطر على العقول وفاز بالتقدير ، وصفقت له الأكف طويلاً . وهذه المقدرة الخطابية كانت أحد أسرار زعامته ، والمكانة التي أنزلته في القلوب المنزلة الرفيعة

المراجع

١ـ تاريخ الثورات السورية ـ أدهم الجندي
٢ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي
٣ـ معلومات مستقاة من بعض معاصريه .





سِيَاسِي ... أَحَبَّهُ الشَّعْبُ

١٩١٢ - ١٩٩٢

كان سياسياً من خيرة السياسيين
كان يمتاز بمجموعة صفات ، أدخلته القلوب دون استئذان
كان محبوباً لدى كافة طبقات الشعب
خدمته للآخرين يعتبرها واجباً ، لا فضل له فيها ولا مِنَّة
شغل مناصب كثيرة في شتى المجالات ، الرياضية والقانونية والاقتصادية ، والسياسية
فاز في انتخابات المجلس النيابي السوري عن دمشق مرتين .
وشغل أحد المناصب الوزارية
كان من المفروض أن يقوم بدور سياسي أكبر في بلاده . ولكن
كان سهيل بن فارس الخوري ، صديقاً للجميع ، ومحبوباً من الجميع

شيء من حياته

أبصر سهيل بن فارس الخوري النور بدمشق في العام ١٩١٢ . وكان وحيد أبويه

تلقى علومه الابتدائية في إحدى مدارس دمشق ، والثانوية في مدرسة الآباء العازاريين

وتابع دراسته العليا ، فانتسب إلى معهد الحقوق بدمشق ، وفاز بشهادته في العام ١٩٣٠

وفي عام ١٩٤٤ فاز بشهادة اختصاص في الاقتصاد السياسي والعلوم المالية من الجامعة اليسوعية في بيروت

وفي عام ١٩٤٥ فاز بشهادة الدكتوراه من معهد الحقوق في باريس

حياته العملية

تولى الدكتور سهيل الخوري منصب قاض عقاري ومشاور حقوقي في محافظة دمشق

وكان نائباً لنقيب المحامين ، وعضواً في المجلس الأعلى للإذاعة السورية ، وسكرتيراً للغرفة الصناعية بدمشق بين عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢

كذلك شغل منصب رئيس اللجنة الأهلية للرياضة في سورية والواقع أن

سهيل الخوري كان الرئيس أو الرئيس الفعلي ، لأن الرئيس الاسمي كان رئيس الجمهورية

شغل الدكتور الخوري كذلك منصب رئيس اللجنة الأولمبية في سورية واتحاد كرة القدم ، وجمعية الصيادين ، والاتحاد الدولي للرماية

كان كذلك رئيساً لجمعية خريجي المدارس العازارية سنة ١٩٤٥

ورئيساً للنادي الغساني الرياضي

في انتخابات المجلس النيابي عام ١٩٥٤ فاز بالمقعد النيابي عن دمشق كذلك في انتخابات المجلس عام ١٩٦١

وفي عامي ١٩٦١ و١٩٦٢ عين وزيراً للشؤون البلدية والقروية

بعد انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣ آثر سهيل الخوري التخلي عن السياسة ، وانصرف إلى القيام بأعمال الطائفة الإنجيلية ، التي كان الممثل العام لها وكان يشغل منصب نائب رئيس المجمع الأعلى ، ونائب المحكمة الاستئنافية العليا للطائفة في سورية

تزوج الدكتور سهيل من السيدة ليلى شقيقة الصحافي الكبير الراحل حبيب كحالة صاحب مجلة المضحك المبكي . وأنجبا الأديبة الكبيرة السيدة كوليت ، والسيدين فارس وسامر

رحل سهيل الخوري إلى جوار ربه ، مأسوفاً على خلقه الرفيع في العام ١٩٩٢ عن ثمانين عاماً

شيء من صفاته

كان سهيل الخوري على جانب كبير من العلم ، والذكاء ، والحنكة ولأنه يحمل هذه الصفات مجتمعة ، كان من المفروض أن يشغل مناصب سياسية كبيرة في الدولة ، وأن تسند إليه مهام أكثر شأناً وخطورة ، غير أن وجود والده السياسي العالمي ، العلامة الكبير فارس الخوري على قيد الحياة ، وفي وسط النشاط السياسي والكفاح الوطني ، حال دون إسناد مهام سياسية كبيرة إليه .

كان رجال الكتلة الوطنية ، التي ينتمي إليها الفارس وابنه سهيل ، عندما يفكرون بإجراء الانتخابات النيابية تتجه الأنظار إلى الأب الفارس بشكل تلقائي ، وتنسى الابن ، وهو أيضاً سياسي محنك ، وقانوني ضليع كذلك كان الأمر نفسه يتكرر عندما يفكرون بتشكيل وزارة جديدة ، أو يرغبون بإرسال وفد إلى الخارج في مهمة وطنية كبرى

من هنا نستطيع أن نقول إن سهيل الخوري ، دفع ضريبة بنوته للفارس ، وهي الحرمان من الدور السياسي ، الذي يفترض أن يقوم به ، والمناصب الكبرى التي كان من المحتمل أن تسند إليه

نعود بعد هذا لنقول إن سهيل ، كان يتمتع بحب لدى كافة الأوساط السياسية والاجتماعية والقانونية والرياضية ، لما كان يمتاز به من ذكاء وقاد ، وتواضع جم ، وابتسامة مشرقة ، وحرص أكيد على خدمة جميع الناس في شتى المجالات . وكان يعتبر خدماته لهم واجباً قومياً ، لا فضل له فيه ولا مِنَّة له عليهم

كان سهيل الخوري يتمتع بزعامة شعبية ، تفوق زعامة والده ، فقد كان سهيل على اتصال دائم بمختلف أوساط الشعب ، بينما كان والده ، ملتزماً بقضايا السياسة العليا ، وهي بالغة الصعوبة والتعقيد أحياناً .

وقد ازداد سهيل تواضعاً وتعلقاً بالناس ، عندما أصبح وزيراً ، وبات أكثر حرصاً على خدمة الآخرين ، بأقصى ما يستطيع من جهد !

كان سهيل الخوري وجهاً دمشقياً أصيلاً ولولا الظروف التي سبقت الإشارة إليها ، لتغير تاريخ حياته كلها ، واستطاع القيام بدور أكبر ، وشغل مناصب أكثر وزناً في الحياة السياسية

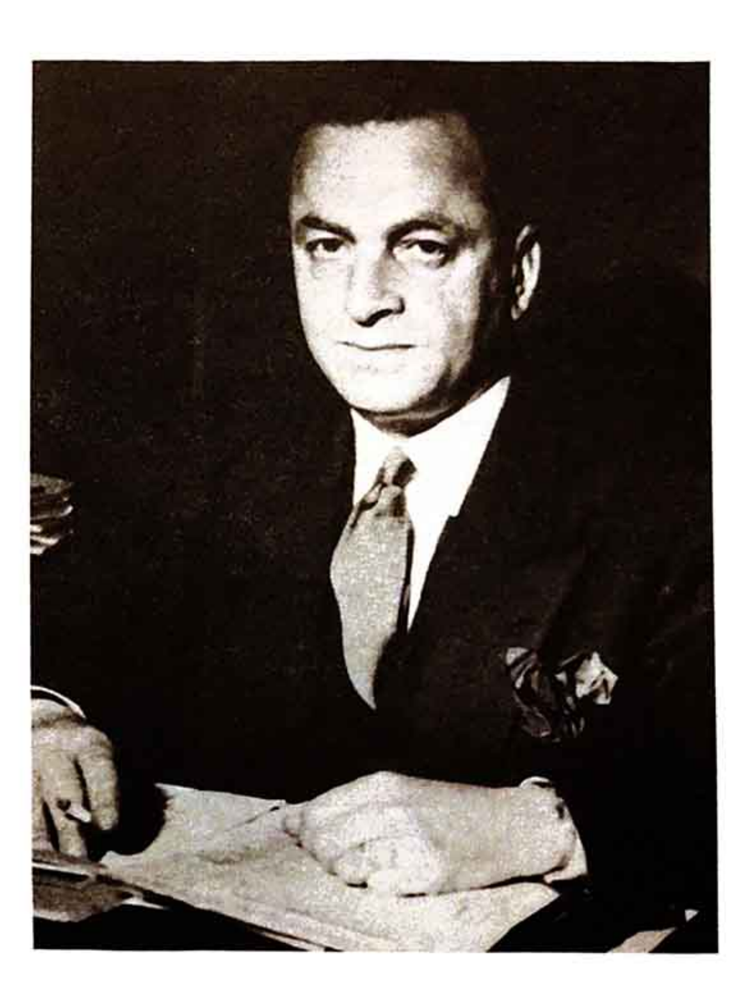
المراجع

١ـ معلومات مخطوطة قدمتها لنا كريمته الأديبة الكبيرة كوليت الخوري .

٢ـ جريدة الشرق الأوسط ـ عدد ٢١ـ٣ـ٩٢ مقال للأستاذ زهير الشلق

٣ـ من هم في العالم العربي

٤ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة .



د. عدنان الأتاسي

سِيَاسِي شُجَاع ، وَوَطَنِي جَرِيء

١٩٠٤ ـ ١٩٦٩

كان سياسياً جريئاً ، ومثقفاً كبيراً

نشأ في بيت الزعامة ، والوطنية ، والحرية

آمن بالديمقراطية ، والحرية ، ورفض تدخل غير ممثلي الشعب المنتخبين بشؤون الحكم .

ولكن عدو الله والشعب والقانون عبد الحميد السراج، لم تعجبه هذه المبادئ والمثل العليا

من أجل ذلك لفّق له تهمة التآمر والخيانة ، مع عدد من رجال الوطنية ، وزج بهم في السجن . . . وحكم عليه بالإعدام

سجنه وعذبه ، رغم أنه ابن هاشم الأتاسي ، الزعيم الكبير ورئيس الجمهورية الشرعي عدة مرات .

وكانت جريمة السراج هذه ، وصمة عار كبرى ، في جبين عدو الشعب والقانون .

عدنان الأتاسي ، السياسي الشجاع ، والوطني المجاهد ، والمثقف الكبير ، ابن رئيس الوطن هاشم الأتاسي ، كان أحد ضحايا الحرية والديمقراطية .

صفحة من حياته

أبصر الطفل عدنان ابن الرئيس الجليل هاشم الأتاسي النور في مدينة السلط الأردنية عام ١٩٠٤ حيث كان والده يعمل فيها كقائم مقام خلال الحكم العثماني

تلقى عدنان دراسته الابتدائية والثانوية ، في عدد من المدن التي مارس والده العمل فيها متصرفاً ، لفترات قصيرة ، وبينها عكا ويافا وحماة وبور دور في الأناضول

لدى انتهاء الحرب العالمية الأولى ، عاد مع والده وأسرته إلى دمشق ، فأكمل دراسته الثانوية في دمشق . ثم التحق بكلية الحقوق وفاز بشهادتها

سافر بعدها إلى سويسرا ، وانتسب في جنيف إلى جامعتها هناك وفاز بشهادة الدكتوارة بالقانون عام ١٩٢٩

عاد الدكتور عدنان بعدها إلى دمشق ، ومارس المحاماة بنشاط ومقدرة ثم أخذ يمارس نشاطه الوطني والسياسي

شارك مع لفيف من الشبان الوطنيين المثقفين والمتحمسين للاستقلال والحرية بتأسيس « عصبة العمل القومي » وكانت هذه العصبة تشكل رديفاً لشبان « الكتلة الوطنية » ، وتكملة لها في الثلاثينيات

عُين أستاذاً مساعداً في كلية الحقوق عام ١٩٣٢

انتقل إلى سلك الخارجية ، وعُين نائب قنصل في أستانبول عام ١٩٣٨

ثم عين نائب قنصل في القاهرة عام ١٩٣٩

عندما جرت الانتخابات النيابية عام ١٩٤٣ أعلن عن تشكيل قائمة انتخابية في حمص . وكان نصيبها النجاح الكامل

وفي سنة ١٩٤٤ عُين رئيساً للجنة الشؤون الخارجية في المجلس النيابي

وفي السنة نفسها عُين أستاذاً محاضراً في كلية الحقوق

وفي سنة ١٩٤٥ عين وزيراً مفوضاً لسورية في باريس

وفي سنة ١٩٤٦ عين كذلك وزيراً مفوضاً لسورية في بلجيكا

في عام ١٩٤٥ كلفه الزعيم المجاهد شكري القوتلي ، رئيس الجمهورية ، بإجراء المباحثات اللازمة مع الحكومة الفرنسية بوصفه وزيراً مفوضاً لسورية في باريس ، لحل المشاكل العالقة لدى الحكومتين ، والتي نتجت عقب انتهاء الانتداب الفرنسي على سورية

تقلد وزارتي العدل والأشغال العامة في أواخر كانون الأول من عام ١٩٤٦

وفي عام ١٩٤٧ ، عقب استقالة وزارة جميل مردم بك ، شارك بتأسيس حزب الشعب ، مع مجموعة من السياسيين ، الذين كانوا يحملون راية المعارضة

وفي عام ١٩٤٨ عين أستاذاً ذا كرسي للحقوق الدستورية

وفي أوائل عام ١٩٤٨ عين من جديد وزيراً مفوضاً لسورية في باريس وكان في الوقت نفسه ممثلاً لسورية في كل من سويسرا ، وإسبانيا ، وبلجيكا ، وهولندا ، ولكسمبورغ ، وإيطاليا وبقي في هذا المنصب لغاية عام ١٩٥٢ ، حيث عاد إلى سورية وأخذ يشارك بمقاومة حكم العقيد أديب الشيشكلي

وقبيل انتهاء حكم الشيشكلي ، اعتقله مع مجموعة من السياسيين المعارضين ، وأودعهم السجن .

في الانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩٥٤ شكل في حمص قائمة انتخابية ، بالاشتراك مع السيد فيضي الأتاسي وقد فازت كلها في الانتخابات .

وفي عام ١٩٥٦ خاض صراعاً عنيفاً مع عدد من الضباط ، بسبب تطاولهم على الحكم المدني ، وتدخلهم في شؤون السياسة ، وفرض رغباتهم وآرائهم على المجلس النيابي . وكانت النتيجة أن الضابط المغضوب عبد الحميد السراج(١) وعصابته ، لفقوا له ، ولعدد من رجال الوطنية ، تهمة الإعداد لانقلاب يهدف إلى إبعاده مع عدد من أنصاره المسيطرين على القيادة .

وشملت التهمة يومذاك الدكتورين منير العجلاني وعدنان العائدي وصبحي

---

(١) انظر طائفة من أعمال عبد الحميد السراج الإجرامية في كتاب « اعترافات شامي عتيق » للمؤلف .

العمري وغيرهم ، وقدمهم السراج إلى محكمة عسكرية شكلها بنفسه ، فحكمت عليه بالإعدام ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد

وفي أيلول من عام ١٩٦٠ ، خلال فترة الوحدة مع مصر أمر جمال عبد الناصر بنقل المحكومين في هذه الدعوى الباطلة إلى مصر ، وفرض عليهم الإقامة المراقبة في الإسكندرية وفي الثامن والعشرين من أيلول ١٩٦١ بعد انتهاء الوحدة ، سمح لهم بالسفر إلى لبنان

وغادر الدكتور عدنان الأتاسي لبنان إلى تركيا ، وأقام فيها بعض الوقت غير أنه ما لبث أن عاد إلى لبنان في عام ١٩٦٤ ، وأمضى في ربوعه سنوات حياته الأخيرة

وفي السابع من أيلول عام ١٩٦٩ انتقل الوطني الشجاع ، والسياسي المثقف عدنان الأتاسي إلى جوار ربه ، بعد أن عانى طويلاً من مرض عضال . ووري الثرى مأسوفاً عليه في حمص

كلمة أخيرة

كان الدكتور عدنان الأتاسي سياسياً جريئاً ، ووطنياً مخلصاً خدم بلاده بعلمه ، ورجاحة عقله تتلمذ في السياسة على والده ، الرئيس الجليل هاشم الأتاسي ، الذي كان قطب الرحى في السياسة السورية . وكان ملجأ رجال السياسة الوطنية في الملمات والأحداث يزود الجميع بحكمته الحكيمة ، وآرائه الصائبة ، ونظرته الثاقبة إلى الأمور

كان عدنان الأتاسي ساعد أبيه الأيمن ، ومستشاره الأمين في كثير من الأزمات والمواقف الصعبة .

كان عدنان مثقفاً ثقافة عالية درّس الحقوق الجزائية في كلية الحقوق بدمشق ، وتخرج على يديه عدد من خيرة القضاة ورجال القانون . وله عدد من المؤلفات القانونية . نذكر منها :

١ـ الحقوق الدستورية ـ ١٩٤٤

٢ـ الحقوق الجزائية الخاصة ـ ١٩٤٧

٣ـ الديمقراطية التقدمية والاشتراكية الثورية ـ باللغة الفرنسية

٤ـ شوائب الاتفاق في المعاهدات الدولية ١٩٣٠

هذا العلم الغزير ، والعلم الواسع ، والمكانة السياسية والاجتماعية والأدبية التي يحتلها عدنان الأتاسي ، لم تشفع له من التهمة اللئيمة التي ألصقها به ، وبعدد من خيرة السياسيين ، الضابط المجرم عبد الحميد السراج ، فزجهم بالسجن ، وحاول إنزال عقوبة الإعدام بهم

وتبقى فعلته هذه ، وصمة عار في تاريخه الأسود. وكل تاريخه السياسي ، وصمات عار ، لا تمحى ولا تزول

* * *

المراجع

١ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي .

٢ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش .

٣ـ معلومات موثقة ، زودنا بها الأستاذ المهندس رضوان الأتاسي ابن أخ المترجم .

* * *



فيضي الأتاسي

سياسيّ.. ووزيرٌ عملاق

١٨٩٨ - ١٩٨٢

كان واحداً من المثقفين البارزين والأذكياء المرموقين

جمع بين عراقة الأسرة ، والعلم الواسع الغزير

كان يتمتع بحب أبناء مدينته وتقديرهم الكبير له

تولى عدداً من الوزارات في مختلف العهود

وكلفه حسني الزعيم بتشكيل الوزارة وما لبث أن عدل ، وشكلها بنفسه . . . ثم سجنه !! . .

شارك بتأسيس حزب الشعب المعارض ، وكان أحد أركانه

فاز بثقة حمص في جميع الدورات الانتخابية التي خاضها

وكان الفوز حليف القوائم التي ترأسها أيضاً

عندما غاب فيضي الأتاسي ، عن مسرح الحياة السياسية ، خسرت حمص ، أحد رجالها الأوفياء ، وأحد سياسييها العمالقة

مولده ونشأته

أبصر الطفل فيضي بن طاهر الأتاسي النور عام ١٨٩٨ بمدينة البصرة ، حيث كان والده يعمل فيها قاضياً شرعياً وتسلم فيما بعد منصب الإفتاء في مدينته حمص وينتمي فيضي إلى الأسرة الأتاسية العريقة بالمجد والوجاهة ، ومن أبرز وجوهها المغفور له هاشم الأتاسي ، رئيس الكتلة الوطنية ، ورئيس الجمهورية السورية عدة فترات[١]

أما فيضي ، فهو حفيد الشيخ خالد الأتاسي[٢] ، مفتي حمص ، والنائب في مجلس المبعوثان . وهو كذلك ابن أخ الرئيس الراحل هاشم الأتاسي .

تلقى فيضي الأتاسي تعليمه الابتدائي والثانوي في مدينتي البصرة

---

(١) انظر دراسة مفصلة لحياة وأعمال المغفور له هاشم الأتاسي في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف .

(٢) انظر دراسة لحياته وأعماله في كتاب « عبقريات » للمؤلف

وحمص ثم أرسله والده إلى استانبول لمتابعة السنة الأخيرة من دراسته الثانوية في مدرسة غلطة سراي التركية ولدى نشوب الحرب العالمية الأولى ، انتقل إلى مدينة جنيف السويسرية ، وأمضى فيها سنوات الحرب

عقب انتهاء الحرب ، عاد إلى دمشق ، وانتسب إلى كلية الحقوق وفاز بشهادتها

حياته السياسية

كان فيضي الأتاسي في مطلع شبابه ، كثير الاهتمام بقضايا العمران والإصلاح ومن أجل هذا دخل المجلس البلدي في حمص ، ثم عين رئيساً لبلديتها

خلال وجوده في هذا المنصب ، حقق كثيراً من المشروعات الضخمة في حمص . ومن أبرزها ، جر المياه من محلة الجديدة بالمصافي على بعد كيلو مترين ، وتعبيد الشوارع وفرشها بالإسفلت ، وزرع الأغراس في الشوارع ومضاعفة التنوير ، وفتح شارع ابن عوف ، وتشييد عدد من أضخم الأبنية في حمص

في الثاني عشر من أيلول ١٩٤١ عين وزيراً للمعارف في وزارة المرحوم حسن الحكيم

وفي ٢٥ آذار ١٩٤٣ عين وزيراً للعدل والمعارف والشؤون الاجتماعية ، في وزارة المرحوم عطا الأيوبي عندما جرت الانتخابات النيابية عام ١٩٤٧ شكل الأستاذ فيضي قائمة انتخابية لمحافظة حمص وكان النجاح والفوز حليفها

وفي العام نفسه ، شارك مع عدد من السياسيين والنواب المعارضين بتأسيس حزب الشعب ، الذي كان رئيسه المرحوم رشدي الكيخيا

عندما قام حسني الزعيم بانقلابه الغادر في الثلاثين من آذار ١٩٤٩ كلف

فيضي الأتاسي بتشكيل الوزارة ، غير أنه ما لبث أن عدل عن تكليفه هذا ، وشكل الوزارة بنفسه ، وعين الأتاسي فيها وزيراً للمعارف والصحة والشؤون الاجتماعية ولكن فيضي رفض هذا التكليف ، وقدم استقالته في الثامن عشر من نيسان ١٩٤٩ ، أي بعد يومين من تشكيل الوزارة

وبعد فترة ، اعتقله حسني الزعيم ثلاثة أيام ، قبل أن يطيح به انقلاب المرحوم سامي الحناوي

عندما قام الحناوي بانقلابه على الزعيم ، قرر مع ضباطه العودة إلى الثكنات ، وأن يعود رجال الوطنية والسياسة إلى ممارسة مهامهم يومذاك كلف الحناوي الرئيس هاشم الأتاسي باستلام دفة الحكم . فشكل وزارة وحدة وطنية ، شاركت بها جميع الأحزاب والقوى الوطنية الموجودة على الساحة السياسية وكلف فيضي الأتاسي بمهمام وزارة الاقتصاد الوطني ، وذلك في ١٤ آب ١٩٤٩

وفي انتخابات الجمعية التأسيسية ، التي جرت في ذلك العام ، شكل فيضي الأتاسي قائمة انتخابية في حمص ، وكان حظها النجاح الكامل ، ثم عُين وزيراً للدفاع والاقتصاد . وذلك في الوزارة التي شكلها الدكتور ناظم القدسي في الرابع عشر من كانون الأول ١٩٤٩ ، غير أن هذه الوزارة لم يكتب لها البقاء طويلاً .

وفي الوزارة التي شكلها المرحوم خالد العظم بعد ذلك ، عُين فيضي الأتاسي وزيراً للصحة والإسعاف العام

وفي الوزارة التي شكلها المرحوم حسن الحكيم في التاسع من آب ١٩٥١ عين فيضي الأتاسي وزيراً للخارجية .

واعتقل فيضي الأتاسي مع عدد من السياسيين ، في أواخر عهد المرحوم أديب الشيشكلي . وأفرج عنهم جميعاً بعد أيام لدى انتهاء عهد الشيشكلي

وفي الانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩٥٤ شكل الدكتور عدنان الأتاسي قائمة انتخابية في حمص . وكان فيض الأتاسي من أبرز الأسماء فيها وقد نجحت القائمة في الانتخابات بكاملها

وفي تشرين الثاني ١٩٥٦ اتهم فيضي الأتاسي والدكتور عدنان الأتاسي والدكتور منير العجلاني والسيد صبحي العمري وعدد آخر من السياسيين اتهموا جميعاً بالضلوع بمحاولة انقلاب ، تهدف إلى إبعاد عدد من الضباط المسيطرين على الجيش من مواقعهم واعتقلوا وقدموا إلى محكمة عسكرية ظالمة شكلها عدو الله والشعب عبد الحميد السراج . غير أن فيضي الأتاسي استطاع الفرار إلى لبنان قبل اعتقاله وعندما أعلنت براءته عاد إلى أرض الوطن . وشارك بالتصويت للوحدة مع مصر في شباط ١٩٥٨

وفي الانتخابات النيابية التي جرت في كانون الأول ١٩٦١ ، بعد انتهاء الوحدة بين سورية ومصر شكل فيضي الأتاسي قائمة انتخابية في حمص ، نجحت حسب العادة بكاملها وفي هذا المجلس انتخب رئيساً للجنة الشؤون الخارجية

اعتزل العمل السياسي ، بعد انقلاب حزب البعث ، وانصرف إلى أعماله الخاصة

وفي عام ١٩٨٢ لقي وجه ربه ، وانتقل إلى رحمة الله

مكانته وصفاته

كان فيضي الأتاسي ـ كما وصفه صاحب كتاب « أعلام العرب في السياسة والأدب » ـ حاد الذكاء ، سريع الخاطر ، متوقد الذهن ، قوي الشخصية وكان إلى جانب ذلك ، واسع الثقافة ، عالماً بأسرار اللغة ، شديد الحرص في معاملاته الرسمية ، على أن لا يشوبها خطأ لغوي ، أو عبارة ضعيفة السبك إذا تحدث في أي موضوع أجاد وأبدع ، وبرهن على سعة علمه واطلاعه

وتمنى سامعوه أن يزيدهم علماً ومعرفة من بحره الواسع

كان يحفظ من الشعر قصائد ومقطوعات كاملة ، لشعراء كبار من القدامى والمحدثين وكانت جلساته تضم على الدوام أعداداً من الأدباء ، والعلماء ، والمثقفين

كان فيضي الأتاسي يتمتع بحب واحترام أبناء مدينته وقد منحته هذه المدينة ثقتها المطلقة ، وأيدت ترشيحه في جميع الانتخابات النيابية التي خاضتها كما صوتت لجميع القوائم التي رشحها

وعندما غاب فيضي ، ابن حمص البار ، عن مسرح الحياة السياسية بحكم الظروف والطوارئ الجديدة خسرت حمص أحد وجوههاالوضاءة ، وأحد رجالاتها المخلصين الأوفياء

* * *

المراجع

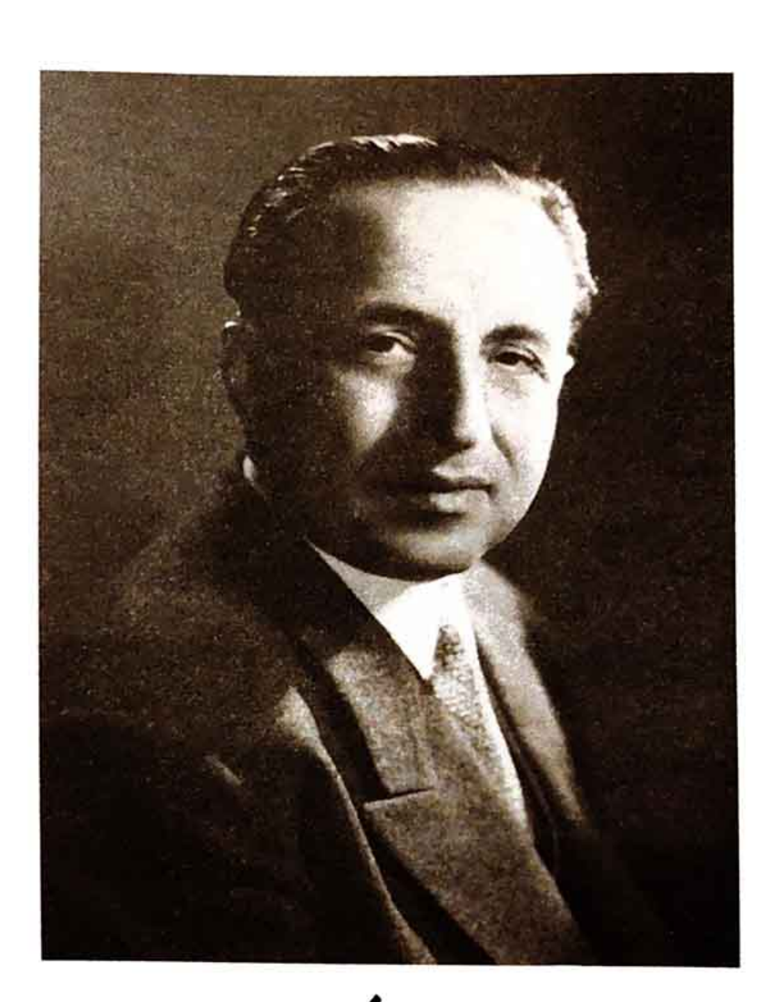
١ـ الأعلام ـ لخير الدين الزركلي .

٢ـ من هم في الوطن العربي ؟

٣ـ أعلام العرب في السياسة والأدب ـ لفايز سلامة .

٤ـ معلومات موثقة ، زودنا بها الأستاذ رضوان الأتاسي .

* * *



د. بشير العظمة

الطبيب العالم والسياسي الأديب

١٩١٠ - ١٩٩٢

كان طبيباً من خيرة الأطباء

وكان أديباً ، يمتاز أسلوبه بأناقة اللفظ ، ودقة التصوير

عُيّن وزيراً للصحة ، ثم استقال ، عندما شعر بأنه وزير بالاسم دون فعل !

وشكل الوزارة السورية بعد الوحدة ، فلم تعجبه أجواء القلق والغليان ، فاستقال !

أسس جمعية مكافحة السل ، وانتخُب نقيباً للأطباء ، وأصدر عدداً من المجلات الطبية ورعاها

كافح في ميدان العلم والطب طويلًا ، وكان من المبرزين

كتب مذكراته الرائعة « جيل الهزيمة » فكانت طرفة أدبية

كان يتمتع بأخلاق رفيعة ، منها نظافة اليد ، وصدق المعاملة ، والإخلاص للوطن والمواطنين .

سيرة حياته

أبصر الطفل محمد بشير بن حسن العظمة النور بدمشق في العام ١٩١٠ ، وينتمي إلى أسرة دمشقية عريقة ، قدَّمت للوطن عدداً من المجاهدين الأبطال ، أبرزهم ، وأكبرهم شأناً ، بطل ميسلون وشهيدها الخالد يوسف العظمة

وكانت أسرته قد وفدت إلى دمشق ، من إحدى قرى حوران ، التي قدمت من الجزيرة العربية إلى ديار الشام ، سعياً وراء المناخ المعتدل ، والتماساً لهوائها العليل ، ومائها السلسبيل

تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة الملك الظاهر ، وكان مقرها في باب البريد . كما تلقى دراسته الثانوية في مكتب عنبر ، وكانت الثانوية الحكومية الوحيدة في دمشق

انتسب بعد الثانوية إلى كلية الطب ، وتخرج منها طبيباً في عام ١٩٣٤

سافر إثر ذلك إلى باريس ليختص بالأمراض الصدرية .

وفي عام ١٩٣٥ أصبح أستاذاً مساعداً ، في قسم الأمراض الباطنية بكلية الطب نفسها

وفي عام ١٩٤٩ فاز برتبة أستاذ بكلية الطب

وفي عام ١٩٥٣ أسس بالتعاون مع عدد من كرام المواطنين ، وبينهم عدد من الأطباء جمعية مكافحة السل ، وأسس لها فروعاً في كافة المدن السورية

وفي عام ١٩٥٨ عُين وزيراً مركزياً للصحة خلال الوحدة بين سورية ومصر ولكنه ما لبث أن استقال في صيف عام ١٩٦٠ ، عندما شعر بأنه وزير بالاسم لا بالفعل !.

في عام ١٩٦١ جرى انتخابه نقيباً لأطباء سورية وأسس المجلة الطبية العربية ، وشغل رئاسة تحريرها ثم بات مشرفاً عليها لغاية العام ١٩٧٦

وفي عام ١٩٦٢ ، بعد فترة الوحدة بين سورية ومصر ، كلف بتشكيل الوزارة السورية ، فاستجاب لهذا التكليف . غير أن حالة القلق والغليان ، التي كانت تعيشها البلاد ، يضاف إليها عدم تحقيق أمور كان قد أمَّل بتحقيقها ، كل ذلك دفعه إلى تقديم استقالته ، بعد خمسة شهور . واعتزل بعدها العمل السياسي ، وانصرف إلى عيادته وأعماله الخاصة

الدكتور بشير العظمة متزوج من السيدة ريمة كردعلي ، رئيسة الندوة الثقافية النسائية ، وتعرف بنشاطها الاجتماعي والثقافي المتميز ، وجهودها الطيبة في الوسط النسائي

وللدكتور بشير العظمة والسيدة الفاضلة قرينته أربعة أبناء هم الأستاذ المهندس بشار ، ومحمد فواز ، أستاذ في كلية الزراعة ، والطبيب حازم ، والأستاذ حسين ، وهو كيميائي

وفي الخامس من نيسان عام ١٩٩٢ رحل الطبيب ، العالم ، الإنسان بشير العظمة إلى جوار ربه ، مأسوفاً على خلقه الرفيع وعلمه الغزير ، وسمعته العطرة .

بعض صفاته وخلقه

كان الدكتور بشير العظمة من خيرة الأطباء السوريين ، وأكثرهم شهرة ، وأحسنهم سمعة وقد برهن في مناسبات كثيرة على تفوقه ، وبراعته ، وسعة علمه كان يعتبر الطب رسالة إنسانية ، لا وسيلة للكسب وجمع المال ومن أجل هذا أجمعت القلوب على حبه ، واتفقت على تقديره واحترامه

كان شعلة من الذكاء والحيوية ، شديد الحرص على العمل وأداء الواجب الإنساني ، وما زال تلاميذه الكثر في كلية الطب ـ وقد باتوا من مشاهير الأطباء ـ يشيدون بخلقه الرفيع ، وحرصه على مساعدة كل طالب ، وإعادة ما أشكل عليهم فهمه ، أو إدراك أبعاده وملابساته

كان إلى جانب ذلك ، وقوراً ، مهيباً ، متواضعاً ، خجولاً ، ودوداً لأصدقائه ، حريصاً على مد يد المساعدة إلى الآخرين ، وتقديم الخدمات لكل من يستطيع من الأصدقاء والمواطنين .

مذكراته « جيل الهزيمة »

بعد أن تقاعد الدكتور العظمة ، واعتزل العمل السياسي ، ولزم بيته ، أخذ كثير من أصدقائه ، يطالبونه بكتابة مذكراته ، أسوة بكثير من « السياسيين والأعلام . كان يجيب بأنه ليس سياسياً محترفاً ، بل صار وزيراً مركزياً للصحة « بالصدفة » كذلك عندما كُلّف بتشكيل الوزارة عام ١٩٦٢ شكلها بـ « الصدفة » أيضاً ! وربما حلاً لإشكال ! . .

غير أن من كان حوله من الأهل والصحب ، لم يقنعوا بهذا الاعتذار أكدوا له أن في حياته حوادث وذكريات قديمة ، حول الأسرة ، والنشأة ، والبيئة ، والمجتمع ، والعادات القديمة ، وكلها ذكريات جديرة بالتسجيل عند ذلك قنع الدكتور العظمة ، بوجهة نظر هؤلاء الأعزاء ، وباشر بكتابة هذه المذكرات ، التي استغرقت من وقته سنتين واختار لها عنوان « جيل

الهزيمة ». وقد صدرت طبعتها الأولى ، عن دار رياض الريس في لندن عام ١٩٩١ ، قبل عام من رحيله

في هذه المذكرات ، لا يتحدث الدكتور العظمة في أمور السياسة ، والأحداث التي شهدها وعاصرها فحسب ، بل يروي قصة أسرته ، وحياته ، والبيئة الشعبية الفقيرة ، في حي القيمرية ، التي ولد ، ونشأ ، وعاش فترة من حياته فيها يروى الدكتور العظمة كل ذلك بكثير من الأمانة ، والصدق ، والإخلاص ويصور أجواء الحياة ، والمجاعة التي عانت منها البلاد ، في أواخر الحكم العثماني

يلفت النظر كثيراً في هذه المذكرات ، الأسلوب الروائي البليغ ، الذي صور فيه الكاتب تلك الأجواء ، تصويراً دقيقاً لم يدع زاوية ، إلا أشار إليها ، ووضعها أمام المجهر وكان الكاتب جريئاً ، وصادقاً مع نفسه وقارئه ، حين اعترف ببعض مغامراته العاطفية ، في مطلع الشباب ، وزواجه الأول من فنانة أجنبية ، سيئة السمعة ، دون علم أهله ، وإقامته معها شهراً في فندق الشرق « الأوريان بالاس » ، يوم كان أكبر فنادق دمشق فعل ذلك قبل أن يصحو من غفلته ، ويندم على فعلته ، وينهي معاملة الخلاص من هذه الورطة ثم يكفِّر عن غلطته ، بطلب الزواج من كريمة المرحوم الأستاذ أحمد كردعلي يومذاك رحب الرجل النبيل بتوبته ، ووافق على زواجه من كريمته « الآنسة » ريمة كردعلي ، الإنسانة التي منحته فيما بعد الحب والرعاية الكاملة ، طوال حياته ، وأنجبت له أربعة أبناء من خيرة الرجال ، علماً وتهذيباً ، ووطنية

نعود بعد هذا لنؤكد أن « جل الهزيمة » يمتاز بأسلوب أدبي رفيع ، يجعل القارئ المثقف ، يتساءل : هل المؤلف طبيب كبير فحسب ، أم أنه أديب كبير أيضاً ؟

عندما فرغنا من قراءة هذه المذكرات ، وأعجبنا بأسلوب صياغتها ، خالجنا الشك ، بأن أحداً من الأصدقاء أو المقدِّرين ، قد حاول إضفاء بعض اللمسات ، على ما صاغه الدكتور المؤلف طرحنا هذا الشك ، أمام صديقنا المهندس الأستاذ بشار العظمة ، وهو النجل الأكبر للمؤلف ، فنفى نفياً قاطعاً ، ما ساورنا من ظنون وأكد أن أسلوب والده في كل ما كتب من مقالات علمية ، يمتاز بالرقة والشفافية وأضاف أن المساعد الوحيد لوالده فيما كتب ، هو تفرغه لصياغة هذه المذكرات ، والوقت الكافي الذي منحها إياه ، وهو يقارب السنتين

حفل تأبينه الكبير

بعد رحيل الدكتور بشير العظمة ، تنادى أصدقاؤه وزملاؤه ومحبوه ، وأقاموا له حفل تأبين كبيراً ، في الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٩٢ بمكتبة الأسد الوطنية في هذا الحفل تبارى عدد من الأعلام في تعداد مآثر الفقيد وأعماله افتتح الحفل وزير الصحة الدكتور محمد إياد الشطي ، وتكلم بعده الأستاذ أحمد عبد الكريم الوزير السابق ، ثم الدكتور عبد الغني عرفة ، فالدكتور نبيه رشيدات وألقت السيدة الكبيرة ريمة كردعلي كلمة آل الفقيد وقد امتازت كلمتها بصدق العاطفة ، والإخلاص الكامل لشريك العمر ، ورفيق الدرب والحياة

كان عريف هذا الحفل الدكتور برهان العابد ، الذي شارك أيضاً بكلمة بليغة ، ختمها بقوله

لو كان التفكير العقلاني يمنع الموت

ولو كان تقديس الحرية ، والإيمان بكرامة الإنسان يمنع الموت

ولو كان الصدق ونظافة اليد ، ونقاء الضمير يمنع الموت

ولو كان مقت الظلم والظالمين يمنع الموت

لكان بشير العظمة بيننا اليوم

* * *

وكانت منظمة الصحة العالمية قد قدمت للدكتور العظمة جائزة الدكتور توفيق شوشة التقديرية لعام ١٩٩٢ وتم ذلك في حفل رسمي وقد حضر هذا الحفل ، وتسلم الجائزة الأستاذ المهندس بشار العظمة ، نيابة عن والده ، الذي كان قد رحل قبل عدة أسابيع وقد ألقى الأستاذ بشار كلمة في الحفل ، باسم أسرة الفقيد ، شكر فيها من قدم الجائزة ، لتقديرها الجهود الكبيرة التي بذلها والده

كتبه وآثاره

للدكتور بشير العظمة عدد كبير من الدراسات والمقالات العلمية ، نشرت كلها في عدد من المجلات الطبية والثقافية . أما كتبه فتتناول الأمراض الداخلية والصدرية والقضايا الاجتماعية العامة . ولعل أهم كتبه

١ ـ السل ومكافحته

٢ ـ أمراض جهاز التنفس ـ الطبعة الثانية صدرت عام ١٩٥٥

٣ ـ الأمراض الإنتانية والطفيلية ـ الطبعة الثانية عام ١٩٦٢

٤ ـ الطب في إنجازاته وإغراءاته ـ للكاتب الفرنسي جان برنار ـ ترجم عام ١٩٧٦

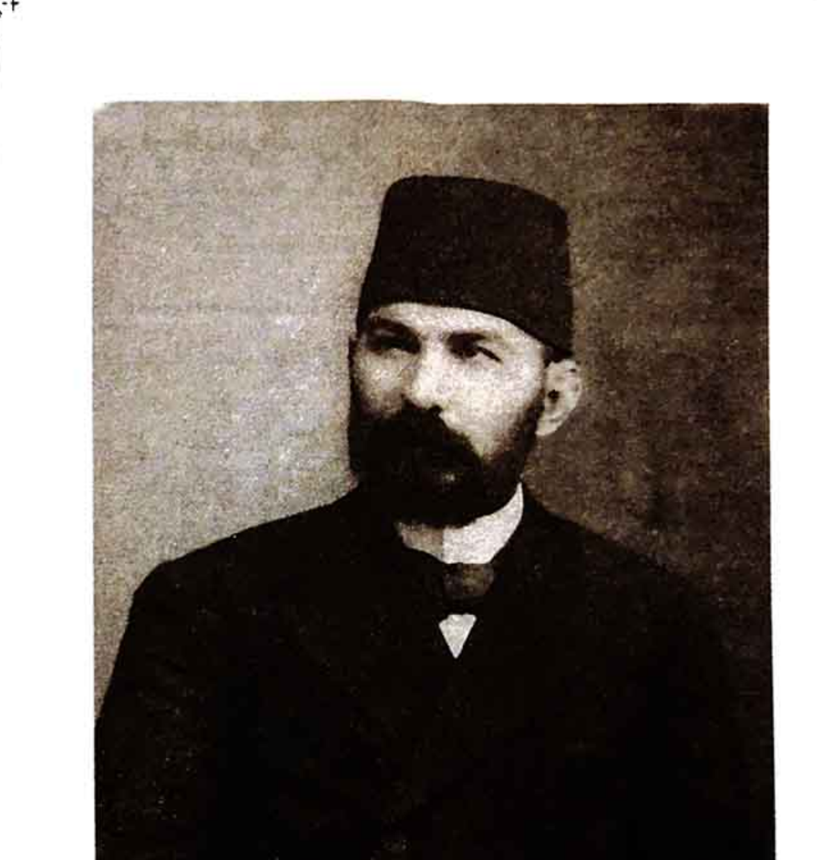
٥ ـ جيل الهزيمة (مذكرات) ـ الطبعة الأولى ١٩٩١ ـ دار رياض الريس ـ لندن ـ الطبعة الثانية المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت عام ١٩٩٨

* * *

المراجع

١ـ جيل الهزيمة ـ مذكرات الدكتور بشير العظمة
٢ـ كراس يتضمن الكلمات التي ألقيت في حفل التأبين
٣ـ من هم في العالم العربي .

* * *



محمّد مرعي باشا الملّاح
مغفور له

زعيم سياسي، ورجل دولة

١٨٥٦ - ١٩٣٠

كان من أعيان حلب ، وخيرة وجهائها ، وكبار تجارها

تقلد في العهد العثماني مناصب رفيعة ، وفاز بالأوسمة والميداليات

وكان من المقربين لدى السلطان عبد الحميد الثاني

عقب جلاء الأتراك ، وفي ظل الاستقلال ، أسندت إليه على التوالي ، مجموعة من المهام والمناصب ، لم يحظ بها أحد قبله ، وذلك تقديراً لاستقامته ، ونزاهته وإخلاصه

في جميع المناصب التي أسندت إليه ، حقق مشروعات عمرانية ، وإصلاحات إدارية واجتماعية ، لا تزال مدينته حلب ، تذكرها بالخير ، وتُعرف بأسمه

كانت حياة « مرعي باشا الملاح » ، كفاحاً مستمراً ، في شتى الميادين

أسرته ونشأته

أبصر محمد مرعي ابن الحاج صالح آغا الملاح النور في مدينة حلب عام ١٨٥٦ ، وتنتمي أسرته إلى عشيرة البوخميس ، التي تتفرع من عشيرة الدليم العراقية . ويتصل نسبها بالصحابي الجليل عمرو بن معد يكرب الزبيدي وقد استوطن أسلافه مملحة الجبول في أواسط القرن السابع عشر ، فأقرّهم العثمانيون فيها وانتقل جده « علي أبو بكر آغا أمين الجبول » إلى حلب ، حيث تولى قيادة الجيش في عام ١٧٧٥ ثم أصبح متسلم حلب عام ١٧٧٦ فجمع بينهما حتى عام ١٧٨٠

كان أبوه من أعيان حلب وكبار تجارها وتلقى تعليمه فيها ثم تخرج من المعهد السلطاني في الأستانة عام ١٨٧٥

وأجاد إلى جانب العربية ، التركية ، والفارسية ، والفرنسية وتقلب في عدد من المناصب القضائية ، والإدارية ، والمالية الرفيعة . وكانت على التوالي

عضواً ملازماً في محكمة استئناف الحقوق ، بعد اجتيازه الفحص المسلكي (١٨٨٢ ـ ١٨٨٥)

عضواً في محكمة استئناف الحقوق (١٩٠١ ـ ١٩٠٣)

الرئيس الثاني لمجلس إدارة مكتب الصنائع (١٩٠٣ ـ ١٩٠٤)

عضو مجلس المعارف (١٩٠٤ ـ ١٩٠٧)

عضو اليمين في محكمة استئناف الحقوق ، ورئيس الهيئة الاتهامية (النائب العام) لدى محكمة بداية الجزاء (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦)

رئيس مجلس إدارة المصرف الزراعي (١٩٠٦ ـ ١٩٠٧)

وكان كلما عهد إليه بإدارة أحد المناصب ، قام بعمله هذا على الوجه الأكمل من أجل هذا توالت عليه الرتب الشرفية ، إلى أن بلغ عام ١٩٠٥ رتبة « روم ايلي بكلر بكي » الرفيعة ، وهي تعادل رتبة « فريق » ، وصار بذلك من أصحاب المراتب . كذلك نال الوسامين : العثماني والمجيدي من الدرجة الثانية مع الرصيعة وعدة مداليات ، منها ميدالية الحجاز ، تقديراً لإسهامه في إنشاء الخط الحديدي الحجازي إلى جانب عدد من الأوسمة الأجنبية ، التي نالها في مناسبات شتى

رحل إلى الأستانة مراراً ، وكانت له حظوة لدى السلطان عبد الحميد الثاني ، لذا انتدبه بعدد من المهمات ، منها تعيينه عضواً في اللجنة التي عهد إليها بالتحقيق في شكاوى أهالي أورفه وديار بكر من أمير اللواء إبراهيم باشا الملّي . القائد الأعلى للكتائب الحميدية (١٩٠٧ ـ ١٩٠٨)

إلى جانب العمل الوظيفي ، مارس التجارة والزراعة على شكل واسع

وكان عضواً مؤسساً في غرفة زراعة حلب (١٨٨٤ ـ ١٨٨٨)

ثم عضواً في غرفة التجارة والزراعة والصناعة (١٩٠٦ ـ ١٩٠٧)

وسافر إلى لبنان والعراق ومصر وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا في أعماله التجارية

في العهد الدستوري انتخب نائباً عن حلب في مجلس المبعوثان العثماني عام ١٩٠٨ ولكنه استقال منه في العام التالي ، وذلك بسبب معارضته تدخل الاتحاديين بشكل مناف للدستور ثم تولى إدارة الأوقاف في ولاية حلب وبقي فيها مدة سنتين ، واستقال بعد أن سيطر الاتحاديون على نظارة الأوقاف

خلال وجوده في هذا المنصب عين عام ١٩١١ عضواً في اللجنة التي عهد إليها بالتحقيق فيما تردد عن سرقة بعثة أثرية سراً ، لحفريات تحت قبة الصخرة في المسجد الأقصى بالقدس وقد أثبت التحقيق عدم حدوث هذه السرقة ، لأن الآثار لم تكن موجودة أصلاً !

انتخب عضواً في المجلس العمومي لحلب وقد رفع المجلس ١٩١٣ إلى الحكومة الائتلافية ، لائحة إصلاحية تضمنت المطالبة باللامركزية غير أن الانقلاب الاتحادي حال دون تطبيق الاصلاحات ، وسرعان ما تم تعطيل المجلس المذكور

بعد رحيل الأتراك

بعد جلاء الأتراك ، وفي العهد الفيصلي ، عين عضواً في مجلس الشورى الذي تولى الحكم في حلب

ثم شغل منصب متصرف دير الزور عام ١٩١٨ وهذا المنصب يعادل منصب المحافظ . وقد حرر هذه المدينة من ذيول الحكم العثماني ، وألحقها بالحكومة العربية بدمشق

عندما دخل الإنكليز في مطلع عام ١٩١٩ ، رفض تسليمهم إدارة المنطقة وإنزال العلم العربي غير أن الإنكليز حصلوا على وثيقة من الحاكم العسكري

العربي في حلب ، تؤكد إقرار الحكومة بخضوعها للحكم البريطاني وهنا رفع استقالته احتجاجاً على ذلك

وفي شباط من عام ١٩١٩ اعتقله الإنكليز مع عدد من زعماء حلب ، بتهمة التحريض على « فتنة الأرمن » التي دبرتها الاستخبارات الأجنبية ، كي يثبتوا أن السوريين غير قادرين على حكم أنفسهم ، وتوجيه ضربة إلى الزعامات المحلية المعارضة لأية سيطرة أجنبية

ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا ضلوعهم فيها فبرئت ساحتهم ، وهاجت حلب ، وهي تطالب بالإفراج عنهم ، فأطلق سراحهم بعد نحو شهر

وفي عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ كان الرئيس الثاني للمؤتمر السوري العام بدمشق ، وشارك بصياغة قرار الاستقلال ، ومبايعة فيصل الأول ملكاً ، ووضع أول دستور لها

وفي أيام الانتداب الفرنسي أسند إليه منصب مدير الداخلية العام «أي وزير » في حلب (١٩٢٠ـ١٩٢٣)

وشغل أخيراً منصب حاكم دولة حلب العام (١٩٢٤ـ١٩٢٦)

وقد حاول الفرنسيون استمالته إلى جانبهم ولكنه فرض عليهم الالتزام في تعاملهم بقوانين الانتداب التي وضعتها عصبة الأمم ، لا أن يتصرفوا كمحتلين .

مشاريعه العمرانية

شهدت حلب في عهده نهضة علمية جيدة فتم تأسيس دار الكتب الوطنية ، وافتتاح فرع للمجمع العلمي العربي ، وتأسيس جمعية العاديات ، وكان صاحب فكرة تأسيسها ومهمتها حماية تراث المدينة وآثارها ، وكان اسمها في البدء « جمعية أصدقاء قلعة حلب »

وقد اختار لرئاستها المؤرخ الحلبي الشيخ كامل الغزي ولا بد هنا من الإشارة إلى أن هذه الجمعية هي الأولى من نوعها في الوطن العربي

كان محمد مرعي محباً للعمران والإصلاح وتم في عهده تنظيم دائرة النافعة ، الأشغال العامة والمواصلات ، وإحداث الدائرة البيطرية ، ووضع أول قانون للتجميل العمراني وفق الأنظمة الحديثة ، والتنوير المنزلي ، وتمديد خطوط الترام الكهربائي ، وترميم الجامع الأموي الكبير ، والقلعة ، وغيرها من الأوابد التاريخية ، وشق طريق حلب ـ اللاذقية ، وحلب ـ دمشق ، وفتح عدداً من الشوارع الكبيرة ، وأحدث منطقة السريان ، حيث أقام فيها مهاجرو أورفه ، وشيد مبنى المجلس التمثيلي « المتحف القديم » في باب الفرج ، وقيادة الدرك والاقتصاد « قيادة موقع حلب » ، و« كلية حلب الأميركية » معهد حلب العلمي ، و« الكلية العلمانية » اللاييك ، وجلاء جسر الناعورة ، ونظَّم مقبرة العبّارة ، وحوّلها إلى حديقة عامة ، أطلق عليها اسمه (حديقة مرعي باشا) كذلك نفذ مشاريع كثيرة أخرى يطول حصرها

وفي مطلع عام ١٩٢٦ استقال من منصبه ، احتجاجاً على سقوط ثمانية قتلى وعدد من الجرحى ، بنيران قوات الانتداب الفرنسي ، خلال مظاهرات شعبية ، كان سببها مقاطعة الانتخابات ، التي دعا إليها المفوض السامي الفرنسي « دي جوفنيل » والمطالبة بإطلاق سراح الزعماء الوطنيين ، الذين دعوا إلى المقاطعة ، وبينهم نجله المهندس الزراعي عبد القادر ناصح الملاح

وكانت استقالته في هذه المرة نهائية ، فقد اعتزل بعدها العمل السياسي ، وانصرف إلى أعماله الزراعية ، فجدد في أساليبها وطرقها

ورحل مرعي باشا الملاح إلى جوار ربه في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٣٠ ، ووري في مثواه الأخير ، في مدينته حلب

عنايته بالعلم والكتاب

كان مرعي باشا إلى جانب مشاغله وأعماله الكثيرة ، شديد الاهتمام بالعلم والعناية بالكتب جمع في خزانته عدداً كبيراً جداً من الكتب القيمة ، وقفها في حياته على المدرسة الخسروية ، ليفيد منها طلاب العلم وبقيت فيها حتى عام ١٩٢٦ ، ثم نقلت إلى دار كتب الأوقاف الإسلامية ويعتبر البحاثة فؤاد سزكين محتوياتها من أهم المجموعات التي تضمها المكتبة الوقفية في حلب كذلك أهدى إلى خزانة المكتبة الظاهرية بدمشق ، نسخة مخطوطة من كتاب « الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجرّي » عن أبي العلاء المعري لابن العديم وقد أشادت مجلة المجمع العلمي العربي بهذه الهدية النفيسة وجدير بالذكر أن هذا الكتاب طبع مرتين عن هذه المخطوطة النادرة ، الأولى في إعلام النبلاء للطباخ ، والثانية في تعريف القدماء بأبي العلاء للدكتور طه حسين

بعض صفاته ومكانته

عرف محمد مرعي باشا الملاح في جميع المناصب التي تولاها ، بالاستقامة والأمانة والجرأة ، والنزاهة . وكان كثير السعي بالخير لمن يقصده . وشارك في الجمعيات والهيئات الاجتماعية والأدبية والإنسانية وقد أثنى عليه المؤرخ والباحث كامل الغزي ، ووصفه بأنه « أحد وجهاء حلب وعين أعيانها المحترمين » وامتدحه الشعراء في قصائد عديدة منها ما قاله صديقه ، الأديب الحلبي الشيخ إبراهيم الكيالي ، مؤرخاً فوزه بالرتبة الأولى عام ١٨٩٨

بلغت ذرى العليا مرعي بالجد وأحرزت غايات المراتب بالجد

وقد لاح في مرقاتك «السعد أرِّخوا» برتبتك الأولى ازدهى مطلع الجد

ومن ذلك أيضاً ما قاله بشير بن فتح الله الكاتب ، والصحافي المصري

صاحب جريدة « العروة الوثقى » القاهرية ، من قصيدة طويلة ، يهنئه فيها برتبة « روم ايلي بكلر بكي » وقد سبقت الإشارة إليها

فضلـه قـد ذاع مـا بيـن المـلا   عـمّ أهـل البـدو عـمّ الحضـرا
يـوهـب الأمـوال لا يـرجـو ثنـا   فـي سبيـل الله يعطـي الفقـرا
وبـه الآداب عـزت وازدهـت   وبـه غـرس المعـالـي أزهـرا

وبلغ من صيت محمد مرعي باشا الملاح لدى أهالي حلب ، أن محلة خان السبيل عرفت ، وما زالت تعرف حتى الآن بـ « حارة الباشا » نسبةً إليه ، وهي مقامه وقد ثبتت هذه التسمية رسمياً فيما بعد ، عندما أطلقت البلدية على أحد شوارع تلك المحلة اسمه الصريح ، « شارع مرعي باشا الملاح »

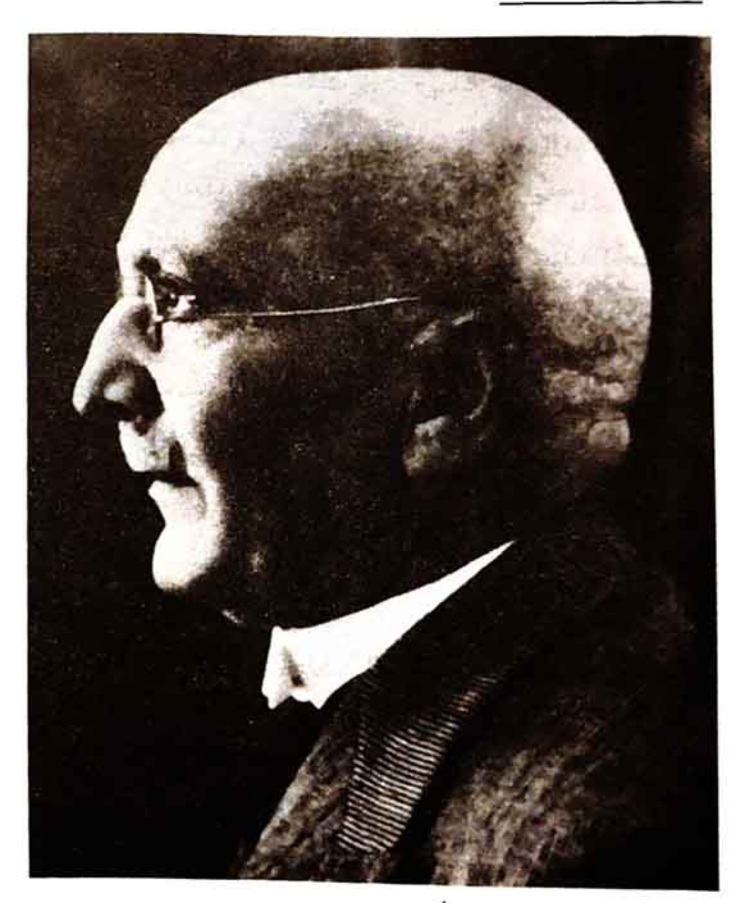
* * *

المراجع :

١ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ كامل الغزي ـ حلب ١٩٢٢
٢ـ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ـ محمد راغب الطباخ ـ حلب ١٩٢٣
٣ـ حلب في مئة عام ـ فؤاد عنتابي ونجوى عثمان ـ ١٩٩٣ حلب
٤ـ سورية والعهد الفيصلي ـ يوسف الحكيم ـ بيروت ١٩٨٠
٥ـ آزرنا بجمع كثير من معلومات هذا الفصل حفيد المترجم الأستاذ عمرو الملاّح ، له الشكر .

* * *

مجمعيون



محمد كرد علي

علامة الشام ومؤسس المجمع العلمي

١٨٧٦ - ١٩٥٢

كان إحدىٰ عبقريات الوطن العربي ، في العصر الحديث ، دون منازع

عشق الصحافة والأدب ، وتعلق بهما معاً

بدأ يكتب وهو في الثالثة عشرة من العمر

وشارك بتحرير جريدة « الشام » وهو ما يزال فتىٰ

وأخذ يراسل مجلة « المقتطف » العلمية ، المصرية فذاع صيته في مصر ، وانتلقت شهرته إليها

رحل إلىٰ مصر ، وأصدر مجلة « المقتبس » فيها

ولجّ به الشوق إلىٰ مسقط الرأس ، فعاد إلىٰ دمشق ، وأصدر فيها جريدة « المقتبس » يومية وشهرية .

غير أن المستعمر التركي ، أغلق الجريدة ، ولاحق صاحبها فاضطر للرحيل إلىٰ فرنسا

وفي باريس زار مجمعها العلمي ، ووقف يناجيه ، ويحلم بأن يرىٰ في دمشق مجمعاً لمثله

وعندما أزيح الكابوس التركي البغيض ، استطاع أن يقنع رجال العهد الوطني ، بإنشاء مجمع علمي

وهكذا أسس محمد كرد علي المجمع العلمي ، وأدار أعماله ، ووضع الكتب والمصنفات الضخمة ، وشغل وزارة المعارف مرتين

وحمل لقب « علّامة الشام » عن جدارة واستحقاق

قصة حياته

أبصر النور بدمشق في العام ١٨٧٦ ، وينتسب إلىٰ أسرة تتعاطىٰ التجارة وكان جد هذه الأسرة كردياً مستعرباً ، وفد إلىٰ دمشق من مدينة السليمانية في شمال العراق ، فطاب له هواؤها ، واعتدال مناخها ، فآثر الإقامة فيها ، واتخذها وطناً له ولأسرته

عندما علم والد الطفل بمولد ابنه ، اطلق عليه اسم « فريد » ، ثم حمَّده ،

تبركاً باسم النبي العربي الكريم ، جرياً علىٰ العادة المألوفة في دمشق ويبدو أن أسرته استطالت الاسم ، فصارت تناديه بـ « محمد » وغاب « فريد » اسمه الأصلي ، وبات يُعرف علىٰ مرّ الزمن باسمه الشهير « محمد كرد علي »

تلقىٰ تعليمه الابتدائي في إحدىٰ المدارس الحكومية ومبادئ اللغة الفرنسية علىٰ يد معلم خاص ، ثم دخل المدرسة العازارية وتتلمذ علىٰ يدي الشيخ طاهر الجزائري وكان يدعىٰ كبير معلمي العصر ، وعنه أخذ العلم وتعرَّف إلىٰ العلماء ، وانتقل إليه حب العربية . وعلومها ، وآدابها

تعلق محمد كرد علي بالصحافة ، وأحبها حتىٰ العشق ، فجمع بين الأدب والصحافة وكان في كليهما مجلّياً ومحلّقاً وحول تعلقه بالصحافة ، يقول في كتابه « المذكرات » ما نصه

« بدأت أقرأ في الجرائد العربية في الثالثة عشرة من عمري ، وانا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية وبعد حين اشتركت بجريدتين وأولعت بمطالعة «لسان الحال»، لأن فيه أخباراً طريفة مغرية عن الانكليزية . واشتركت لما كنت في الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة فرنسية أسبوعية تصدر في باريس اسمها « صديق الريف » فكنت اقرؤها قراءة تدبر ، لا قراءة تفكه ، واطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الأستانة ، ولا سيما المجلات الأدبية والتاريخية . وقد اقرأ بعض المقالات التي تروقني أكثر من مرة ، ولا سيما مقالات كبار الكتّاب والمفكرين في السياسة والاجتماع وما بلغت السادسة عشرة ، حتىٰ أخذت أكتب أخباراً ومقالات في الجرائد » .

في العام ١٨٩٧ كانت تصدر بدمشق جريدة تحمل اسم « الشام » لصاحبها مصطفىٰ الشقللي ، وهو مدير مطبعة الولاية ، فعهد إلىٰ الأستاذ كرد علي مهمة تحريرها ، فلبث يحررها ثلاث سنوات . ثم أخذ يراسل مجلة « المقتطف » المصرية ، فانتقلت شهرته إلىٰ مصر بعد الشام ، وذاع صيته في البلدين

ورحل محمد كرد علي بعد ذلك إلىٰ مصر ، ومكث في القاهرة عشرة شهور ، عمل خلالها في صحافتها ، وتعرف إلىٰ علمائها ، وأدبائها فاتسع أفقه ، وذاع صيته ، وباتت شهرته في مصر ، لا تقل عن شهرة الأدباء الأعلام في تلك المرحلة

ثم أصدر مجلة علمية أدبية شهرية في مصر باسم « المقتبس » وكان ينشر فيها أخبار العلم والحضارة والتقدم . كذلك قام بترجمة بعض الكتب المخطوطة النادرة

عقب إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ عاد محمد كرد علي إلىٰ دمشق ، بعد أن لجّ به الشوق ، وأرّقه الحنين إلىٰ غوطتها ، وقاسيونها ، وبرداها وفي دمشق أصدر مع أخيه أحمد جريدة « المقتبس » ، يومية سياسية ، إلىٰ جانب مجلته الشهرية ، التي كان يصدرها في القاهرة بالاسم نفسه غير أن السلطة العثمانية ضايقته وحاربته ، وأغلقت جريدته ، فاضطر للفرار إلىٰ فرنسا

كرد علي في المجمع الفرنسي

في باريس زار الأستاذ كرد علي المجمع العلمي الفرنسي ، ووقف في بهوه الرحب ، وأخذ يناجيه ، وهو يسائل نفسه

ـ هل يكتب لنا في المستقبل ، إنشاء مثل هذا المجمع في بلادنا ، فنعمل فرادىٰ ومجتمعين كالغربيين أم نظل كما نحن ، لا نعمل فرادىٰ ولا مجتمعين ؟ .

وكان هذا بدء تفكير محمد كرد علي ، بتأسيس المجمع العلمي العربي

عندما رحل الاستعمار التركي ، وانتهت عهود التخلف والظلام ، وجد محمد كرد علي الفرصة سانحة لتحقيق الحلم الذي طالما راوده حلم إنشاء مجمع علمي عربي ، علىٰ غرار المجمع الفرنسي ، وكما تفعل الأمم

المتحضرة ، من أجل حفظ تراثها ، وصون لغتها ، ونشر آدابها وعلومها

عرض فكرة إنشاء المجمع علىٰ الحاكم العسكري رضا باشا الركابي ، فوافق علىٰ تحويل ديوان المعارف ، برئيسه وأعضائه ، إلىٰ مجمع علمي وكان كرد علي رئيساً لهذا الديوان

وقد تحقق ذلك في الثامن من حزيران ١٩١٩ وظل العلامة محمد كرد علي رئيساً للمجمع طوال حياته ، وإلىٰ يوم رحيله عام ١٩٥٢ وكان مقر المجمع ، تجاه المكتبة الظاهرية في باب البريد ، إلىٰ أن انتقل إلىٰ مقره الجديد في شارع المالكي وقد تم تعديل اسمه خلال الوحدة مع مصر ، وبات يعرف باسم « مجمع اللغة العربية »

مكانته العلمية

يقف محمد كرد علي في المكانة العلمية والأدبية بين أنداده الأعلام العرب طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، والإمام محمد عبده وغيرهم وبلغت مؤلفاته التي تركها اثنين وعشرين كتاباً ، جاوز عدد صفحاتها العشرة آلاف عدا مجلته العلمية « المقتبس » ، التي جاوزت صفحات أجزائها ستة آلاف صفحة

كان محمد كرد علي دائم النشاط ، حريصاً علىٰ العمل باستمرار كان حركة لا تهدأ ولا تمل أو تفتر ، في الكتابة والتأليف . وظل طوال حياته يتمتع بنشاط أبناء العشرين ، وذكائهم ، وحيويتهم ، وذاكرتهم

جمع بين الصحافة ، والجامعة ، والوزارة ، والمجمع العلمي العربي بدمشق ، والمجمع اللغوي في مصر

عندما شاركت سورية بمهرجان مبايعة أحمد شوقي بإمارة الشعر ، كان محمد كرد علي يمثل سورية في هذا المهرجان . وحول ذلك كتب كرد علي في كتابه « المذكرات » يقول

« ودعاني شوقي ، وأظن بإشارة من القصر ، إلىٰ زيارة جلالة الملك فؤاد الأول ، فقابلني جلالته مقابلة عطف عظيم ، وطلب إلي أن أعود إلىٰ سكنىٰ مصر ، ليوسد إلي عملاً علمياً في قصره العالي وزادت رغبته لما ذكرت له الصحف والمجلات المصرية التي آزرت فيها ، فقال إنك بمساهمتك بخدمة السياسة والأدب في مصر تُعد مصرياً

ولكن محمد كرد علي اعتذر من الملك فؤاد عن رفضه وقال في مذكراته ، إنه كان يود الامتثال لأمره بالإقامة في مصر ، غير أن هواءها لا يلائمه ، كما يلائمه هواء دمشق ، مسقط رأسه ، ومثوىٰ أبيه وجده

وفي هذه الدعوة للإقامة في مصر من مليكها ، ما يؤكد المكانة العلمية الكبيرة ، التي كان محمد كرد علي يتمتع بها

الغوطة والمجمع

كان محمد كرد علي يهوىٰ غوطة دمشق ، ويحبها حتىٰ العشق وكان له فيها ، وفي بلدة جسرين بالذات أرض كبيرة ودار واسعة ورثها من أبيه كان يؤثر الإقامة فيها علىٰ سكنه في المدينة وقد أقام في الغوطة ستين عاماً ، وعاشر أهلها ، وألفهم ، وألفوه وأحبوه ، حتىٰ قيل إنه كان فلاحاً منهم ، يجالسهم ، ويؤاكلهم ، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم ويقول في كتابه « غوطة دمشق » إن الغوطة بالنسبة إليه « أحب بقعة إلىٰ قلبه في الأرض . ومن أجل ذلك وضع كتابه القيم عنها ، وتغزل بها غزل عاشق هيمان ، وكساها ثوباً من الحسن والجمال أضافته إلىٰ سحرها وفتنتها ، ورد الجميل إلىٰ الأرض الطيبة ، التي أحالت دمشق ، إلىٰ جنة وارفة الظلال[1]

---

(١) كان ذلك قبل أن يسطو عليها تجار البناء ، ويزرعوا فيها كتل الأسمنت ، بدلاً من الأشجار الوارفة ، والأزهار المفتحة .

أسلوبه

يوصف أسلوب محمد كرد علي ، بأنه رقيق في التعبير ، بليغ باللفظ الكلمات فيه علىٰ قدر المعاني ، والجمل تطول حيناً ، وتقصر حيناً آخر وهو في الأحوال كافة ، لا يتكلف ، ولا يتصنع ، بل يرسل كلماته علىٰ سجيتها ، ويهدف إلىٰ التركيز علىٰ المعنىٰ ، دون أن يعطي كبير اهتمام للمبنىٰ إنه في الواقع الأسلوب الذي يوصف بالسهل الممتنع إنه نثر العالم المفكر ، لا الأديب الذي تغريه الصنعة ، ويسيطر عليه الشكل والمظهر

ويتجلىٰ أسلوب كرد علي ، الذي أشرنا إليه ، في جميع كتبه وآثاره غير أن القلم يجمح به أحياناً ، فيشتط الخيال ، ويطيب له أن يُعنىٰ بالصنعة والعبارة ، فيكثّف جمله وعباراته ، ويختصر في ألفاظه وكلماته مثل هذا فعله في كتابه « المذكرات » ، ولا سيما حين يتحدث عن الشباب ، ويصف الشيخوخة ، ويتوقع قرب الرحيل ، فيحاسب نفسه دون هوادة

لنستمع إليه يقول :

ويا نفس ، لا تغضبي ولا تعتبي ، فقد عُمِّرتِ طويلاً ، ومُتِّعتِ كثيراً ، وفُتنتِ بجمال الوجود ، وجلال الطبيعة ، وهمتِ بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرتِ من الخلان والمعارف وسعدتِ إذ كنت أقرب إلىٰ التفاؤل من التشاؤم ، وإلىٰ الرجاء أدنىٰ من القنوط ، وإلىٰ السرور أكثر من الغم ، وعشتِ في سلطان الرضا ، طيبة الطعمة ، لا يد لأحد عندك »

يعتبر كتابه « خطط الشام » درة آثاره ، وأضخم أعماله ، فقد أنفق في تصنيفه خمسة وعشرين عاماً ، طالع خلالها نحو ألف ومئتي مجلد ، بالعربية والفرنسية والتركية ، وتحدث فيه عن تاريخ الشام وحضارتها ، علىٰ مر العصور والأزمان

المناصب التي تقلدها

شغل محمد كرد علي عدداً من المناصب الحكومية الرفيعة فقد عين وزيراً للمعارف في وزارة جميل الألشي وكان ذلك في السادس من أيلول ١٩٢٠ لغاية الأول من كانون الأول ١٩٢٠

عقب تخليه عن وزارة المعارف عام ١٩٢٠ أسندت إليه مهمة مدير المعارف ، واستمر في هذا المنصب لغاية ٣١ كانون الأول ١٩٢٤

عين وزيراً للمعارف للمرة الثانية في حكومة الشيخ تاج الدين الحسني من ١٥ شباط ١٩٢٨ لغاية ١٩ تشرين الثاني ١٩٣١

وفي عام ١٩٣٣ انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة

رحيله وتأبينه

عندما توقف القلب الكبير ، قلب العلامة محمد كرد علي ، يوم الخميس في الثاني من نيسان ١٩٥٢ ، خرجت دمشق بشيبها وشبانها لتشييعه ووداعه شيعه علماؤها ، وأدباؤها ، ورجال القلم والفكر فيها ، ووري الثرىٰ بجوار قبر معاوية بن أبي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية ، الذي أحب دمشق أيضاً حتىٰ العشق ، واتخذها عاصمة لدولته ، ورفع رايتها عالية خفاقة

وعلىٰ القبر ، وقف الأديب العالم الدكتور منير العجلاني فرثاه ، وقال في كلمته البليغة

« إن ثمة إمارتين معقودتين في العالم العربي إمارة الشعر ، وكانت معقودة اللواء للمرحوم أحمد شوقي ، وإمارة العلم وكانت معقودة اللواء لفقيدنا العلامة محمد كرد علي » .

وفي سنة ١٩٧٦ احتفل المجمع العلمي العربي ، ومن ورائه سورية بأسرها

بالذكرىٰ المئوية لميلاد محمد كرد علي ، احتفالاً منقطع النظير ، شاركت فيه جميع الأقطار العربية ، بمجامعها اللغوية ودلّ هذا الاحتفال علىٰ المكانة الرفيعة ، التي يحتلها محمد كرد علي ، في الوطن العربي كله

في هذا الاحتفال ألقيت كلمات لرئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة الدكتور إبراهيم مدكور ، وعدد من أعلام الأدب والشعر

كتبه وآثاره

١ ـ غرائب الغرب ـ حزيران ـ ١٩٢٣ ـ يتحدث فيه عن رحلاته إلىٰ أوروبا

٢ ـ غابر الأندلس وحاضرها ـ ١٩٢٣

٣ ـ خطط الشام ـ ستة أجزاء ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨

٤ ـ ثلاث سنوات من حكم سورية ـ ١٩٣١

٥ ـ الإسلام والحضارة العربية ـ جزءان ١٩٣٦

٦ ـ دمشق مدينة السحر والشعر ـ ١٩٥٢

٧ ـ الإدارة الإسلامية في عز العرب ـ ١٩٣٤

٨ ـ أمراء البيان ـ جزءان ـ ١٩٣٧ و١٩٦٩

٩ ـ كنوز الأجداد ـ ١٩٥٠

١٠ ـ أقوالنا وأفعالنا ـ ١٩٤٦

١١ ـ القديم والحديث ـ مجموعة مقالات ١٩٢٥

١٢ ـ غوطة دمشق ـ ١٩٤٩ و١٩٥٢

١٣ ـ رسائل البلغاء ـ ١٩٤٦

١٤ ـ سيرة أحمد بن طولون (تحقيق) ـ ١٩٣٩

١٥ ـ المستجاد من فعلات الأجواد (تحقيق) ١٩٤٦

١٦ ـ كتاب الأشربة ، لابن قتيبة (تحقيق) ـ ١٩٤٧

١٧ ـ البيزرة (في الصيد وآلاته) ـ ١٩٥٣

١٨ ـ الحكومة المصرية في الشام ـ محاضرة ١٩٢٥

١٩ ـ ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية

٢٠ ـ رسائل عبد الحميد بن يحيىٰ الكاتب

٢١ ـ أبو الطيب المتنبي ـ ١٩٢١

٢٢ ـ المذكرات ـ أربعة أجزاء ١٢٥٠ صفحة ـ صدرت بين ١٩٤٩ ـ ١٩٥١

* * *

المراجع

١ ـ كتب محمد كرد علي : غوطة دمشق ـ المذكرات ـ خطط الشام

٢ ـ كتيب « محمد كرد علي » ـ الدكتور عدنان الخطيب

٣ ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي .

٤ ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش .

٥ ـ عبقريات شامية ـ عبد الغني العطري .

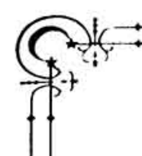
* * *

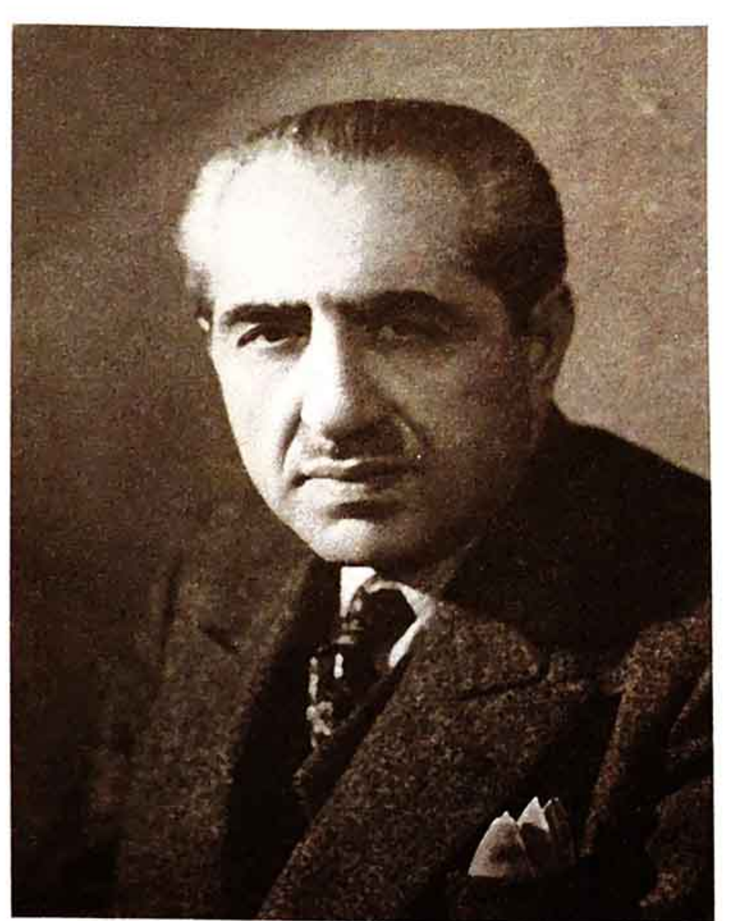


مؤسسو المجمع العلمي العربي



صورة نادرة للعلامة محمد كرد علي أيام الشباب





خليل مردم بك

شاعر الشام وأديبها وعاشقها

١٨٩٥ ـ ١٩٥٩





كان شاعراً من شعراء سورية الأعلام ، ويحمل ، عن جدارة ، لقب « شاعر الشام »

تلقى العلم في مطلع القرن الراحل ، عن عدد من أعلام الأدب ، واللغة ، والحديث

عُرف بخلقه الرفيع ، وتهذيبه المثالي ، ونبله الذي لا يبارى .

شغل عدداً من المناصب الوزارية ، ودرَّس الأدب واللغة في الكلية العلمية الوطنية

انتُخب عضواً في المجمع العلمي العربي ، وكان أصغر الأعضاء سناً فيه . . ثم انتخب رئيساً له

وضع لسورية نشيدها الوطني ، وذكّر فيه بأمجاد أمته ، وماضيها الحافل

وضع عدداً من الكتب الثمينة ، وحقق عدداً آخر من دواوين الشعراء الشاميين .

برع في شعره بالوصف ، وفاق في بعض ما قال أعلام الشعر

خليل مردم بك . . . شاعر شامي كبير ، يستحيل أن يُنسى

قصة حياته(١)

أبصر خليل بن أحمد مختار بك النور بدمشق في العام ١٨٩٥ بدار الأسرة في زقاق البوص ، بجوار سوق الحميدية

كان والده أحمد مختار من كبار وجهاء دمشق وسراتها وقد تولى أمانة العاصمة أكثرة من مرة ، وعرف باستقامته أما والدته فهي السيدة فاطمة ، ابنة مفتي الشام محمود حمزة وتعرف أسرته ببيت النقيب وقد تسلسلت بها نقابة الإشراف حقبة طويلة من السنين

---

(١) آزرنا بجمع بعض معلومات هذا الفصل ومراجعه ، حفيد الشاعر ، الأستاذ قتيبة مردم بك ، فله الشكر والتحية

تنتسب أسرة مردم بك إلى جدها عبد الرحمن بن محمد بن مصطفى بك القرمشي أما السبب في إطلاق لقب مردم بك عليها ، فيقول الخليل في رسالة له عن أسرة مردم بك « سمعت من بعض شيوخ أسرتي أن جدنا الأعلى لالا مصطفى باشا كان من المصطفين عند السلطان سليم الثاني العثماني فلما وجهه إلى فتح جزيرة قبرص ، وتم فتحها على يده قال له « مردم » ومرد بالفارسية تعني الشجاع ، أو ما في معناه والميم للإضافة ، فلقّبه بالشجاع ، وكأنما اختصه بنفسه على أنني وجدت ضبط هذا اللقب في بعض الصكوك الشرعية القديمة « مردن بك » بالنون ولا يخفى أن مجاورة الباء للنون تجعل التلفظ بها ميماً »

تلقى الخليل علومه الأولية في مدرسة الملك الظاهر ، وانتقل منها إلى « المكتب الإعدادي الملكي » بعد ثلاث سنوات ، غير أنه انقطع عنه عندما توفي والده ، وهو في نحو الخامسة عشرة . وما لبث أن تزوج من قريبة لوالدته هي السيدة فاطمة الزهراء بنت عبد الرحمن حمزة ، ورزق منها بولديه عدنان وهيثم ، وكلاهما كان شاعراً ، وثلاث بنات هن : لميس ، وفاطمة ، ومامه

رغم انقطاعه عن المدارس النظامية ، لم يتوقف شاعرنا عن التحصيل العلمي ، فقد أخذ الفقه عن الشيخ عطا الكسم ، والحديث عن المحدث الأكبر بدر الدين الحسني ، والنحو والصرف عن الشيخ عبد القادر الإسكندراني ، والتصوف عن الشيخ حافظ الداغستاني

بعد أربع سنوات من رحيل والده ، توفيت والدته ، الأمر الذي ترك في نفسه أعمق الأثر ، وطبعها بطابع الحزن . ويقول في ذلك « وفي سنة ١٣٣٣هـ توفيت والدتي . فأصبحت وقد فقدت والديّ ، أشعر بوحشة تركت في نفسي أثراً من الكآبة ، تمكن مني ، حتى صار خلقاً لي لذلك فالتفجع ظاهر في كل ما أقوله من الشعر

تكامل وعيه القومي

تكامل وعيه القومي ، في العام ١٩١٣ ، عندما كان في الثامنة عشرة ، كانت تعقد في داره اجتماعات فكرية وسياسية وأدبية   وفيها عقدت أول ندوة سياسية عام ١٩١٣ وقرر المجتمعون وجوب جمع شمل العرب ، والمطالبة بحقوقهم ، كأمة لها كيانها التاريخي والحضاري   وكان خليل مردم بك بين من أرسلوا برقية تأييد إلى عبد الغني العريسي ، أمين سر المؤتمر العربي الأول ، الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ أثناء انعقاد هذا المؤتمر

وفي الحرب العالمية الأولى ، كان بين من سجنوا في سبيل القضية العربية ، وشفع له صغر سنه ، فأطلق بكفالة مالية   ولكنه لم يتراجع ، بل تابع العمل من أجل الثورة العربية ، وواصل عقد الاجتماعات ، وشارك بإيواء قادة الثورة الكبرى ، وبينهم الدكتور أحمد قدري ، كيلا تطالهم أحكام المستعمر التركي .

عندما تم جلاء الأتراك ، وتألفت الحكومة العربية ، وأصبحت العربية لغة رسمية، قامت في دمشق حركة نشطة تهدف إلى تعريب القوانين والأنظمة وكتب التعليم   وقد عُيّن الخليل مميزاً لديوان الرسائل العامة ، كما قام بإلقاء دروس في الإنشاء على الموظفين

وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين أعلام عصره من أئمة الأدب أمثال الأمير شكيب أرسلان ومحمد كردعلي وإسعاف النشاشيبي والمفتي أمين الحسيني ونور الدين النعساني وغيرهم   وعرف بشاعريته وعلمه وأدبه

عندما دخل الفرنسيون سورية صُرف عن وظيفته ، وصارت داره مباءة للأدباء والمتأدبين . وفيها أُلفت عام ١٩٢١ « الرابطة الأدبية » ، وفيها كانت تعقد الاجتماعات ، وتلقى الأحاديث والمحاضرات   وانتخب الخليل رئيساً لهذه الرابطة ، التي كانت تضم طائفة من عيون الأدباء ، أمثال   سليم

الجندي ، شفيق جبري ، أحمد شاكر الكرمي ، عبد الله النجار ، الأمير مصطفى الشهابي ، الشماس ابيفانيوس زايد ، ماري عجمي ، عز الدين علم الدين وغيرهم إثر حوادث المستر كراين وبعد احتجاج أعضاء الرابطة على أعمال المستعمر الجائرة ، قامت السلطة الفرنسية بإغلاق الرابطة ، وإلغاء رخصة مجلتها ولم يحل ذلك دون عقد الجلسات في داره ، ومزاولته لنشاطه الأدبي والسياسي فقد اتصل برجال الثورة السورية ، وهاجم الاستعمار في قصائده وفضح بغيه وعدوانه ولعل من أعنف ما هاجم به الاستعمار ، قصيدته الرائعة « يوم الفزع الأكبر » ، التي قالها إثر قصف دمشق وحرق دورها عام ١٩٢٥ ، ونذكر منها قوله

باتت دمشق على طوفان من لهب يا دين قلبي من خطب تكابده
موج من النار لا تهدا زواخره يمده آخر ما ارتد وافده
لو يفعل الله ، جل الله ، ما فعلوا بأهل جلق لم يعبده عابده

إثر نشر هذه القصيدة النارية في الصحف العربية ، وتناقلها في المجالس ، قررت السلطة اعتقاله وزجه في السجن وحين ترامى إلى الشاعر ذلك ، نزح إلى لبنان ، ومنه إلى الاسكندرية ثم لندن هناك مكث أربع سنوات ، يدرس الآداب الإنكليزية ويبحث عما حوته المكتبات والمتاحف من تراث العرب العلمي والأدبي .

عندما عاد الخليل إلى دمشق ، بعد أربع سنوات من الاغتراب ، أطلق قصيدته الرائعة « سلام على دمشق » ومطلعها

تلاقوا بعدما افترقوا طويلا فما ملكوا المدامع أن تسيلا

في هذه المرحلة قام الشاعر والأديب الكبير بتدريس الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية ، وكان لشخصيته الفذة ، الأثر البارز في مئات الطلاب الذين تتلمذوا على يديه وقد ظهر بينهم الوزراء والسفراء والعلماء والأدباء ،

ويفخر المؤلف بأنه واحد من طلابه

في المجمع العربي

في عام ١٩٢٥ انتخبه المجمع العلمي العربي عضواً عاملاً ، وكان أصغر أعضائه سناً

وفي عام ١٩٤١ انتخب أميناً لسر المجمع ولم ينقطع عن ممارسة عمله في المجمع منذ ذلك الحين ، إلا في ظروف السفر أو ممارسة عمله في شؤون الوزارات التي أسندت إليه

أما في عام ١٩٤٢ فقد فجع بوفاة ابنه هيثم[1] وكان لهذه الفاجعة أثرها البالغ على حياة الشاعر الكبير وأدبه ، فقد انصرف عن قول الشعر ، وانكبّ على التحقيق الأدبي ، وكأنه يهرب من التفكير بالفاجعة

إثر وفاة العلامة محمد كردعلي عام ١٩٥٣ ، مؤسس المجمع ورئيسه ، انتخب خليل مردم بك رئيساً للمجمع

وكان قد انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر ، وفي المجمع العلمي العراقي ، وفي مجمع البحر المتوسط في بالرمو ، وفي مجمع العلوم السوفيتي ، كما انتخب زميل شرف في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن

المناصب السياسية والوزارية

أما المناصب السياسية والوزارية التي أسندت إليه ، فكان يتولاها في كثير من الأيام على كره . غير أنه كان يقوم بواجباته الإدارية على أفضل وجه

وفي العام ١٩٤٢ كان وزيراً للمعارف والصحة

---

(١) انظر في كتاب « أعلام ومبدعون » للمؤلف فصلاً موسعاً عن حياة المرحوم هيثم وبدء ظهوره شاعراً

وفي عام ١٩٤٩ كان وزيراً مفوضاً لسورية في العراق

وفي عام ١٩٤٩ أسندت إليه مهام وزارة الخارجية

عندما تقلد وزارة المعارف عام ١٩٤٢ اشترط أن يكون مطلق اليد في وزارته ، فتولى الإشراف على شؤون الشهادة الثانوية ، بعد أن كانت محصورة بالمستشار الفرنسي وأولى التبادل الثقافي مع البلدان العربية ، ومصر خاصة كل اهتمامه ، وأصر على تعيين الأستاذ عثمان الحوراني في المعارف ، وهو الوطني المجاهد ، رغم اعتراض المستشار الفرنسي ورفضه

أما عمله في الصحافة ، فكانت بداياته عندما غطى بمقالاته رحلة الحاكم العسكري رضا باشا الركابي في المناطق السورية ، ثم أصدار مجلة الرابطة الأدبية ثم أصدر عام ١٩٣٣ مع الدكتور جميل صليبا والدكتور كاظم الداغستاني والدكتور كامل عياد مجلة « الثقافة »

شامي النزعة والهوى

تتميز حياة الشاعر الكبير بسيادة ثلاث نزعات على فكره وقلبه وأعني النزعة الشامية ، والنزعة العربية ، والنزعة الإسلامية فهو شامي الهوى وصف في شعره دمشق والغوطة ، وقاسيون ، وبردى وكل معالم دمشق وكان متعصباً للمدرسة الشامية في الشعر ، يرى ما رأى الثعالبي في يتيمة الدهر ، من تجويد للشعر في المبنى والمعنى

حقق الخليل دواوين شعراء شاميين ، ودرس طائفة منهم كذلك عُني بالأمثال الشعبية ، والأمثال الشامية ، ونشر طائفة منها تحت عنوان « من الفولكلور السوري »

في نزعته العروبية ، كان شديد التعصب للغة العربية ، داعياً للوحدة لنستمع إلى قوله

فيم التقاطع والأرحام واشجة   والدار جامعة والملتقى أمم
قالوا وفي الدين بون دون وحدتنا   إلى متى باسم هذا الدين نقتسم
لئن أصروا على أهواء أنفسهم   لا الدين يبقى ولا الدنيا ولا الشيم

كان شاعرنا مسلماً ، صوفي الإيمان ، غير أنه لم يكن متعصباً كان يحترم آراء الآخرين ومعتقداتهم ، لذا كان أصدقاؤه من مختلف الأديان والمذاهب كان من أصدقائه المطران ابيفانوس زايد ، والعلامة سليمان الأحمد ، والأستاذ فارس الخوري والأستاذ عبد الله النجار ، والدكتور جميل صليبا

عندما كتب عبد الله النجار « بنو معروف » كتب مقدمة الكتاب صديقه القديم خليل مردم بك

وفي الحادي والعشرين من تموز ١٩٥٩ رحل خليل مردم بك إلى جوار ربه ، وشيع تشييعاً حافلاً ، وصلي عليه في الجامع الأموي ، ودفن الجثمان الطاهر في مدفن العائلة في الباب الصغير

وفي العاشر من آذار ١٩٦٠ أقامت له وزارة الثقافة حفل تأبين على مدرج جامعة دمشق ، تحدث فيه الدكتور إبراهيم الكيلاني ، والأمير مصطفى الشهابي ، والدكتور حكمة هاشم ، والشيخ محمد بهجة الأثري والأستاذ محمود تيمور ، والدكتور جميل صليبا وألقيت في الحفل ثلاث قصائد للشعراء عدنان مردم بك ، والشاعر القروي ، ومحمد الشريقي

بعض صفاته وخلقه

كان خليل مردم بك إنساناً مثالياً في خلقه وتهذيبه . كان هادئ الطبع ، قليل الكلام ، ثاقب النظر ، لا يذكر أحداً بسوء ، ولا تعرف الغيبة طريقاً إلى لسانه عندما كان يدرّس الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية ، كان في نظر طلابه ، أحب المدرسين إليهم ، فقد عرفوا فيه الإنسان الرصين ، الذي

يعاملهم بمودة واحترام ، ويفرض احترامه عليهم ، بصوته الهادئ ، وكلماته الرقيقة ، دون أن يعرف الغضب والانفعال سبيلاً إليه ويؤكد كثير من هؤلاء الطلاب ، أنهم أفادوا من علمه ودروسه ، أضعاف ما أفادوه من سائر المدرسين.

نظرة في شعره

يحمل خليل مردم بك لقب « شاعر الشام » وهو بحق شاعرها ، والناطق بلسانها ، في كفاح المستعمر والمواقف الوطنية ، ويشاركه في لقب « شاعر الشام » هذا ، ثلاثة فحول آخرين من الشعراء ، هم شفيق جبري ، ومحمد البزم ، وخير الدين الزركلي

وضع الخليل لسورية عام ١٩٣٦ نشيدها الوطني « حماة الديار » الذي نستمع إليه كل يوم في أجهزة الإعلام والمناسبات الوطنية ، فكان بكلماته الرقيقة ، وألفاظه الشفافة الحلوة ، خير ما يذكّر كل مواطن بأمجاد أمته ، ويحثه على مواصلة النضال من أجل رفعة بلاده والحفاظ على حريتها واستمرار نموها وتقدمها

قد يكون من العسير دراسة شعر الأستاذ خليل ، دراسة كاملة في كتاب كهذا ، ولا سيما بعد أن كنا قد تحدثنا عن أبرز خصائص هذا الشعر في كتاب سابق[١] غير أنه لا بد من القول إن أبرز خصائص هذا الشعر ، الجزالة ، ومتانة القافية ، والمعاني التصويرية الدقيقة .

طرق الشاعر فيما نظم ، معظم أبواب الشعر ، باستثناء الهجاء ، إذ لم يعرف عنه أنه هجا وشتم ، إنساناً في شعره ، أو نثره . بعد هذا يبقى الوصف الجميل الساحر ، قمة إبداعه الفني ، إلى جانب شعره الوطني ، وغزله الرصين الدقيق .

---

(١) انظر كتاب « عبقريات شامية » للمؤلف ص٢١ وما بعدها

برع خليل مردم بك بالوصف ، وأجاد فيه وحلّق ، كما لم يستطع أن يفعل أي شاعر معاصر ويقف وصفه لمعالم دمشق ، نهرها ، وجبلها ، وغوطتها ، في مقدمة هذا الوصف ويبلغ في سائر قصائده الوصفية ، حد التصوير الدقيق ، الذي يلامس الواقع بكل تفاصيله وأبعاده

هل يستطيع القارئ أن يمرّ ، دون أن يقف متأملاً جمال المعاني ، وروعة الوصف والتصوير ، عندما يقرأ قصائد : الشمس ، والبحر ، والبرق ، والرقص ، والسكران ، والطفل ، والفراشتين ، والزنبق وغيرها ؟ لقد أراد الشاعر في قصائده هذه ، أن يقول شعراً ، فجاء هذا الشعر صوراً ولوحات ، لا يكاد ينقصها سوى النطق ولسنا نبالغ إذا قلنا إن بعض قصائده تفوق في حسنها وجمال صورها ما قاله البحتري وابن الرومي ، وهما الشاعران الكبيران اللذان اشتهرا بجمال الوصف ودقة التصوير

ولعله من المستحسن أن لا نطوي هذا الحديث ، دون أن نشير إلى إحدى روائعه ، ونعني « الرقص » في هذه القصيدة يصف الشاعر حفل رقص شهده ، ولم يكن راضياً عما رآه فيه ، فوصفه بأنه « لهو ولعب » و« كل صعب فيه يهون » ، ويصبح « عسير الأمر فيه كاليسير »

يبدأ الشاعر قصيدته بقوله

نُفِخ الصور فهبوا مسرعين	مثلما نفَّرت طيراً بالصفير
وعلى الصهباء كانوا عاكفين	من رأى سرب مهاً حول غدير ؟

فلما فرغ من وصف قيام الراقصين والراقصات إلى حلبة الرقص ، انثنى إلى الفتاة الراقصة ، فتحدث عن سحر مقلتها ، واعتدال قدها ، وجيدها التليع ، وتسريحة شعرها ، ووصف بعد ذلك ثوبها الذي يستر من جسدها بقدر ما يفضح . . . ثم وصف فتاها الراقص ، وأشار إلى حسنه ، وغمز من تخنثه ، حتى كاد أن لا يميزه من النساء ، لولا ثيابه . فلما فرغ من كل ذلك قال

كل إلفين انضوى شملهما	أقبلا فاعتنقا أي اعتناق
لو صببت الماء ما بينهما	لم يكد يخلص من فرط اعتلاق

علقـت كـف بكـف منهمـا شـركـا ، واختلفـت سـاق وسـاق
ودنـا الخـدان مـن بعضهمـا حينمـا الجيـدان همـا بـالتـلاق
وعلـى الأنغـام كـانـت لهمـا خطـوات بـاتـزان واتسـاق
رقصـا شتـى ضـروب وفنـون مـن دبيـب خـافـت أو ذي صـريـر
بينمـا عـومهمـا عـوم السفيـن إذ همـا بـالحجـل كـالطيـر الكسيـر
خِلـتُ ثـديـيهـا إليـه انتقـلا فـرط إلحـاح بضـم واقتـراب
لـم أجـد صـدر فتـى قـد حمـلا قبلـه فيمـا مضـى ، نهـدي كعـاب
كيـف تـرجـو صحـو مـن قـد ثمـلا بمـدام ، وغـرام ، وشبـاب ؟

ويطول بنا الحديث ويتشعب ، إذا ما رحنا نتابع وصف هذا الحفل ، أو نغوص في الكلام على غيرها من قصائد الوصف عند شاعرنا الكبير

كتبه وآثاره

طبع شاعر الشام خلال حياته المؤلفات التالية

١ ـ شعراء الشام في القرن الثالث .

٢ ـ سلسلة دراسات بعنوان « أئمة الأدب »

١ ـ الجاحظ . ٢ ـ ابن المقفع ٣ ـ ابن العميد ٤ ـ الصاحب بن عباد ٥ ـ الفرزدق .

٣ ـ حقق وقف لالا باشا وزوجه فاطمة خاتون .

٤ ـ حقق الدواوين التالية

أ ـ ابن عُنين الدمشقي
ب ـ علي بن الجهم
ج ـ ابن حيّوس .
د ـ ابن الخياط .

أما بقية كتبه ، وفيها ديوان شعره فقد ظهرت بعد رحيله ، بجهد ابنه الشاعر عدنان مردم بك وهي :

١ ـ ديوان الخليل

٢ـ جمهرة المغنين
٣ـ الأعرابيات
٤ـ شعراء الأعراب
٥ـ الشعراء الشاميون .
٦ـ دمشق والقدس في العشرينيات .
٧ـ محاضرات الخليل
٨ـ تقارير الخليل الديبلوماسية
٩ـ يوميات الخليل
١٠ـ رسائل الخليل
١١ـ أعيان القرن الثالث عشر
١٢ـ دراسة عن الشاعر أبي نواس .
١٣ـ دراسة عن الشاعر ابن الرومي .
١٤ـ دراسة عن الشاعر المعري

* * *

المراجع

١ـ ديوان خليل مردم بك
٢ـ دراسة عن أسرة مردم بك بقلم خليل مردم بك .
٣ـ نبذة عن حياة الشاعر بخط يده .
٤ـ كلمة الأمير مصطفى الشهابي في حفل تأبين خليل مردم بك .
٥ـ مذكرات الدكتور أحمد قدري عن « الثورة العربية الكبرى »
٦ـ مقدمة كتاب « الأعرابيات » لخليل مردم بك بقلم ابنه عدنان مردم بك .
٧ـ مقدمة كتاب « جمهرة المغنين » لخليل مردم بك بقلم عدنان مردم بك .
٨ـ قصتي مع الشعر ـ نزار قباني .
٩ـ عبقريات شامية ـ عبد الغني العطري

* * *



محمد البزم

شاعر الفحولة في العصر الحديث

١٨٨٧ - ١٩٥٥

قضىٰ طفولته ومراهقته ومطلع شبابه ، دون أن يتعلم القراءة والكتابة
ثم أقبل علىٰ العلم بشوق ، ورغبة ، ونهم .
واستطاع أن يعوض ما فاته
عشق اللغة وآدابها ، والشعر وفنونه
وبات شاعراً عملاقاً ، وحمل لقب « شاعر الشام »
وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي .
ومارس التدريس عشرين عاماً في مكتب عنبر .
وتخرجت علىٰ يديه أجيال ، من الأدباء ، والعلماء ، والسياسيين .
كان حريصاً علىٰ إحياء الألفاظ المنسية ، شديد الغيرة علىٰ اللغة
وكان كذلك كارهاً للاستعمار وأعداء الوطن ، عاشقاً لوطنه
كان واحداً من أعلام الأدب واللغة والشعر ، الذين يعتز بهم الوطن
يفاخر طلابه الباقون ، بأنهم من تلاميذ محمد البزم .

شيء من حياته

أبصر الطفل محمد النور بدمشق في العام ١٨٨٧ من أم سورية دمشقية تدعىٰ « عربية الإمام » وأب عراقي بغدادي الأصل ، يدعىٰ محمود وكان محمد يعيش مع أبيه وجده ، في بيت كبير من بيوت حي الشاغور

يتحدث البزم عن أصله ويقول

« أما أصلي ، فقد هبط أحد أجدادنا جِلّق منذ مئتي سنة أو أكثر ، جالياً عن العراق لأسباب غُمّ علي وجه التحقيق فيها » وقد احترفت أسرته التجارة . وكان لجده محمد بن سليم البزم أكثر من محل تجاري في دمشق . وكان يفرغ لتجارة الحبوب في الصباح ، ولتجارة مانيفاتورة « الأقمشة » فيما تبقىٰ من النهار . وكان وجيهاً من وجهاء دمشق ، يلجأ إليه الناس لحل خلافاتهم »

وكان بيت الأسرة كبيراً ، يتألف من عشر غرف وله بابان الباب الكبير يستعمله الجد محمد البزم للخروج وهو علىٰ صهوة جواده

كان شاعرنا محمد البزم وحيداً لوالده ويقول عن هذه المرحلة من حياته

« قارب سني العشرين ، وأنا لا أعلم من القراءة إلا بعض سور قصار من القرآن الكريم ، ونزراً من الأدب التي يكثر جريها علىٰ الألسنة ، مما لُقِّنته عند « الخوجة » ، ومن أفواه الناس

وقد كُتب لي مرة أن أرافق عمي في بعض أسفاره إلىٰ بيروت . وعند أوبتنا هبطنا بلدة الزبداني غرب دمشق ، فرأىٰ عمي في يد أحد السائحين الدراويش ، المجلد الثاني من كتاب المستطرف للإبشيهي ، فشراه منه بثمن بخس ، علىٰ غير عادة منه باقتناء الكتب فكان أول كتاب عرفته ، غير أقاصيص وسير ، وكنا نسمر بها ليالي الشتاء . بل كان باكورة عدتي الأدبية ، لانكبابي وبإلحاحي عليه بالمطالعة والتكرار ، وإن لم أكن أفقه مما أقرأ إلا قليلاً

ويتابع البزم الحديث عن سيرته ويقول :

« بقي هذا شأني ، لا أطيق من الكتابة إلا طائفة من أسماء الأعلام ، أقلد برسمها خط القرآن والكتب المطبوعة ، حتىٰ أتيح لي أن دخلت مرة مع صديق لي المكتبة الظاهرية ، فأخذت انظر في شتىٰ الكتب من أدب واجتماع وتاريخ وفنون . فأبهت إذ ذاك لضرورة درس العربية وفنونها ، فبدأنا أنا والصديق خير الدين الزركلي ننتاب حلقات شيوخ الفيحاء وعلمائها وكلما أنسنا قلة الفائدة عند واحد ، صرفنا همنا إلىٰ غيره ، حتىٰ قذفتنا الهداية إلىٰ العلامة الشاعر الأستاذ السيد عبد القادر بدران المتفنن فقرأنا عليه في عدة شهور ، شيئاً من ديوان المتنبي ونحواً من مغني اللبيب لابن هشام ، وصدراً من دلائل

الإعجاز لفحل البلاغة عبد القادر الجرجاني ، وكتيباً في الأصول ثم لم نلبث أن اتصلنا بنابغة علماء دمشق ، وأحد أفذاذها المشهورين الأستاذ المحقق الأديب الرقيق السيد جمال الدين القاسمي ، فقرأنا عليه كتباً في العربية والبلاغة والمنطق وكان قد نزل في غضون ذلك إلىٰ دمشق أحد علماء تونس المفوّه اللسن السيد صالح التونسي ، فقرأنا عليه كتباً في علمي الكلام والمنطق وأخرىٰ في العربية والأصول ثم انصرفت إلىٰ المطالعة بنفسي »

كانت مطالعة البزم بعد ذلك خصبة كل الخصوبة ولم يكن يدع كتاباً عربياً يقع بين يديه دون أن يطالعه . وكان مولعاً بقراءة دواوين الشعر القديمة

وكان له اهتمام خاص بقراءة كتب النحو ، واستقصاء قضاياه كلها ، ونقلها والتعليق عليها ، والمفاضلة بين مذاهبها وقد اتخذ لنفسه مذهباً في النحو يرمي إلىٰ تسهيله ، ولكنه لم يستكمله لإلحاح المرض عليه وكان يعتبر نفسه قيماً علىٰ النحو وإماماً من أئمته وكان يتهم النحويين بالشعوبية ، وبأنهم عمدوا إلىٰ تصعيب النحو تعجيزاً للناس عن تعلمه

كان يطالع الكتب ليستقصي دسائس من يصفهم بالشعوبيين ، ويظن أن القومية العربية لم تشهد في عصرها الحديث شاعراً ، آمن بالأمة العربية إيماناً قوياً ، وغالىٰ في حبها مغالاته ، حتىٰ كانت لفظة شعوبي ، أكبر سُبَّة يسب بها ألد أعدائه

انتقل محمد البزم من ميدان الجهل ، شبه أمي ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، إلىٰ ميدان العلم ، مدرساً لعلوم اللغة العربية وآدابها ونحوها ، خلال ست سنوات وكان قد بدأ نظم الشعر في هذه المرحلة وصار يبعث إلىٰ الصحف بقصائد ومقطوعات قومية ، يحض العرب فيها علىٰ النهوض من غفوتهم ، والمطالبة بحقوقهم التي غصبها الأتراك . ويقول إن ما كانت تلقاه قصائده من تقدير لدىٰ أرباب الشعر والأدب ، شجعه كثيراً علىٰ متابعة النشر غير أن الأتراك بعد ذلك شددوا الرقابة ، وكمّوا الأفواه ، وأصلتوا السيوف فوق

رقاب الأحرار العرب فدبّ الذعر لدىٰ أشد القلوب ، وأقوىٰ الأفئدة ولم يعد أحد يجرؤ علىٰ القول في جهر ولا سرٍّ ، لكثرة ما بَثّ من العيون ويقول بعد ذلك وكنت كلما قرضت شيئاً فيه ذكر العرب وما يقاسونه من إرهاق الترك ، دسسته إلىٰ والدتي ، ورجوتها أن تبالغ في إخفائه والحرص عليه ، حتىٰ اجتمع لديها طائفة صالحة وعندما جلا الترك ، وطلبتها منها ، فتشت وذهب تفتيشها سدىٰ وبقي لدي من الحسرة عليها ، ما يجده من أضاع ما قرضه في سنين ثلاث

كان محمد البزم مبذراً علىٰ لهوه ، وكان في بعض الليالي ينفق ما مقداره مئة ليرة ذهبية في الليلة الواحدة وكان ينفق علىٰ كل من كان معه كان بطلاً في لعبة البلياردو علىٰ مستوىٰ سورية ولبنان ، وكذلك في الشطرنج وقد سجن في بدء الاحتلال الفرنسي ، بتهمة إثارة الرأي العام سبعين يوماً ، وحكم عليه بالسجن عاماً مع وقف التنفيذ وعندما أفرج عنه ، لم يجد لديه المال الذي يريد ، لأنه كان قد بدّده وشعر بالحاجة الملحّة إلىٰ وظيفة وبحث طويلاً دون جدوىٰ ، لأن الفرنسيين ، دأبوا علىٰ محاربة الأحرار في أرزاقهم

عُين فيما بعد معلماً للغة العربية في مدرسة السمانة الرسمية الابتدائية ، ولكنها كانت دون طموحاته بكثير

وفي عام ١٩٢٦ نقل البزم إلىٰ تجهيز ثانوية دمشق « مكتب عنبر »

وفي عام ١٩٤٢ انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي

تزوج عدة مرات ، غير أنه لم يرزق أولاداً إلا من زوجته السيدة منور ، التي أنجبت له ثلاثة أبناء هم صفوان ١٩٣١ ـ حسان ١٩٣٤ ـ محمد غسان ١٩٤٥

ورحل إلىٰ جوار ربه في الثاني عشر من أيلول عام ١٩٥٥ بعد فترة مرض رسيس ، قضاها في أحد المشافي الحكومية بدمشق .

نظرة في حياته وشعره

كان محمد البزم واحداً من أربعة شعراء يحملون لقب « شاعر الشام » والثلاثة الباقون هم « خليل مردم بك ، وشفيق جبري ، وخير الدين الزركلي » أبرز ما يوصف به شعر البزم الفحولة ، ومتانة القوافي ، والإغراق في البحث عن حوشيّ الكلام والألفاظ الغريبة المنسية

كانت تربطه علاقات سيئة بالشعراء الآخرين كان يهاجمهم ويهجوهم ، وينتقدهم نقداً جارحاً ، لاختيارهم الألفاظ الرقيقة ، والكلمات الرشيقة ، ويصفهم بـ « عبيد الشعر » قال في التنديد بأحدهم :

زعمـــوا لـــلأخـــرق المـــأ فـــوك شيطـــانـــاً وشعـــرا
وهـــو لـــو عُمّـــر عمـــر الـــد هـــر لـــن يُحكـــم شطـــرا
يـــا عبيـــد الشعـــر قـــد أبـــرمتـــم الليـــل دبيبـــا
وأغـــرتـــم فتـــركتـــم شـــاعـــر القـــوم سليبـــا

قلنا إن البزم كان يبحث عن الألفاظ المنسية منذ الجاهلية ، لعله بذلك يحاول أن يذكّر بها أو يعيد إليها الحياة وقد أفرط الشاعر في ذلك ، إلىٰ أن سماه بعض الكتاب والنقاد ، بالشاعر الجاهلي ، الذي يعيش في القرن العشرين لنستمع علىٰ سبيل المثال إلىٰ قوله من قصيدة طويلة

نـــازلتـــي تفـــرجـــي ليـــس بعشـــك ادرجـــي
وفـــي الجمـــوع انـــدرجـــي وارتئبـــي واستـــدرجـــي
فـــي هـــرم مـــدرّج وإن قـــدرت بـــرُجـــي
ورتبـــي وشمـــرجـــي وزهـــزقـــي وخـــرّجـــي
ودرنجـــي ودحـــرجـــي وصمّـــدي فـــي الـــدرج
وإن غضبـــت انشـــرجـــي أو ارتضيـــت عـــرُجـــي
مـــا درهمـــي ببـــرجـــي ولا أنـــا بكـــرّج

ومثل هذا الشعر كثير في ديوان البزم وأغلب الظن أن شاعرنا أراد إحياء الكلمات التي عفا عليها الزمن ، وباتت نسياً منسياً ، في بطون المعاجم والكتب الصفر وربما كان البزم بمحاولاته هذه قد قفز بشعره ، أكثر من أربعة عشر قرناً إلى الوراء ، ليعيد إلىٰ الذاكرة ، عصر امرئ القيس ، ولبيد ، وزهير ، والمُنَخّل اليشكري

قام البزم بتدريس اللغة العربية في إحدىٰ ثانويات دمشق طوال عشرين عاماً أو تزيد وكان يحرص كل الحرص علىٰ مخاطبة طلابه بالعربية الفصحىٰ ، ويرفض أن يصغي إليهم ، إلا إذا تحدثوا إليه بلغة سليمة ، دون خطأ لغوي أو نحوي . ويعاقب عقاباً شديداً من يفعل غير ذلك وكان هذا سبباً في تندّر بعض طلابه ، وبعض المدرسين الآخرين . ولا تزال كلمات البزم وتعليقاته ترنّ في أسماع طلابه القدامىٰ حتىٰ اليوم ، مع تكرار الرحمة له وتذكر أيامه الحلوة ، بما فيها من طرائف ومفارقات

الحب والبزم

ولا بد لنا من الإشارة إلىٰ خلوّ شعر الأستاذ البزم من الحديث عن الحب والغزل ، فقد خلا ديوانه من التغزل بالمرأة . وأغلب الظن أن الحب لم يعرف سبيلاً إلىٰ قلبه ، ولا عزف بأوتاره علىٰ فؤاده . ودليلنا علىٰ ذلك قوله

إن الهـــــوىٰ هــــــوان	وذلــــــــه ألــــــــوان
فسلمـــــــه عــــــدوان	وسخطــــــه رضـــــوان
وســـــــره عنــــــوان	يقظـــــانـــه سهــــوان
حـــــاملـــــه نشــــوان	يـــــذري بـــــه الإخـــوان
فتـــــارة أســــوان	ومثلهـــــا شهـــــوان

ويمضي الشاعر بأرجوزته هذه منددأً بالحب والهوىٰ ، ساخراً ممن يحبون ويعشقون

غير أن البزم كان عاشقاً لبلاده ، متيماً بها سلبته دمشق كل قلبه ، وخصها بكل عشقه وهيامه وقد صدّر ديوانه بقصيدة تحمل عنوان « دمشق » ، وتزيد أبياتها على مئة وستين بيتاً بدأها بالحديث عن « ماضيها » ، وانثنى إلى وصف جمالها ، وأعقبه بالكلام على إخلاقها ، ثم عن بني أمية فيها ، وعن جيوشها وشبابها ، وعن نهر بردى وفروعه السبعة ، وعن غوطتها الفيحاء . يقول البزم في رائعته هذه

رفعت على حرم الخلود بنودا   ومضت تحلّق في الإباء صعودا
بنت العصور الحاليات نحورها   بالزهر تسطع ما عرفن خمودا
ريحانة الدنيا وظل نعيمها   من قبل مولد يعرب وثمودا

ولهذه القصيدة الخالدة قصة لا تخلو من طرافة

أراد البزم حين نظم رائعته هذه ، أن تتصدر ديوانه لدى صدوره وكان المؤلف في أوائل العام ١٩٤١ يزوره في بيته المتواضع في حي السبكي ، حين حدثه عنها ، وأسرّ إليه بموضوعها ومبلغ اعتزازه بها . ثم أعطاه نسخة منها ، مع طائفة مختارة من جديد شعره وما هي إلا شهور ، حتى أصدر المؤلف مجلة «الصباح» الأدبية. وهنا تذكّر الكنز الثمين الذي يعتز به البزم، فدفع بقصيدة «دمشق» الرائعة إلى النشر في العدد الثاني من «الصباح»، بعد أن زينها بصورة الشاعر ، وقدم لها بسطور ، أثنى فيها على الأستاذ البزم وقصيدته وحين اطلع البزم عليها منشورة دون إذنه ، ثار ثائره ، وحمل عصاه التي يتوكأ عليها وهو في شيخوخته ، وذهب يسأل عنه في منزله . وكان اليوم يوم جمعة فلما قرع الباب ، وعلم بقدومه ، هرع إليه مرحباً . غير أن البزم كان متجهم الطلعة ، مقطب الجبين . وحين دعاه المؤلف للدخول ، وتناول القهوة ، رفض ، وطلب أن يعطيه ما في حوزته من شعره غير المنشور ، لأنه

لا يرغب بنشره ، قبل ان يعيد فيه النظر ، ويشرح بعض ألفاظه وقد أسف الشاعر لنشر قصيدته عن « دمشق » دون أن يرفقها بالشرح المناسب

والمؤسف أن ديوانه حين صدر بعد رحيله ، لم يكن مزوداً بالشرح الذي أراده وتحدث عنه

وبعد فقد كان المرحوم البزم شاعراً فريداً بين الشعراء ، تميز بفحولة شعره ، ونفحة جاهلية في كثير من قصائده وبرزت في ديوانه حماسته لوطنه وقوميته وعروبته وظهر البزم عملاقاً في أسلوبه ولغته ، حين قل الشعر ، وتطاول الأقزام ، وضعفت اللغة ، وشاعت الركاكة والميوعة وصح في شاعرنا الكبير ما قاله في وصف نفسه وشعره

أنا الفحل في صوغ القوافي مجرب وإن ضلالاً أن يراز المجرب
وإني أفعىٰ الشعر ، أحمي ذماره إذا دبَّت الضراء للشعر عقرب

آثاره المطبوعة والمخطوطة

ترك محمد البزم ديوان شعر كبير ، قام بطبعه المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية غير أن من أشرف علىٰ طباعة هذا الديوان ، أساء إلىٰ الشاعر إساءات بالغة فقد تم طبع الديوان ، دون شرح ألفاظه الصعبة ، وهي كثيرة . ولم يُشر فيه إلىٰ مناسبات القصائد التي وردت فيه أو تاريخها ولم يُقدّم لصاحب الديوان ولا التعريف به ، بأكثر من سطور قليلة ، اقتُبست من كتاب « الأعلام » لخير الدين الزركلي وهذا دون ريب يخالف أبسط قواعد النشر والتحقيق . وللشاعر أيضاً الآثار المطبوعة التالية

١ ـ محمد البزم : أصلي ، مولدي ، منشئي

أربع مقالات نقدية :

١ ـ معنىٰ النقد .

٢ ـ كلمات في شعراء دمشق

٣ ـ عروج أبي العلاء

٤ ـ من وحي المرأة

٥ ـ مقدمة لكتاب « طوق الحمامة » في الإلفة والألاّف

أما آثاره المخطوطة فكثيرة ، نورد عناوينها ، ونرجو أن يتاح لها أن ترى النور ، ولا سيما أن بينها الثمين والقيم :

١ ـ طلائع الجحيم

٢ ـ مقدمة الديوان

٣ ـ الجواب المسكت

٤ ـ دروس في اللغة العربية

٥ ـ العامل والعمدة والفضلة والحلة والإعراب والبناء .

٦ ـ المعجم النحوي .

٧ ـ الشيوخ

٨ ـ جمال اللغة العربية

٩ ـ اللحن ولحن الحجاج

* * *

المراجع :

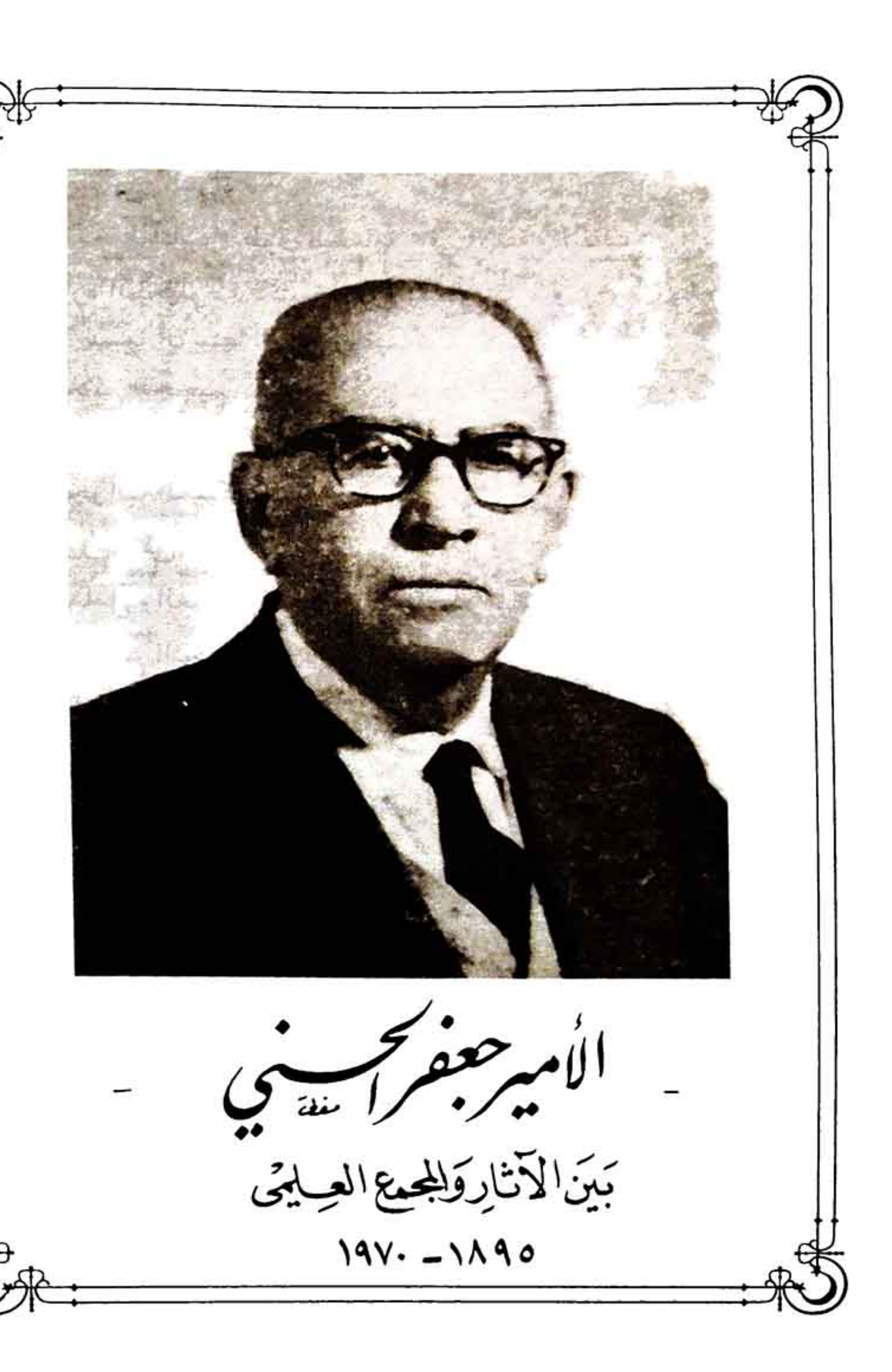
١ ـ ديوان محمد البزم .

٢ ـ محمد البزم : أصلي ، مولدي ، ونشأتي .

٣ ـ معلومات مختلفة زودنا بها الأستاذ حسان البزم ، نجل الشاعر

٤ ـ عبقريات شامية ـ تأليف عبد الغني العطري .

* * *


الأمير جعفر الحسني
بَينَ الآثارِ وَالمجمع العِلمي
١٨٩٥ - ١٩٧٠

حفيد المجاهد العربي الأمير عبد القادر الجزائري

كان رقيق الحاشية ، عطوفاً ، ودوداً ، لين العريكة

كان أخاً وصديقاً للرؤساء ، وأباً عطوفاً للمرؤوسين

قضىٰ الشطر الأكبر من حياته في خدمة الآثار ورعايتها . وشيَّد البناء الضخم الذي تشغله

وفي المجمع العلمي العربي كانت خدماته وجهوده ملحوظة وبارزة .

انتخب عضواً في المجمع ، ثم أميناً للسر ثم نائباً للرئيس غير أنه رحل ، قبل أن يتسلم مهام منصبه الأخير

مولده ونشأته

أبصر النور بدمشق في الرابع عشر من أيار عام ١٨٩٥ وهو ابن طاهر ابن أحمد بن الأمير عبد القادر الحسني الجزائري وكانت ولادته في مزرعة أبيه « بلاس » ورحب بمولده الشيخ طاهر الجزائري عضو المجمع العلمي العربي ، ونظم في ذلك قوله :

لقد وافى الزمان بنجم سعد به صبح الهنا والبشر أسفر

فقال الحال للشرف العلي لدىٰ التاريخ حي الفضل جعفر

تلقىٰ علومه الابتدائية في مدرسة الآباء العازاريين الفرنسية بدمشق . وانتقل عام ١٩١٠ إلىٰ المدرسة العلمانية في بيروت ، وحصل منها عام ١٩١٤ علىٰ شهادة الدراسة الثانوية ، وتوقف عن متابعة دراسته العالية بسبب ظروف الحرب العالمية الأولىٰ .

أبعدته الحكومة العثمانية إلىٰ بروسه في الأناضول مع أسرته ، ثم أفرجت عنه في صيف العام ١٩١٨ فعاد إلىٰ مسقط رأسه دمشق

حياته العملية

في الثامن من أيلول ١٩٢٠ عينته الحكومة السورية أميناً للمتحف العربي ، الذي أسسه المجمع العلمي العربي ثم أوفدته في الثامن عشر من تشرين الأول ١٩٢١ إلىٰ فرنسا للتخصص بعلم الآثار القديمة ، فانتسب إلىٰ مدرسة اللوفر في باريس ونال شهادتها بعلم الآثار الشرقية القديمة عام ١٩٢٤

وتابع خلال هذه الفترة ، دراسة اللغات السامية القديمة في جامعة باريس ، ثم عاد إلىٰ دمشق ، واستأنف عمله في المتحف العربي

في مطلع العام ١٩٢٨ عُين محافظاً للمتحف . بعد انفصال المتحف عن المجمع العلمي العربي ، وأصبح من المؤسسات الرسمية المستقلة إدارياً ومالياً ، وألحقت به إدارة حديقة تدمر الأثرية فعمل علىٰ إخلاء خرائب تدمر ومعبدها الكبير من السكان ، وهدم دورهم ، التي كانت تحجب معظم الآثار عن الأنظار ، بعد أن هيأ لهم مساكن جديدة ، في قرية نموذجية ، بعيدة عن المنطقة الأثرية وصرف جهوده في تنظيم المتحف ، وعمل علىٰ إنمائه وازدهاره واستطاع بعد جهد كبير ، أن يقنع الحكومة بضرورة بناء متحف جديد ، يتفق مع مكانة العاصمة الأموية ، وتحققت أمنيته عام ١٩٣٦ ، وأصبح لدمشق دار آثار تليق بمكانتها ، واشتهرت بأهمية محتوياتها ومعروضاتها

في الخامس والعشرين من أيلول عام ١٩٤٧ عين الأمير جعفر مديراً عاماً للآثار

ثم أحيل في الحادي عشر من نيسان عام ١٩٥٠ إلىٰ التقاعد

غير أنه عُيّن من جديد في منتصف كانون الثاني عام ١٩٥١ محافظاً لجبل العرب من الدرجة الأولىٰ والمرتبة الأولىٰ   وما لبث أن استقال في الثاني عشر من نيسان ذلك العام   واعتزل العمل الحكومي بشكل نهائي .

انتخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي يوم الثامن والعشرين من شباط عام ١٩٤٢ وعاد المجمع فانتخبه عضواً بلجنته الإدارية في التاسع من أيار ١٩٤٣   وجدد انتخابه لها للمرة الثانية ثم الثالثة في ١٠/٩/١٩٥٠ و١٥/١/١٩٥٥

وفي الخامس والعشرين من آب ١٩٥٦ انتخبه المجمع لمنصب أمين السر العام ولمدة أربع سنوات ، عملاً بنظام المجمع   وجدد تعيينه حتىٰ الثامن والعشرين من أيار ١٩٧٠ ، حين اتخذ مجلس المجمع قراراً بالإجماع ، يقضي بانتخابه نائباً لرئيس المجمع ، علىٰ أن يستمر بالقيام بأمانة السر ، ريثما تستكمل معاملة تعيينه   غير أن القدر المحتوم وافاه قبل ذلك .

وقد رحل الأمير الطيب ، الوفي ، الودود ، إلىٰ جوار ربه يوم الثلاثاء السابع من تموز ١٩٧٠ ، وشيع إلىٰ مثواه الأخير في اليوم التالي .

بعض أعماله العلمية والأثرية

كان الأستاذ الأمير جعفر الحسني الجزائري ، مثلاً رفيعاً للموظف

القدير النشيط لم يفتر عن العمل ، سواء في مكتبه أو داره ، رغم ما أصابه من عِلل وأسقام في أواخر حياته كذلك عرف برجاحة العقل ، وطيب العنصر والأحدوثة ، ولين العريكة ، فقد كان أخاً للرؤساء ، وأباً للمرؤوسين

ومن أعماله العلمية والأثرية البارزة :

١ ـ تصميمه وإشرافه علىٰ إعادة بناء كنيس صالحية الفرات (دورا ـ اروبوس) والمدفن التدمري، وقصر الحير الأموي، وترميم خرائب تدمر، ومسرح بصرىٰ الشام الروماني

٢ ـ قام بحفريات أثرية في تربة قرية جوبر اليهودية ، وتربتي قرية طفس وخسفين الرومانيتين .

٣ ـ مثّل الحكومة السورية في مؤتمر الآثار الدولي ، الذي عقد سنة ١٩٣٧ بالقاهرة وكذلك في مؤتمر الآثار للدور العربية ، الذي عقد بدمشق سنة ١٩٤٧ بدعوة من جامعة الدول العربية .

ومن انتاجه العلمي

١ ـ دليل لمقتنيات دار الآثار الوطنية بدمشق طبع سنة ١٩٣٠

٢ ـ حقق ونشر كتاب « الدارس في تاريخ المدارس » للنعيمي في جزءين

وله أبحاث ومقالات ومحاضرات نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي وغيرها من المجلات العربية والأجنبية .

وكان يعد قبل سنوات من رحيله معجماً جغرافياً تاريخياً لسورية

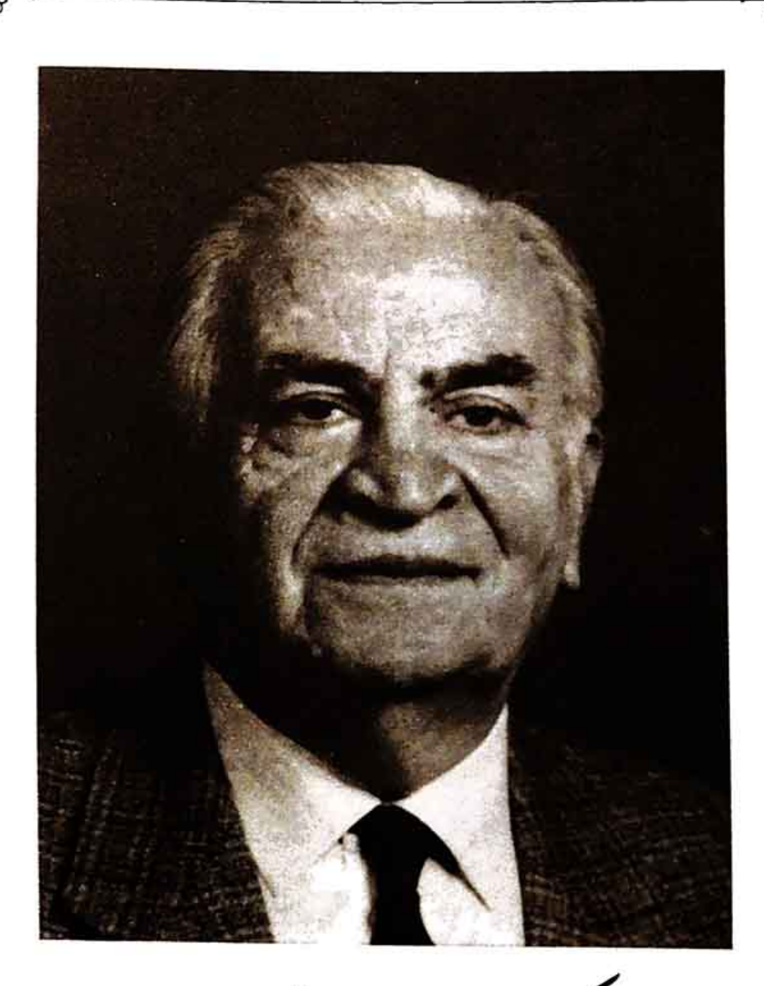
* * *

المراجع

١ ـ كتاب « من هم في العالم العربي ص١٦٤ و١٦٥ »

٢ ـ ترجمة حياته ، كما وردت في ملفّه الخاص بمجمع اللغة العربية

* * *



الدكتور إحسان النّص

كفاحُ العُمرِ مع اللغة والأدب

١٩٢١ - ....

واحد من علمائنا ومفكرينا البارزين

نشأ في بيت يعشق الكتاب ، ويهوىٰ العلم والفكر

كان في شتىٰ مراحل حياته من الأوائل والمتفوقين

درَّس اللغة والأدب في عدد من مدارس وجامعات الوطن العربي

وأسهم بتعريب الجامعة الجزائرية . بعد غربتها الطويلة

أشرف علىٰ الثمانين ، وأعطىٰ الكثير من جهده وعلمه ، وما زال يعطي بسخاء

كتبه الثمينة ، أعيدت طباعتها مرات ومرات ، وتتلقفها الأوساط الثقافية ، بكل الاهتمام والتقدير

يشغل منصب نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق . ويدير كثيراً من أعماله وشؤونه .

صفحة من حياته[١]

أبصر الطفل محمد إحسان النص النور بدمشق في العام ١٩٢١ ، وينتمي إلىٰ أسرة عرفت بحب العلم واقتناء الكتب وتلقىٰ علومه الابتدائية والثانوية في المدارس الدمشقية ونال شهادة البكالوريا عام ١٩٤٠ فرع الفلسفة ، وكان الأول علىٰ جميع طلاب سورية في ذلك العام

بدأت ميوله الأدبية تظهر ، عندما كان يتابع دراسته الثانوية ، إذ أصدر مجلة مكتوبة بخط اليد كذلك كان مولعاً بالأدبين العربي والفرنسي وطالع جلّ كتب التراث الأدبي ، كما طالع كثيراً من دواوين الشعر ، وحفظ الكثير

---

(١) عندما رغبنا إلىٰ الأخ الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص ، أن يوافينا بترجمة كاملة لحياته ، تفضل مشكوراً بتدوين قصة هذه الحياة ، بالتفاصيل الكاملة الدقيقة .
من هذه السيرة الحافلة بالنضال العلمي ، والجهاد الأدبي ، نقتبس هذه الصفحات المضيئة . ـ المؤلف ـ.

منه إلىٰ جانب ذلك عُني بالأدب الفرنسي ، فقرأ روائعه شعراً ونثراً كذلك نشر عدداً من المقالات في المجلات الطلابية ، وانتقل بعدها إلىٰ المجلات الأدبية الرفيعة ، فنشر في مجلة « الأمالي » اللبنانية قصيدة شعرية ، ونشر في « الثقافة » التي كان يصدرها أحمد أمين مقالاً آخر

عقب حصوله علىٰ الشهادة الثانوية عين رئيساً لديوان الترجمة في وزارة الإعاشة ، وبقي فيها سنة ونيّفاً وكان في الوقت نفسه يدرس الحقوق في جامعة دمشق

حين أعلنت وزارة التربية سنة ١٩٤٢ عن مسابقة لإيفاد طلاب للحصول علىٰ شهادة الليسانس ، لتعيينهم مدرسين في المدارس الثانوية ، تقدم إلىٰ المسابقة ، وكان الفائز الأول في الأدب العربي . وتم إيفاد الناجحين إلىٰ القاهرة ، بدلاً من فرنسا ، بسبب ظروف الحرب العالمية

كانت فرحة الأستاذ إحسان كبيرة ، فقد أتيح له في مصر أن يتتلمذ علىٰ أعلام الأدب والفكر ، وفي طليعتهم الدكتور طه حسين ، والأساتذة أحمد أمين وشوقي ضيف ، وأمين الخولي ، وسهير القلماوي ، وعبد الوهاب عزام ، ومصطفىٰ السقا ، وعبد اللطيف حمزة وقد حصل علىٰ الامتياز في امتحانات اللغة العربية طوال السنوات الأربع التي قضاها في مصر ونال في نهايتها شهادة الليسانس بامتياز ، مع مرتبة الشرف الأولىٰ عام ١٩٤٦

عاد إلىٰ دمشق بعد ذلك ، وأنفق عشر سنوات في التدريس ، قبل أن تتاح له فرصة متابعة دراسته العليا وكان قد شارك خلال هذه المرحلة بتأليف ثلاثة عشر كتاباً لطلاب المرحلة الثانوية في الأدب والنحو والبلاغة والعروض

أوفد عام ١٩٥٦ إلىٰ القاهرة من جديد ، فحصل علىٰ شهادة الماجستير عام ١٩٥٩ في موضوع « الخطابة في العصر الأموي » ثم حصل علىٰ الدكتوراه عام ١٩٦٢ في موضوع « العصبية القبلية وأثرها في الشعر

الأموي » ونال في الشهادتين درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأعلىٰ وكان المشرف علىٰ الرسالتين الدكتور شوقي ضيف

عاد إلىٰ دمشق عام ١٩٦٢ فعُيّن في بادئ الأمر مديراً لإحدىٰ المدارس الثانوية ولما تولىٰ الدكتور شاكر الفحام مهام وزارة التعليم العالي ، عُين مدرِّساً في كلية الآداب وقد مارس عمله هذا عدة سنوات ثم تمت إعارته إلىٰ جامعة الجزائر ، للإسهام بتعريب الجامعة الجزائرية . وقد لقي تعريب هذه الجامعة مقاومة شديدة من بعض « المتفرنسين » غير أن عملية التعريب سارت فيما بعد علىٰ أفضل وجه

وقضىٰ الدكتور النص بمهمته هذه ست سنوات ، ألقىٰ خلالها عدداً من المحاضرات ، ونشر طائفة من المقالات في المجلات الجزائرية

العودة إلىٰ دمشق

عاد الدكتور النص عام ١٩٧١ إلىٰ دمشق ، ليستأنف التدريس في جامعة دمشق . وحصل في العام ١٩٧٣ علىٰ درجة الاستاذية واستمر بالتدريس إلىٰ أوائل العام ١٩٧٨ . خلال ذلك ألف عدداً من الكتب الجامعية

عام ١٩٧٨ عُيّن عميداً لكلية الآداب . ولبث في هذا المنصب عاماً ونيفاً ثم طلب إعفاءه من العمل بسبب تعاقده مع جامعة الكويت .

ومارس الدكتور النص التدريس في الكويت من عام ١٩٧٩ لغاية العام ١٩٨٩

عام ١٩٧٩ انتخب الدكتور النص عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية ، غير أنه آثر إرجاء حفل الاستقبال الرسمي له في المجمع إلىٰ حين عودته من الكويت . وقد أقيم هذا الحفل بعد ذلك في الرابع عشر من حزيران ١٩٨٩

وفي سنة ١٩٩٣ انتخب الدكتور النص نائباً لرئيس المجمع . وما يزال يمارس عمله بنشاط في هذا المنصب كذلك يقوم برئاسة قسم الحضارة

العربية في الموسوعة العربية

وفي سنة ١٩٩٤ انتخب كذلك عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة

مؤلفاته

١ ـ الخطابة في العصر الأموي ـ رسالة الماجستير وقد طبع في مصر مرتان

٢ ـ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ـ رسالة الدكتوراه نشرته دار اليقظة بدمشق عام ١٩٩٥ ودار الفكر عام ١٩٧٧

٣ ـ حسان بن ثابت ـ حياته وشعره نشرته دار الفكر بدمشق عام ١٩٦٥ ثم أعيد طبعه ثلاث مرات

٤ ـ زهير بن أبي سلمىٰ ـ نشرته دار الفكر ـ وطبع مرتين

٥ ـ الشعر السياسي في العصر الأموي ـ مذكرات لطلاب قسم اللغة العربية بجامعة دمشق ـ طبعتها دار الفكر

٦ ـ الشعر الغزلي في العصر الأموي ـ مذكرات لطلبة اللغة العربية بكلية الآداب ـ دار الفكر

٧ ـ اختيارات من كتاب الأغاني في ستة أجزاء ـ نشرتها مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٠ في بيروت وطبعت عدة مرات

٨ ـ قبيلة إياد منذ العصر الجاهلي حتىٰ نهاية العصر الأموي ـ دراسة مفصلة ـ نشرت في حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت عام ١٩٨٦

٩ ـ العباس بن الأحنف ـ سيرته وشعره .

١٠ ـ قبائل العرب وأعلامها ـ جزءان كبيران ـ قيد الطبع

المقالات والبحوث

نكتفي بالإشارة إلىٰ أهمها

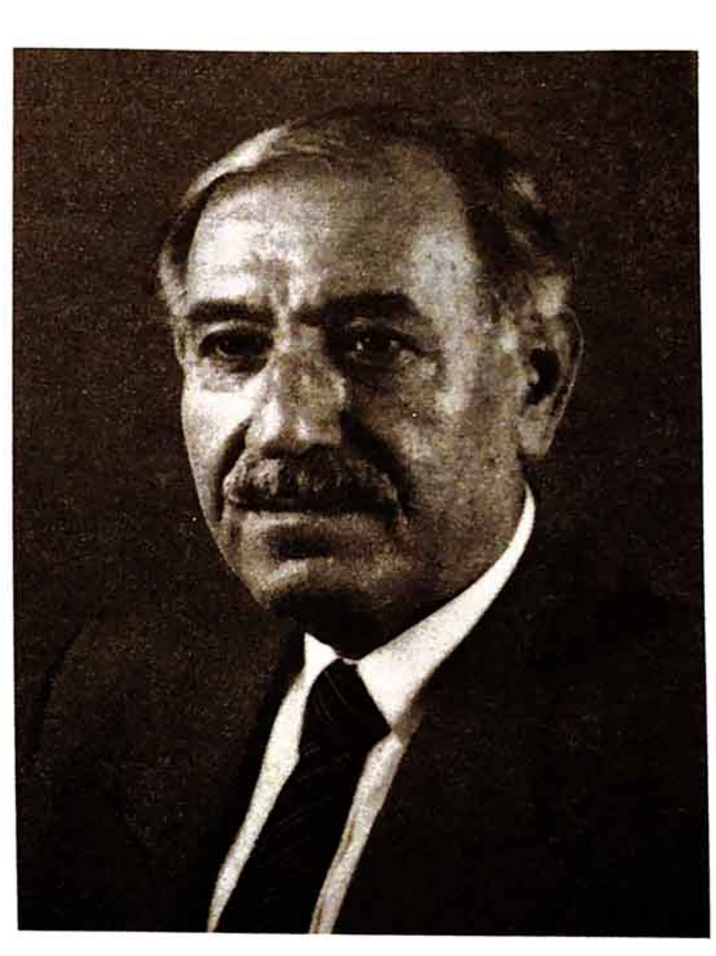
١ ـ الوتر الحزين في شعر نازك الملائكة ـ نشر في الكتاب التذكاري الذي أصدرته كلية الآداب بجامعة الكويت .

٢ ـ نموذج في تحقيق المرويات ـ نشر في الكتاب التذكاري الذي أعدته طائفة من أصدقاء الأستاذ محمود محمد شاكر عضو مجمع القاهرة بمناسبة بلوغه السبعين

٣ ـ سلسلة من البحوث في موضوع « كتب الأنساب العربية » ـ نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في أحد عشر عدداً بدءاً من ٩٨٩

٤ ـ دراسة حول الحسن بن أحمد الهمذاني ـ ألقيت في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ونشرت في مجلة المجمع

* * *



د. مسعود بوبو

مِنْ قريَةٍ بَعيدَةٍ.. إلى عَالَمٍ كَبِير

١٩٣٨ ـ ١٩٩٩

بدأ حياته من الصفر من قرية بعيدة ، وأسرة فقيرة

غير أن ملامح الذكاء ، والرغبة بالكفاح ، كانتا سلاحه الذي لا يقهر

خلال فترة من الزمن قصيرة أخذ يصعد

وظل يواصل سعيه وكفاحه إلىٰ أن وصل

وبات عالماً من العلماء

حمل الشهادات العليا . . . وصار عضواً بين الفاحصين لنيلها

وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية

كتب . . وحاضر . . وتحدث وحضر المؤتمرات

وأثبت وجوداً مميزاً بين أهل العلم

وأصيب بالمرض ، وهو في ذروة صعوده وقمة عطائه

ولم يمهله المرض فرحل

وبكته العيون ، ومحافل الأدب ، والثقافة ، واللغة .

ويبقىٰ مسعود بوبو ، مثلًا رفيعاً للإنسان ، العصامي ، الوطني ، المكافح

نشأته وحياته

أبصر مسعود بن سعيد بوبو النور في قرية حبْكة التابعة لرأس البسيط في مدينة اللاذقية وذلك في شهر آب من عام ١٩٣٨ وتنقل ـ كما يروي في ترجمته لقصة حياته ـ في عدة قرىٰ ، إلىٰ أن حصل علىٰ الشهادة الابتدائية في قرية مشقيتا عام ١٩٥١ أقام بعد ذلك مع أسرته في اللاذقية ، وأكمل دراسته الاعدادية فيها . ثم حصل علىٰ الشهادة الثانوية عام ١٩٦٣

في العام نفسه دخل الجامعة السورية ، قسم اللغة العربية ، وتخرج منها في العام الدراسي ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨

في العام ١٩٦٩ عُيّن مدرساً للغة العربية في ثانويات اللاذقية ثم عُين

معيداً في قسم اللغة العربية بالجامعة وأوفد بعدها إلىٰ فرنسا للدراسة والحصول علىٰ الدكتوراه

في عام ١٩٧٠ جرىٰ تحويل إيفاده إلىٰ جامعة الاسكندرية في مصر ، فحصل علىٰ الماجستير في علوم اللغة العربية ، بعد أن تقدم برسالة ، تحمل عنوان « اللغة في شعر السَّريِّ الرفَّاء » عام ١٩٧٦

وفي عام ١٩٨٠ فاز بشهادة الدكتوراه بعلوم اللغة من الجامعة نفسها ، عن رسالة بعنوان : « أثر الدخيل علىٰ العربية الفصحىٰ في عصر الاحتجاج »

في العام ١٩٨٠ عُين مدرساً لفقه اللغة العربية وعلمها ، ولمادة المصادر اللغوية والأدبية في جامعة دمشق .

وفي عام ١٩٨٣ استعارته جامعة صنعاء في اليمن لتدريس فقه اللغة العربية وعلمها ، ومادة المصادر اللغوية والأدبية في التراث العربي .

وفي عام ١٩٨٥ رُفّع إلىٰ رتبة أستاذ مساعد للعلوم اللغوية

وفي نهاية العام الدراسي ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ انتهت اعارته لجامعة صنعاء ، فعاد إلىٰ دمشق للتدريس في جامعتها

وفي عام ١٩٩٠ رُفع إلىٰ مرتبة أستاذ للعلوم اللغوية

وفي عام ١٩٩٣ عُين رئيساً لقسم اللغة العربية

وفي الشهر التاسع من عام ١٩٩٣ كلف بمهمة المدير العام المساعد لهيئة الموسوعة العربية .

وكان الدكتور مسعود قد انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية في الثالث عشر من آذار عام ١٩٩٧ ، ومارس نشاطه في المجمع بشكل ملموس

وهو يتقن اللغتين الفرنسية والانكليزية ، ويلم بعض الإلمام بالفارسية والسريانية .

وله ثلاثة أبناء ، أكبرهم المهندس وجد

رحل الدكتور بوبو إلىٰ جوار ربه ، في تشرين الأول من عام ١٩٩٩ ، وهو في ذروة نشاطه ، وقمة عطائه

وأقيم له حفل تأبين كبير في مكتبة الأسد ، تكلم فيه عدد من رجال الفكر ، وختم الحفل بكلمة شكر رقيقة ، ألقاها ولده المهندس وجد بوبو

بعض صفاته وأخلاقه

كان مسعود بوبو عالماً بين العلماء ، ومثقفاً كبيراً بين المثقفين ، وأديباً مرموقاً بين الأدباء

كان خلوقاً ، مهذباً ، رقيق الحاشية ، حريصاً علىٰ محبة الآخرين وخدمتهم بإخلاص

كان جم التواضع ، محباً لعمله ، حريصاً علىٰ القيام به ، علىٰ الوجه الأكمل ، مهما كلفه ذلك من جهد ، ودون أن ينتظر أي أجر أو مكافأة

لم يكن له من غاية سوىٰ نشر العلم والمعرفة ، ووسيلته إليهما العمل المتواصل ، الذي لا يعرف الراحة ، أو التراخي في أداء الواجب

بدأ مسعود رحلة حياته من قرية صغيرة ، تربض بين أحراج الصنوبر ، ومن أسرة فقيرة ، تبحث عن قوتها يوماً بعد يوم . من هذه القرية المتواضعة علىٰ الساحل ، ومن هذه الأسرة الفقيرة ، انطلق مسعود يبني مجده العلمي ، ويعطي المثل الرفيع للآخرين ، بضرورة السعي ، والكفاح ، والعمل من أجل الوصول بالوطن إلىٰ ذروة العزة والمجد والكرامة

مؤلفاته وأبحاثه

ترك الدكتور مسعود بوبو المؤلفات التالية

١ ـ أثر الدخيل علىٰ العربية الفصحىٰ في عصر الاحتجاج ـ وهو رسالته

لنيل الدكتوراه ـ وقد صدر عن وزارة الثقافة عام ١٩٨٢

٢ ـ نافذة علىٰ اللغة ـ صدر عن دار البعث عام ١٩٨٣

٣ ـ دراسات في اللغة ـ صدر عن جامعة دمشق عام ١٩٨٤

٤ ـ أبحاث في اللغة والأدب ـ عن دار شمأل عام ١٩٩٤

٥ ـ في فقه اللغة العربية ـ منشورات جامعة دمشق عام ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ ـ وهو مقرر لطلاب السنة الرابعة من قسم اللغة العربية

أما الأبحاث التي قدمها ، والنشاطات الثقافية التي قام بها فهي علىٰ النحو التالي

١ ـ عشرات المقالات والقصص والخواطر في المجال الأدبي

٢ ـ عشرات الأبحاث والمحاضرات في المجال اللغوي الخالص

٣ ـ خمسة أبحاث لغوية وتاريخية

٤ ـ تقويم نتاج علمي للنشر أو للتعيين في الجامعات أو للترقية إلىٰ مرتبتي الأستاذ المساعد والأستاذ داخل الجامعة السورية أو خارجها

٥ ـ المشاركة بمجموعة من الندوات والمؤتمرات العلمية اللغوية ، والأدبية

٦ ـ مناقشة وإشراف علىٰ رسائل بلغ عددها حتىٰ نهاية عام ١٩٩٥ سبعاً وعشرين رسالة ماجستير ، وعشرين رسالة دكتوراه .

محاضراته

ألقىٰ الدكتور مسعود بوبو عدداً كبيراً من المحاضرات في دمشق وبعض المدن السورية والأقطار العربية وفيما يلي نشير إلىٰ عناوين بعض هذه المحاضرات :

١ ـ المشكلة الكردية في شمال العراق ـ عام ١٩٦٩

٢ ـ وقفة مع الدخيل اللغوي في العربية ـ ١٩٨٥

٣ ـ اللغة والكلام بين إخوان الصفا والدرس اللغوي الحديث ـ ١٩٨٨

٤ ـ النشاط اللغوي عند العرب في عصر النهضة ـ ١٩٨٩

٥ ـ العربية وعلوم العصر ـ ١٩٨٩

٦ ـ تأملات في لغة المرحوم محمد أحمد دهمان ـ ١٩٩٢

٧ ـ أثر اللغة العربية في التوجيه القومي ـ ١٩٩٢

٨ ـ صور من حياة أهل العلم ـ ١٩٩٢

٩ ـ الإبداع والسلطة في التراث العربي ـ ١٩٩٣

١٠ ـ تدريس النحو والصرف في الجامعة ـ ١٩٩٤

١١ ـ العربية بين الأصالة والتجديد ـ ١٩٩٥

١٢ ـ دور الأدب في حياة العرب ـ ١٩٩٤

هذه المحاضرات نشر قسم منها في بعض المجلات العربية ، والقسم الآخر ما يزال بين أوراق الدكتور مسعود

* * *

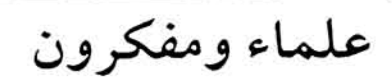
المراجع

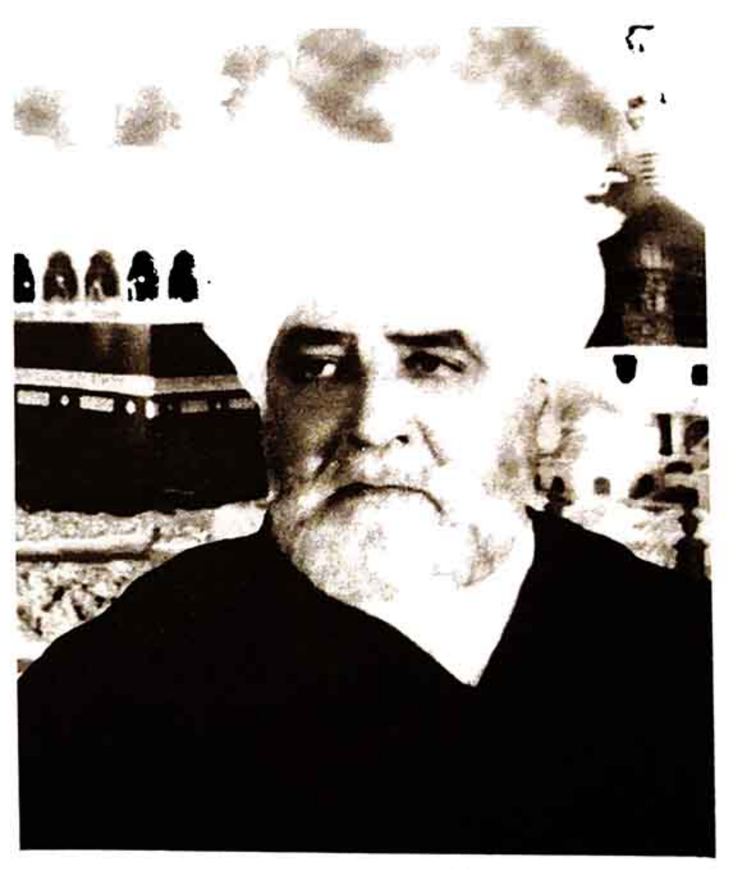
١ ـ ترجمة مخطوطة لحياة الدكتور مسعود بوبو كتبها بنفسه .

٢ ـ بعض الكلمات التي ألقيت في حفل تأبينه .

٣ ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة

* * *





محمّد المكّي الكتّاني

العالم المجاهد.. والسياسي الوطني

١٨٩٤ ـ ١٩٧٣

كان عَلَماً خفاقاً ، في العلم ، والجهاد ، والوطنية

فيه نفحة من أخلاق الأنبياء وطهرهم ، وكثير من صفاتهم

نذر حياته ، وعلمه ، وماله ، لخدمة الله ، والدين ، والوطن

تتلمذ علىٰ يديه كبار العلماء والفقهاء والمحدثين

كان محط أنظار الزعماء والسياسيين الكل يخطب وده ، ويلتمس رضاه وتأييده

حارب الاستعمار بضراوة ، وأسس أول فرقة فدائية لنصرة القضية الفلسطينية .

قام بدور سياسي كبير ، قبل الاستقلال وبعده .

أسهم بتأسيس رابطة العلماء في سورية ، عام ١٩٤٥ وهي الرابطة التي ضمت أكثر علماء الشريعة الإسلامية في المحافظات السورية .

دعا إلىٰ تأسيس رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ، وكان عضواً مؤسساً في مجلسها التأسيسي .

زار عدداً من ملوك ورؤساء الدول العربية ، وكان موضع احترامهم وترحيبهم .

عندما زار المغرب بدعوة من العاهل المغربي ، استُقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً في كل مكان .

اعتزل العمل السياسي في أوائل الستينيات ، وصرف جهده إلىٰ العلم والتدريس

ورحل إلىٰ جوار ربه في العام ١٩٧٣ ، وشارك بتشييعه أكثر من نصف مليون مواطن ، يتقدمهم الوزراء ، والعلماء ، والسفراء وأقيمت له مجالس العزاء في دمشق ، والرباط ، ومصر ، والحجاز .

قصة حياته وجهاده

أبصر الطفل محمد المكي الكتاني النور في مدينة فاس المغربية عام ١٨٩٤ الموافق للعام الهجري ١٣١٢ وهو ابن الإمام محمد بن جعفر بن إدريس بن الطائع بن إدريس الكتاني ويننتهي نسبه إلىٰ الإمام المولىٰ إدريس الأكبر فاتح المغرب ، وأحد أحفاد الحسن بن علي كرم الله وجهه

نشأ في بيت علم وسيادة وكرم . وقد ألبسته العناية الإلَهية لباس التقوىٰ ، ومحبة العلم والعلماء منذ نعومة أظفاره . فقد بدأ دراسته بحفظ القرآن الكريم ، وأتم حفظه قبل أن يتجاوز الرابعة عشرة . وكان يتردد علىٰ مجالس العلم والعلماء ، إلىٰ أن التحق بجامعة القرويين ، وهي من أقدم وأعرق الجامعات الإسلامية في العالم فقرأ فيها العلوم الإسلامية من فقه ولغة وحديث وعلوم القرآن والأصول والتصوف والفقيه الصوفي الأشهر حجة الإسلام محمد بن جعفر الكتاني ، وصاحب التآليف الشهيرة وأخذ العلوم عن غيره من علماء المغرب أمثال الشيخ محمد مصطفىٰ ماء العينين الشنقيطي والشيخ أحمد الحنبلي وغيرهم

هاجر السيد الكتاني إلىٰ المدينة المنورة مع والده وسائر أفراد الأسرة إلىٰ المدينة المنورة ، فوصلوها بعد رحلة برية وبحرية شاقة ، مروراً بمصر الأزهر ، وأقاموا فيها شهوراً عديدة اغتنمها السيد المكي للدراسة علىٰ يد كبار علماء الأزهر والأخذ عنهم ثم تابع تلقي علومه ، علىٰ يد أعلام الحجاز ، ومنهم الشيوخ عمر حمدان ، وعلي المالكي وعبد القادر الشلبي وغيرهم . وكان خلال ذلك يتنقل بين المدينة ومكة المكرمة

الرحيل إلىٰ دمشق

خلال الحرب العالمية الأولىٰ ، رحل السيد المكي مع والده من المدينة المنورة إلىٰ دمشق وتابع تلقي علومه علىٰ أيدي كبار علمائها ، وفي مقدمتهم المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني وقد أخذ عنه علمي الدراية والرواية ، وقسطاً من العلوم الكونية كما أخذ عن الشيخين أمين سويد وتوفيق الأيوبي أصول الفقه والفرائض والتصوف

مع تعدد الرحلات والدروس واللقاءات مع كبار علماء البلاد الإسلامية ، في المغرب ، ومصر ، والحجاز ، والشام ، بهمة عالية ، وإصرار لا مثيل له علىٰ التعلم والتعليم ، أصبح السيد المكي علماً من أعلام العلم والجهاد في الفقه ، والحديث ، والأصول ، والنحو والبيان ، الأمر الذي أهّله لتبوء منصب مفتي المالكية في سورية . وقد وهبه الله فهماً خارقاً لكلام أقطاب الصوفية ، وقدرة قلَّ نظيرها في شرح هذا الكلام ، فجعله ذلك مرجعاً مهماً لطلبة العلم والعلماء ونشاطاتهم واجتماعاتهم ، وجهادهم ضد المستعمرين ، فتابع دروسه ونشاطه العلمي والاصلاحي واستقطاب حركات الشباب المسلمين ، ووجههم الوجهة الدينية الصحيحة ، وأسس لهذا الغرض عدداً من الجمعيات والمنتديات الفكرية ، وهدفها الاصلاح الديني ، ومكافحة قوىٰ الاستعمار والتخلف ، وأصبح منزله قبلة للمواطنين المناضلين والعلماء والمثقفين المخلصين . واستطاع بإخلاصه وتفانيه في خدمة القضايا الدينية والوطنية ، أن يعزز مكانة العلماء ، ويزيد في تأثيرهم الفكري والاجتماعي والسياسي ، الأمر الذي جعله محط أنظار زعماء الأحزاب والقوىٰ السياسية . وكان أكثرهم ينشد دعمه ورضاه ، لما يتمتع به من نفوذ واسع في الأوساط الوطنية والشعبية .

جهاد ضد الاستعمار

أسهم العلامة الكتاني إسهاماً فعلياً في الجهاد ضد القوات الفرنسية الغازية ، داعياً إلىٰ الجهاد ، ومشاركاً فيه ، مع إخوانه المجاهدين أمثال محمد الأشمر وحسن الخراط وغيرهما من رجال الثورة السورية

كذلك شارك بإنشاء فرقة فدائية فلسطينية ، أطلق عليها اسم « شباب فلسطين » من بعض تلاميذه وأنصاره ، الذين تكاثروا في بلاد الشام من فلسطينيين وسوريين وأردنيين ، وذلك منذ عام ١٩٣٦ وقد قاموا بأعمال جريئة ضد القوات البريطانية والصهيونية في فلسطين المحتلة واستمر هذا النضال سنوات عديدة وكان العلامة الكتاني يدرك إدراكاً كاملاً خطورة الهجمة الصهيونية ، علىٰ حياة ومستقبل الأمة العربية والإسلامية ، الأمر الذي دعاه إلىٰ مضاعفة دعمه للمجاهدين في فلسطين مادياً ومعنوياً

رئيس رابطة العلماء

بعد استقلال سورية أسهم العلامة الكتاني بتأسيس رابطة العلماء وقد اختير ليكون فيها نائباً للرئيس بعض الوقت ، ثم رئيساً لها حتىٰ انتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ عام ١٩٧٣ هذه الرابطة كانت تضم في عضويتها خيرة العلماء السوريين كانت أكبر وأبرز التجمعات السياسية والفكرية تأثيراً في الأحداث السياسية والاجتماعية ، ولا سيما في فترات الانتخابات النيابية

كان المرشحون الذين تؤيدهم الرابطة ، الأوفر حظاً في المقاعد النيابية وهذا جعل الصحافة السورية ، عقب أول انتخابات ديمقراطية عام ١٩٤٧ إلىٰ تسميته « صاحب السبحة التي ربحت الانتخابات »

كان للعلامة الوطني المجاهد الشيخ الكتاني دور بارز في الحياة السياسية السورية . بعد الاستقلال ، وحتىٰ أوائل الستينيات كان الرؤساء والزعماء والوزراء يخطبون وده ، ويلتمسون دعمه ورضاه

وقد شارك فضيلته بالمقاومة الشعبية ، التي أنشئت في سورية ، خلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، ودعا أتباعه وتلاميذه إلى الانخراط في صفوفها ، ودعم بكل ما أوتي من قوة قيام الوحدة السورية المصرية ، حيث كان قد سافر للقاهرة على رأس وفد من علماء الرابطة بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر أواخر عام ١٩٥٧ لمناقشة أمر الوحدة التي كانت مطلباً شعبياً وقد رحب عبد الناصر بوفد العلماء أجمل ترحيب وقدم لهم العهود والمواثيق على إقامة دولة عربية إسلامية ديمقراطية ، تعيد أمجاد خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي . فكان سروره وأعضاء وفد العلماء عظيماً وعاد إلى دمشق داعياً أنصاره من النواب والوزراء والوجهاء وعامة أفراد الشعب لتأييد الوحدة وقد أكد ذلك في بيان أصدرته رابطة العلماء خصيصاً لهذا الأمر وتحققت الوحدة وهي حلم كل عربي مخلص لعروبته وإسلامه إلا أن عبد الناصر ، بدلاً من الاعتماد على الهيئات والأحزاب ذات الشعبية العريضة ، وعوضاً عن إقامة دولة المؤسسات الديمقراطية التي تعتمد التعددية الحزبية ، سارع إلى إلغاء الأحزاب وكم أفواه المفكرين والمصلحين ، وآثر تقريب رجال المخابرات وحكَّمهم برقاب العباد ، مصادرين للحريات العامة ، فخابت آمال معظم الوحدويين الذين أحبوه وسلموه مقاليد الحكم . . . مما ساهم في انفصام عرى الوحدة وانتصار تيار الانفصال ورغم انشغاله بكثير من مشاكل العرب والمسلمين ، فإن ذلك لم يحل بينه وبين اهتمامه بقضايا المغرب العربي . كانت داره ملتقى المجاهدين والثوار والزعماء والطلاب المغاربة على اختلاف انتماءاتهم واتجاهاتهم السياسية وهذا مما دعاه إلى تأسيس جبهة تحرير المغرب العربي ، لدعم جهاد إخوانه المغاربة ، وتقديم العون المادي والسياسي والأدبي إلى المجاهدين المغربيين في تونس والجزائر والمغرب . كان مقره يغص بالوافدين من علماء وزعماء المجاهدين في هذه البلاد . وقد استضاف غير مرة الأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي ، والزعيم علَّال

الفاسي ، والحسن الوزاني من المغرب ، وأحمد بن بيلا وعباس فرحات ، وهواري بومدين والشيخ البشير الإبراهيمي من الجزائر ، والحبيب بورقيبه ، والشيخ بن عاشور وغيرهم من تونس ، والمجاهد العلامة السيد أحمد السنوسي ، والشيخ بشير السعداوي من ليبيا خلال فترة كفاحهم الوطني من أجل الاستقلال وأقام لهم المهرجانات الترحيبية لدعم حركاتهم الوطنية سياسياً ومالياً

كان منزل العلامة الكتاني ، ولا يزال ، منزل المغاربة في المشرق ، طلبة علم وزائرين وقد أكد هذا الملك الحسن الثاني ، حين قال له « إنني اعتبركم السفير الدائم للمغرب في المشرق » ، وذلك خلال زيارة فضيلته للمغرب عام ١٩٦٢ ، بدعوة من العاهل المغربي

رابطة العالم الإسلامي

دعا العلامة الكتاني إلىٰ تأسيس « رابطة العالم الإسلامي » في مكة المكرمة وكان عضواً مؤسساً في مجلسها التأسيسي ، وهي الرابطة التي جمعت كبار علماء العالم الإسلامي ومن أهم أهدافها العمل علىٰ تضامن الشعوب والدول الإسلامية ، بكافة الوسائل والطرق ، ومنها انبثق المجلس الفقهي الإسلامي الأعلىٰ ، المكلف بدراسة المشاكل المستجدة في العالم الإسلامي ، والعمل علىٰ إيجاد الفتاوىٰ والحلول المناسبة لها

زياراته للملوك والرؤساء

زار العلامة الكتاني عدداً من ملوك ورؤساء وعلماء الدول العربية والإسلامية ، علىٰ رأس وفود من رابطة العلماء ، ناصحاً ومرشداً ، مهنئاً ومعزياً . نذكر منهم الملك عبد العزيز آل سعود ، والرئيس جمال عبد الناصر ، والملك حسين عاهل الأردن ، والملك سعود ، والملك فيصل ، وأمير الكويت ، والرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ، والرئيس

الجزائري أحمد بن بيلا ، والرئيس هواري بومدين كما لبىٰ دعوة الملك الحسن الثاني لزيارة المغرب عام ١٩٦٢ ، حيث استقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً ، في كافة المدن المغربية وقد استقبله الملك المغربي عدة مرات ، وقال له في إحداها « نحن نعلم المكانة الفريدة ، التي تتمتعون بها ، في قلب كل عربي ومسلم وليس أدل علىٰ ذلك من أن الحكومات المتعاقبة علىٰ الحكم في سورية ، تطلب نصحكم وإرشادكم ، وإنني اعتبركم سفير المغرب الدائم في المشرق العربي »

وقد حث علماء المغرب علىٰ تأسيس رابطة للعلماء فيها ولم يغادر المغرب ، حتىٰ جمع أكثر علمائه تحت رايتها ، إثر مؤتمر عقدوه في مدينة فاس ، بمشاركته التوقيعية والفعالة من أجل تحقيق هذا الغرض

وفي أوائل الستينيات أسهم مع زعماء القوىٰ السياسية والأحزاب الوطنية السورية بتأسيس التجمع الوطني « الميثاق » ، الذي عول علىٰ وحدة كلمة الأحزاب والقوىٰ السياسية ، ورصّ صفوف المواطنين من أجل الوقوف في وجه القوىٰ الاستعمارية والصهيونية . وقد أعد هذا التجمع ميثاقاً للعمل الوطني الديمقراطي خلال عدة أشهر من العمل الدؤوب ، مما دعا الصحافة العربية لاعتبارهم أهم تجمع وطني في تاريخ سورية الحديث . ومن أشهر الشخصيات التي شاركت بهذا التجمع ، بالإضافة لسماحة الشيخ الكتاني الرئيس شكري القوتلي ورؤساء الوزراء صبري العسلي ومعروف الدواليبي وخالد العظم ، وعدد كبير من الوزراء والعلماء والنواب والوجهاء ورجال الأعمال . ثم تفرغ بعد ذلك للعمل العلمي والتدريس والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ .

ولم يقعده مرضه عن المشاركة المادية والوجدانية ، في معركة

رمضان ، التي كانت يوماً أسود في تاريخ الدولة اليهودية ، فقد قام ، تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه ، باستضافة كبار ضباط وأفراد الفرقة المغربية ، التي شاركت بالحرب ، وزود أفرادها بإرشاداته ودعواته لهم بالنصر ثم قام بزيارة الجرحىٰ منهم ، ومن إخوانهم السوريين ، الذين سطروا بدمائهم صفحات ناصعة ، وقدم لهم الهدايا

في رحاب الله

بعد هذه المعارك المجيدة بأسابيع ، انتقل العلامة ، الكبير والمجاهد ، والوطني ، والسياسي الحكيم ، إلىٰ الرفيق الأعلىٰ وقد شيعته الجماهير المؤمنة ، ولا يقل عددها عن نصف مليون ، يتقدمهم الزعماء ، والعلماء ، والوزراء ، والسفراء ، والوجهاء وظلت المآذن السورية والمغربية تبث القرآن الكريم ، طوال ذلك اليوم علىٰ روحه الطاهرة وأقيمت مجالس العزاء والتأبين في كل من دمشق والرباط وجدة والمدينة المنورة .

هذا وقد ترك العلامة المجاهد سبعة من الأبناء الذكور ، وعدداً لا يحصىٰ من التلاميذ ، والاتباع ، والأنصار ، في طليعتهم كبار علماء الشام ، ومصر ، والحجاز ، والمغرب العربي .

ومن أنجاله الكرام الأستاذ الفاتح ، والأستاذ تاج الدين ، والأستاذ محمد عمر ، والمهندس محمد خالد ، والدكتور المهندس عبد القادر ، والدكتور الطبيب عبد الله ، والمهندس محمد علي ولكل من هؤلاء الأنجال الطيبين الكرام ، اهتماماته العربية والإسلامية ، ونشاطاته العلمية والفكرية والاجتماعية . بالإضافة إلىٰ أعماله ومشاغله الخاصة

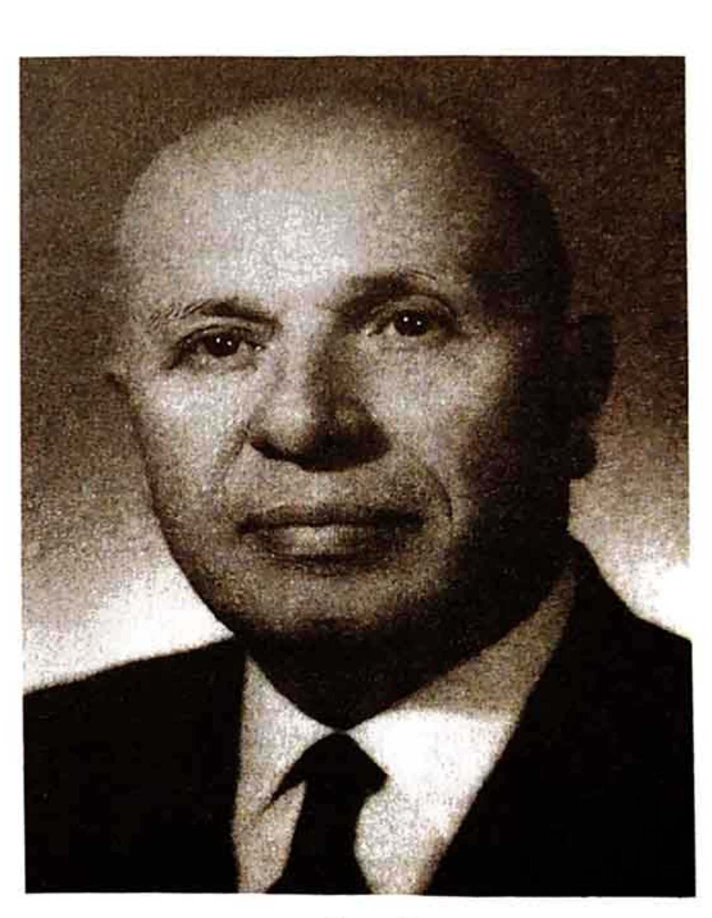
المراجع

١ ـ تاريخ علماء دمشق ـ مطيع الحافظ ونزار أباظة

٢ ـ غرر الشام ـ للشيخ عبد العزيز الخطيب

٣ ـ معلومات متفرقة من بعض تلاميذه وأتباعه

* * *



د. عِزّة مُريدن

دَرَّسَ الطِبَّ أربعينَ عامًا

١٩٠٨ - ...

كان من أشهر وأبرز الأطباء السوريين

وكان من المتفوقين في مراحل دراسته

عُرف بذكائه ، وألمعيته ، وإنسانيته

فتح قلبه للناس فأحبوه ، كما أحبهم

درّس الطب في دمشق نحو أربعين عاماً

وتخرجت على يديه نخبة من خيرة الأطباء

كان الدكتور أحمد منيف العائذي بين مدرِّسيه الذين أعجبوا بذكائه ، وأخلاقه ، وإنسانيته

فجعله صهراً له ، وزوجاً لكريمته الغالية

كتب الدكتور مريدن ، وحاضر في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وفي باريس ولندن ، وجنيف ، وواشنطن

وبات معروفاً على المستوى العالمي

ألف عدداً من كتب الطب ، والأدب ، والاجتماع

الدكتور عزة مريدن ، شخصية يعتز بها الوطن

سيرة حياته

أبصر الطفل عزة مريدن النور بدمشق في العام ١٩٠٨

وهو ابن تاجر مال القبان المرحوم أمين وكان كذلك صاحب معمل لصنع الحلاوة ، وطالب علم ، يحرص على حضور دروس كبار العلماء في جامع بني أمية الكبير

وعزة ، واحد من ثمانية إخوة ، أربعة من الذكور هم بالإضافة إليه عبدالله ، وأنور ، والدكتور موفق ، أستاذ الجراحة العظمية الكبير في كلية

الطب بجامعة دمشق   أما أخواته البنات ، فمنهن المرحومة الدكتورة عزيزة مريدن ، رئيسة القسم العربي في كلية الآداب بجامعة دمشق

تلقى عزة بعض دروسه الأولية في بيت « الخجا » وهي المرأة العجوز ، التي كانت تمارس في بيتها الشعبي المتواضع ، تعليم أطفال الحي بعض آيات الذكر الحكيم ، ومبادئ القراءة والكتابة والحساب   وما لبث والده أن نقله إلى المدرسة العلمية الوطنية ، التي تحولت إلى كلية ، والتي كان قد افتتحها المربي الكبير الدكتور أحمد منيف العائدي

تلقى عزة تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في الكلية العلمية الوطنية . وكان خلال هذه المراحل في مقدمة رفاقه تفوقاً وذكاءً . وكان كل سنة ينجح إلى الصف التالي بدرجة جيد جداً   ولفت ذكاؤه وتقدمه انتباه عميد الكلية الدكتور العائدي ، فأمر بترفيعه ترفيعاً استثنائياً إلى الصف الخامس . وقد كسب بذلك سنة إضافية ، ونال شهادة الدراسة الثانوية وهو دون السادسة عشرة من عمره ، الأمر الذي اضطره إلى تكبير سنه عاماً واحداً ، كي يحق له الانتساب إلى المعهد الطبي العربي في كلية الطب

كان الطالب عزة من المولعين بالأدب العربي   وكان يحفظ في صباه أكثر من أربعة آلاف بيت من الشعر

وفي المعهد الطبي العربي ، كان من المتفوقين . وكان في معظم الأيام الأول بين زملائه .

وفي نهاية السنة الخامسة (السادسة بعد التحضيري) تم الإعلان عن مسابقة لتعيين الأطباء المعاودين ، الذين يقومون بعمل الأطباء في المستشفى الوطني ، ويتدربون خلال تنقلهم من شعبة إلى أخرى ،

كالداخلية ، والجراحة ، والنسائية وغيرها فشارك الدكتور عزة بالمسابقة وكان الناجح الأول ، وقضى في عمله هذا أكثر من سنتين

ومرة ثانية ، بعد سنتين ، أُعلن عن مسابقة لوظيفة مساعد أستاذ التشريح ، فشارك بالمسابقة مع أربعة من الطلاب ، وكان الناجح الوحيد كذلك .

أمضى الدكتور مريدن في قسم التشريح ثلاث سنوات ثم وقع عليه الاختيار للاختصاص في باريس ، فيما جدَّ على تشخيص الأمراض الباطنية وأساليب معالجتها فرحل إلى باريس في خريف العام ١٩٣٥ ، وأمضى فيها ثلاث سنوات ، متنقلاً بين المشافي التعليمية والمحاضرات النظرية والعملية .

لدى عودته إلى دمشق ، جرى ترفيعه إلى رتبة أستاذ مساعد وكُلِّف بإلقاء بعض الدروس النظرية على الطلاب

في هذه المرحلة افتتح الدكتور عزة مريدن عيادة خاصة به ، لمعالجة الأمراض الداخلية . وكان على الدوام يدعى لمعالجة عائلات بعض الأساتذة ، وبينها عائلة أستاذه الدكتور أحمد منيف العائدي

الزواج الميمون

في هذه المرحلة ، بدأ الدكتور عزة يفكر جدياً بالزواج ، ولاسيما بعد أن أكمل دراسته الجامعية واختصاصه ، وافتتح عيادته .

كانت قد نشأت بينه وبين أسرة أستاذه الدكتور العائدي صداقة ومودة ، من خلال زياراته المتكررة ، وبما يتمتع به أفرادها من خلق رفيع ، وثقافة واسعة ، وتمسك بأوامر الدين ، ولاسيما كريمة الدكتور العائدي الآنسة

أميمة ، الأمر الذي شجعه على التقدم لطلب يدها

وتمت الموافقة على طلب الزواج ، لما كان معروفاً عن الدكتور عزة من ذكاء وقاد ، وخلق سليم ، وتفوق كبير في ميدان الطب ، ومكانة في المجتمع

وتم الزواج حسب التقاليد والأعراف

ورزق الدكتور عزة والسيدة الفاضلة قرينته بثلاثة أبناء هم أمين ، ونجوى وطريف

وقد تخرج أمين مهندساً من جامعة السوربون بباريس ، ويحمل شهادة في العلوم السياسية

وتخرجت نجوى طبيبة من جامعة دمشق ثم تزوجت من الدكتور أحمد خلدون بيرقدار ويعيشان في الولايات المتحدة .

وتخرج طريف طبيباً من جامعة دمشق ، وتزوج من الآنسة لينا كحال

السيدة أميمة

ويتحدث الدكتور عزة عن زوجته السيدة أميمة ، فيقول إنها مولعة بالأعمال الخيرية والإنسانية . وهي عضو بارز بجمعية نقطة الحليب ، التي مضى على تأسيسها أكثر من أربعين عاماً . والجمعية تقوم برعاية الأطفال الرضع ، وتقديم الحليب المعقم لهم ومعالجتهم من الأمراض الطارئة

وهي كذلك عضو فعال في جمعية الإسعاف العام ، التي تقوم بكثير من الأعمال الطبية وتقديم الأدوية المجانية . وقد انتُخبت بالإجماع رئيسة للجمعيه ، التي قامت بمشروع كبير رائد ، هو بناء « دار السعادة » للمسنين والمسنات ، ومقرها في منطقة المزة . والدار تقع في بناء ضخم تحيط به

الأشجار والأزهار ، وتقدم فيه جميع الخدمات لنزلاء الدار

وكان المغفور له الدكتور أحمد منيف العائدي ، قد أوصى ببناء هذه الدار فقام ابنه الدكتور المهندس عثمان العائدي بتنفيذ وصية أبيه على أحسن وأفضل شكل ، وبسخاء يستحق الشكر والدعاء

مكانته العلمية ومهماته

يعتبر الدكتور عزة مريدن ، من أعلام الطب ورواده في الوطن العربي ، فقد مارس التدريس في كلية الطب نحو أربعين عاماً . درّس خلالها مفردات الطب باللغة العربية ، وفق إعداده واجتهاده . وتتلمذ على يديه أعداد من خيرة الأطباء السوريين والعرب عامة . وجميعهم يعترفون له بالفضل والتفوق ، ويشيدون بسعة علمه ، ومقدرته الفائقة .

من الأعمال التي مارسها ، بالإضافة إلى مسؤولياته في كلية الطب ، وأعماله الخاصة في عيادته ، الأمور التالية

كان رئيساً للجمعية الطبية الجراحية .

وكان عضواً في مجلس محافظة مدينة دمشق مدة سنتين .

وعُين مديراً لمدرسة التمريض والقبالة ، التابعة لكلية الطب ثلاث سنوات .

كان يسهم بتحرير مجلة المعهد الطبي العربي .

ألقى محاضرات في المجمع العلمي العربي بدمشق ، كما حاضر في باريس ، ولندن ، وجنيف ، ونيويورك بالفرنسية والإنكليزية .

ونشر في المجلات الثقافية ، وقدم في الإذاعة عدداً كبيراً من الموضوعات العلمية والأدبية .

وشارك بتأسيس حلقة الزهراء الأدبية ، وكان عضواً فيها

تولى تدريس علم الأدوية وفن المداواة في كلية الطب نحو أربعين سنة ، وألّف في هذا الموضوع كتابين من أصعب المواد في كلية الطب

كتبه وآثاره

كتب الدكتور مريدن التي وضعها ، تناول فيها القضايا الصعبة ، والأمور المعقدة . وكلها تحتاج إلى علم غزير ، ومعرفة واسعة . وقد برهن فيها على أنه العالم الفحل ، المتمكن من علمه واختصاصه وفيما يلي بيان بعناوين جميع هذه الكتب

١ـ أمراض الأطفال ـ بالاشتراك مع الدكتور ترابو

٢ـ علم الأدوية ـ مجلدان

٣ـ فن التجبير ـ مترجم عن الفرنسية

٤ـ مبادئ علم الأدوية ـ بالاشتراك مع الدكتور أكرم المهايني .

٥ـ دراسات وتأملات في العلم والطب والحياة ـ صدر عام ١٩٨٣ عن اتحاد الكتاب العرب وقدم له المرحوم ظافر القاسمي .

٦ـ كتاب عن « الأستاذ الدكتور أحمد منيف عثمان العائدي » صدر عام ١٩٩٦

* * *

المراجع

١ ـ ترجمة مخطوطة قدمها لنا مشكوراً الدكتور عزة مريدن

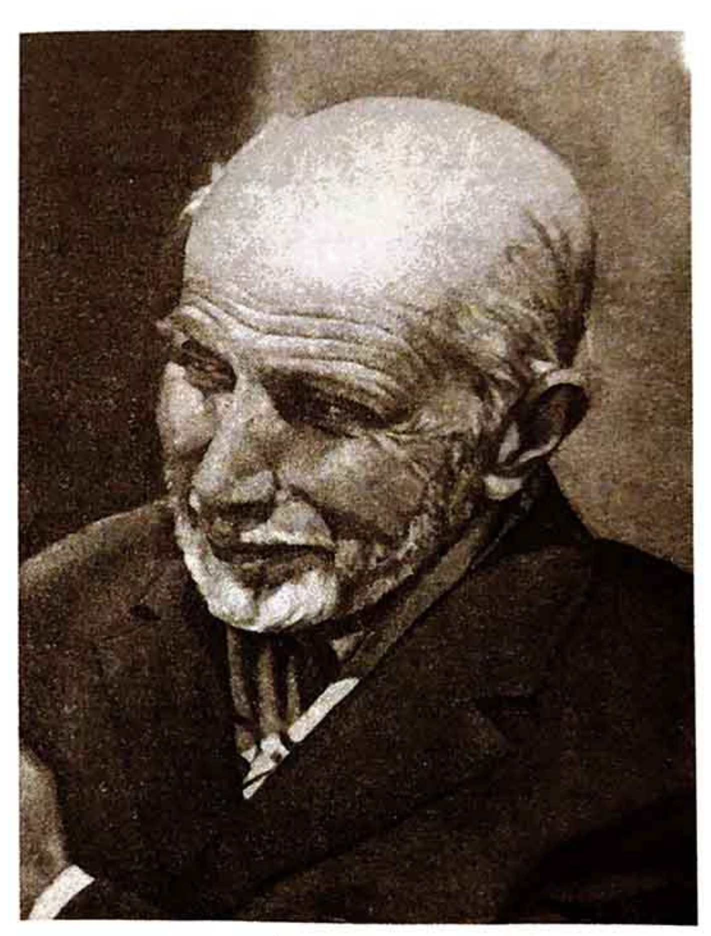
٢ ـ مقدمة الأستاذ ظافر القاسمي لكتاب « دراسات وتأملات في الطب والعلم والحياة » للدكتور مريدن

٣ ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش

٤ ـ كتاب الدكتور مريدن عن « الدكتور أحمد منيف العائدي »

* * *





- د. أحمد حمدي الخيّاط -

رائدُ النهضة الطبيّة في سوريّة

١٨٩٩ - ١٩٨١

كان واحداً من رواد النهضة الطبية في سورية

شارك بتأسيس المعهد الطبي العربي ، قبل أن يتحول إلى كلية للطب

درّس الطب نحو أربعين عاماً ، وتخرج على يديه كبار الأطباء السوريين

ترجم المصطلحات الطبية ، ووضع أكبر معجم لهذه المصطلحات

ألّف عدداً كبيراً من الكتب الطبية ، وما يزال كثير منها يدرّس إلى اليوم

أنشأ أول مخبر للجراثيم ، ورأس « دار الجراثيم » أربعين عاماً

كان اهتمامه كبيراً بشؤون التربية والتعليم ، وأولاهما جانباً عظيماً من عنايته

كان يعقد في بيته جلسات يومية ، للتفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والشعر

أحمد حمدي الخياط ، واحد من العلماء الأفذاذ ، يعتز الوطن بتاريخهم ، وآثارهم

مولده ونشأته

أبصر الطفل أحمد حمدي بن محمد علي الخياط النور بدمشق في العام ١٨٩٩ ، وينتمي إلى أسرة دمشقية عريقة بالأخلاق والحفاظ على التقاليد والتقوى .

تلقى دروسه الأولية في المدرسة الكاملية ، بدمشق بعد أن أتقن صنعة أسرته في الحفر على الخشب ، والزخرفة بالصدف والأصباغ

انتسب بعد ذلك إلى مدرسة الطب العثمانية بدمشق ، التي ما لبثت لدى نشوب الحرب العالمية الأولى أن انتقلت إلى بيروت ، حيث أصبح مقرها في مباني ومشافي الجامعة اليسوعية وكان في ملاك الجامعة نقص كبير ، بسبب

ظروف الحرب ، فأخذ منذ أن كان طالباً ، يقوم ببعض أعمال الهيئة الطبية ، ويشارك بأعمال المستشفى ثم أخذ يمارس التدريس العملي ، ولاسيما في المختبرات وتخرج من مدرسة الطب في بيروت سنة ١٩١٨

وعاد إلى دمشق ، عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى

مع مؤسسي كلية الطب

انضم الدكتور الخياط إلى قافلة الرعيل الأول ، من مؤسسي المعهد الطبي العربي بدمشق ، الذي بات يعرف اليوم بكلية الطب ، وشارك بأعمالهم ومهماتهم وجدير بالذكر أن أول ما طبع من كتب المعهد الطبي العربي ، كان كتاب الدكتور الخياط « علم الجراثيم » ، ثم كتابه الثاني « فن الجراثيم »

بعد سنوات قليلة من عمله في المعهد الطبي العربي ، رحل الدكتور الخياط إلى فرنسا ، وانتسب إلى معهد باستور ، وتَتَلْمذ على عدد من العلماء الأعلام ثم انتقل إلى برلين ، وأمضى فيها فترة من الزمن ، قبل أن يعود إلى دمشق وقد أتقن الفرنسية والألمانية . أما الإنكليزية فكان قد أتقنها عن طريق دراسته الخاصة وكان من قبل يتقن التركية إتقاناً كاملاً ، ويلم بعدد من اللغات الأخرى إلماماً محدوداً

بين الجامعة والعمل الحر

إلى جانب انصراف الدكتور الخياط للعمل الجامعي ، حيث رأس « دار الجراثيم » طوال أربعين عاماً ، اهتم بالعمل المهني الحر ، فأنشأ مخبره الخاص . ولعله كان أول مختبر من نوعه في سورية

كان له الدور الأول في تأسيس نقابة الأطباء وظل نقيباً للأطباء سنوات

عديدة ، ولا سيما خلال فترة العدوان الفرنسي التي سبقت الاستقلال والجلاء ، ثم بعده

ولم يترك النقابة إلا بعد أن أتم تنظيمها ، ووضع جميع متطلباتها القانونية والإدارية

شارك الدكتور الخياط ، إلى جانب نشاطاته المتعددة ، التي سبقت الإشارة إليها ، بمختلف أنواع العلوم ، وكانت تعقد في داره مساء كل يوم جلسات يومية ، يحضرها عدد من كبار العلماء والباحثين المختصين وقد قسم جلسات الأسبوع ، إلى مختلف ألوان العلم والمعرفة جعل يوماً للتفسير ، ويوماً للحديث ، ويوماً للفقه ، ويوماً لشؤون اللغة ، ويوماً للشعر ، ويوماً للسمر

كان الدكتور العالم يشارك بجميع هذه الجلسات والندوات غير أن هذه الأمسيات الحلوة ، توقفت وانتهى أمرها ، في أواسط الأربعينيات

ورحل الطبيب الكبير ، والعلامة الرائد أحمد حمدي الخياط إلى جوار ربه ، في الرابع من تموز من عام ١٩٨١ ، بعد أن أقعده المرض فخسر الوطن والعلم بغيابه عالماً من العلماء الأفذاذ ، وطبيباً رائداً ، قدم لوطنه ومواطنيه أجلّ الخدمات

مكانته العلمية

كان الدكتور الخياط ، ركناً من أركان العلم في سورية والوطن العربي قام بتعريب العلوم الطبية ووضع ألوف المصطلحات للألفاظ الأعجمية ونقل مع زميلين من زملائه « معجم كلير فيل الطبي » الكثير اللغات ، إلى العربية وكان أجلّ وأكبر أعماله « معجم العلوم الطبية » الذي لم يتوقف عن العمل فيه ، إلا بعد أن أضناه المرض وأقعده ، وهو في عامة الثمانين

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الدكتور العالم ، مارس تدريس الطب من عام ١٩١٩ لغاية العام ١٩٥٨ ، أي نحو أربعين عاماً

وكان كذلك مديراً لكلية الطب بين عامي ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ، وقد أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٨

كتبه وآثاره العلمية

كتب الدكتور أحمد حمدي الخياط عدداً كبيراً من المقالات والبحوث العلمية وهي ما تزال موزعة في ثنايا المجلات

أما كتبه القيمة ، فهذه عناوينها

١ـ مدخل فن الجراثيم ـ ثلاثة أجزاء ـ مطبعة الجامعة السورية
٢ـ الجراثيم المؤذية ـ ثلاثة أجزاء ـ مطبعة الترقي بدمشق
٣ـ صحة الأسرة ـ طبع سنة ١٣٤٨هـ .
٤ـ الجراثيم الطفيلية ـ ثلاثة أجزاء ـ سنة ١٣٦٠هـ .
٥ـ تذكرة الجراثيمي في مخبره ـ ثلاثة أجزاء
٦ـ فن الصحة والطب الوقائي ـ ثلاثة أجزاء
٧ـ إصلاح النسل ـ بالاشتراك مع الدكتور مرشد خاطر
٨ـ معلمة طبية على حروف المعجم ـ بالاشتراك مع الدكتور مرشد خاطر
٩ـ معجم المصطلحات الطبية ـ (ترجمة) ـ بالاشتراك مع الدكتور مرشد خاطر والدكتور صلاح الدين الكواكبي ـ باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية

* * *

المراجع

١ـ بعض كتب الدكتور أحمد حمدي الخياط

٢ـ ترجمة موجزة زودنا بها مشكوراً الدكتور هيثم الخياط (ابن المترجم)

٣ـ كتاب « معجم المؤلفين السوريين » ـ عبد القادر عياش

* * *



د. صبري القبّاني

الطبيبُ.. العصامي.. الانسان

١٩٠٨ - ١٩٧٣

كان إنساناً بكل ما في هذه الكلمة من معنى

كان يضمر الخير لكل الناس ، ودون استثناء

ويدعو إلى صنع الخير ، لكل الناس ، ودون استثناء

آمن بالطب رسالة إنسانية ، لا وسيلة للكسب ، وجر المغانم ، وتكديس الملايين ! .

كان يعالج معظم مرضاه دون مقابل ويقدم الدواء بالمجان للكثيرين منهم !

كان يزرع الأمل والتفاؤل في صدور مرضاه ، ويشفيهم بنزع الخوف واليأس من أعماقهم

كان يعيش بكلية واحدة ، ويعاني من جملة أمراض

كان في أشد الحاجة إلى من يشجعه ويواسيه ولكنه كان يواسي الجميع ، ويزرع الأمل المشرق في قلوب الجميع

بدأ حياته من الصفر ، ولكنه وصل ، بعصاميته ، إلى القمة ، وذاعت شهرته في جميع أقطار الوطن العربي وصار المرضى يتدفقون لزيارته من كل مكان .

تفرغ فيما بعد ، لرعاية مجلته الناجحة « طبيبك » ، وأصدر إلى جانبها مجلة أخرى

ورحل فجأة ، في نيسان من عام ١٩٧٣ ، وهو في ذروة مجده ، وقمة عطائه ، فبكته القلوب ، قبل العيون .

قصة حياته

أبصر الطفل صبري بن محمد القباني النور بدمشق في العام ١٩٠٨ وينتمي إلى أسرة دمشقية فقيرة . تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في المدارس الحكومية الرسمية ، وانتسب بعد ذلك إلى كلية الطب في الجامعة السورية ، وفاز بشهادتها في العام ١٩٣١

بعد تخرجه عمل طبيباً في الجيش العراقي تسع سنوات وعاد إلى دمشق عام ١٩٤٠ وافتتح عيادته في شارع السنجقدار

في عام ١٩٤٧ رشح نفسه في الانتخابات النيابية غير أن الحظ لم يحالفه من أجل ذلك أعلن في الصحف اعتزاله العمل السياسي

وقد وفى بهذا الوعد ، فلم يمارس بعده أي عمل سياسي أو حزبي ، وإن كانت صلته برجال السياسة ، ومن مختلف الاتجاهات لم تنقطع

في عام ١٩٤٨ عُيّن أستاذاً محاضراً في كلية العلوم

ثم أصدر جريدة « النصال » ، وكانت بديلاً لجريدة « النضال » ، التي كان يصدرها الدكتور سامي كبارة ، ذات الاتجاه المعارض ، والتي كانت تتعرض أحياناً للتعطيل

مارس الدكتور القباني نشاطاً ملموساً في الإذاعة ، عندما أخذ يجيب على أسئلة المستمعين الطبية ، في برنامج خاص يحمل عنوان « طبيبك خلف المذياع »

ثم كلفه المؤلف بالإجابة على أسئلة قراء مجلته « الدنيا » ، في باب يحمل عنوان « عيادة القراء » وقد لقي هذا الباب نجاحاً لا حد له ، وصارت أسئلة القراء ، تتدفق من مختلف المدن السورية والأقطار العربية ، الأمر الذي حقق للدكتور القباني شهرة واسعة جداً وكان ذلك بسبب انتشار مجلة « الدنيا » الكبير

نجاح الدكتور القباني في باب « عيادة القراء » شجعه على إصدار مجلته الطبية عام ١٩٥٦ ، ولقيت مجلته « طبيبك » نجاحاً واسعاً أيضاً ، الأمر الذي دفعه إلى إغلاق عيادته والتفرغ للعمل في مجلته الطبية وحدها

ومرة أخرى شجعه نجاح مجلة « طبيبك » على المغامرة بإصدار مجلة أخرى باسم « الرياضة والجمال » ، غير أن هذه المجلة ، لم يكتب لها النجاح

الذي كان يحلم به   ومن أجل ذلك ، اضطرت إلى الاحتجاب بعد حين

ورحل الطبيب العالم ، والإنسان العصامي النبيل صبري القباني إلى جوار ربه إثر نوبة قلبية حادة   رحل مأسوفاً على علمه ، وأخلاقه ، ونبله ، في نيسان ١٩٧٣ ، ووري الثرى في مدينته ، مسقط رأسه دمشق

بين صبري القباني والمؤلف

كانت تربط المؤلف بأخيه صبري القباني ، صداقة وثيقة ، ومحبة أكيدة ، وتعاون دائم   كان القباني يتهم أخاه العطري ، مداعباً ومتودداً ، بأنه استطاع أن ينتزعه من عيادته كطبيب ، ويضمه إلى مهنة البحث عن المتاعب ، ويعني مهنة الصحافة

عندما تلقى المؤلف نبأ رحيل أخيه الطبيب الإنسان والعصامي الكبير ، كان وقع النبأ أليماً جداً لديه

من أجل ذلك بادر إلى كتابة الفصل التالي عنه   وفيه يروي قصة حياة الدكتور صبري القباني كاملة   وكان أحد فصول كتاب « عبقريات شامية » ونعيد نشره فيما يلي ، لأنه يسجل صفحة مشرقة من حياة رجل ، عالم وعصامي مكافح

عندما كان الجثمان الطاهر ، ينقل من البيت ، الذي بناه صاحبه بالعرق ، والجهد والدموع ، صاح صائح بعبارة ، اعتاد أن يرددها كل مرة ، وعلى كل « فقيد » ينقل بالسيارة التي يعمل بها

ـ فلان مات يا إخوان فسامحوه . . . سامحوه يا إخوان .

ووقع اسم الرجل الكبير ، مقروناً بلفظتي   « مات وسامحوه » كالصاعقة ، فوق رأس صديق الفقيد الراحل ، فتفجر الدمع من عينيه ، وهو يرى المشهد الكئيب ، والنهاية الحزينة ، للرجل الذي أحبه من الأعماق وصاح بالمؤذن ، وبمن حوله من الناس قائلاً

ـ كيف ؟ نحن نسامحه ؟ قل له من فضلك ، أن يسامحنا هو ، بقدر ما أحسن إلينا جميعاً ، وأسدى إلى العلم والوطن من خدمات

كان من العجيب أن يموت الرجل العظيم بهذه السرعة وكان من الأعجب والأغرب أن يحمل مجموعة أمراضه وأوجاعه ، ويعيش رغم أنفها بين الناس ، هاشاً ، باشاً ، يبعث الأمل في نفس كل مريض يعوده ، وكل صديق يلقاه ، وكل بائس أو مبتئس في الحياة

صراع مع المرض

عاش صبري القباني عشرين عاماً أو أكثر في صراع عنيف مع المرض وقبلها اضطر لاستئصال إحدى كليتيه ، فعاش بكلية واحدة ، يغالب المرض ويصارعه ، ويخرج كل مرة منتصراً عليه ولكنه ما لبث بعد سنوات أن أصيب ، وهو في عيادته يعالج مرضاه ، بذبحة صدرية ، كادت أن تودي بحياته ولعل سببها ، أنه حين كان يشيِّد البناء ، الذي سكنه فيما بعد في « الحواكير » أحسّ بتنكر بعض الأصدقاء ، وحجبهم عنه المساعدة ، التي كان ينتظرها منهم ـ وهو الذي أحسن إليهم ـ فتألم ، وطوى الجرح على ألمه ، وكان ما كان

وعاودته « الجلطة » مرة تلو مرة ، خلال سنوات طوال وكان كلما « زارته » وخرج منها منتصراً ، معافى ، ازداد الطب دهشة ، وفغر الأطباء أفواههم ذهولاً واستغراباً وتضرع أصدقاؤه ومرضاه إلى الله شكراً وتضاعف إيمانهم بأن السماء تكافئ أحياناً من يصنع الخير ، في الدنيا قبل الآخرة

ومع الكلية الواحدة ، والجلطات المتوالية ، كان صبري القباني قد أصيب بثلاث قرحات في المعدة ، وأخذ يردد مع الشاعر قوله

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح

كيف كان يداوي الناس

لم يكن صبري القباني يصنع المستحيلات والمعجزات ، وهو يداوي مرضاه ولم يكن بحد ذاته معجزة في العلم والطب ، رغم علمه الواسع ، وذكائه الوقّاد ، وتجاربه الطويلة ولكن مئات المرضى ، كانوا يحملون أوجاعهم وآلامهم ، من شتى البلاد العربية ، ويتسابقون إلى عيادته في شارع السنجقدار ، قبل أن يهجرها ، ليتفرغ لمجلتيه « طبيبك » ثم « الرياضة والجمال »

بلى كان المرضى يتدفقون على عيادته من بغداد والرياض ، والكويت ، وبيروت وعمان والخليج فينالون الشفاء على يديه ، ويعودون أدراجهم إلى أوطانهم ، ليتغنوا بعلمه ، ويشيدوا بكفاءته ، ويرشدوا إلى عيادته أفواجاً أخرى من المرضى والموجعين

قلت إن صبري القباني لم يكن معجزة في الطب . . ولكنه كان يستعمل مع مرضاه كل ذكائه وعلمه ويرفق الذكاء والعلم بابتسامته وتشجيعه ، ويؤكد للمريض أن مرضه بسيط ، وأنه سيشفى . ولا يغادر المريض عيادته ، قبل أن يكون قد تخلص من نصف الأوجاع ، ويكون النصف الثاني في طريقه إلى الزوال .

وكم من مرة حملت مرضي من بلاد بعيدة ، ورفضت أن أزور أي طبيب غيره ، وجئته ، وأنا أشعر بوطأة المرض تكاد تقضي علي ، فإذا به يستقبلني برقته ومرحه وابتسامته ، ويسخر مما أشكو منه « لتفاهته » ، ويبعث فيَّ العزيمة والنشاط . ثم يفتح خزانة الأدوية ، ليقدم إلي زجاجة فيها قليل من الحبوب ، ويؤكد أن الشفاء التام سيحصل بعد تناول حبات منها وكنت في الواقع أنال نصف الشفاء ، وأنا أراه يلحق بي ليودعني على باب العيادة ، مكرراً دعاباته ، متجاهلاً المرض الذي أشكو منه

كان صبري القباني يفعل ذلك معي ، ومع عشرات من أصدقائه وزواره المرضى ، وهو مريض بأمسّ الحاجة إلى من يداويه ، ويشجعه ، وينسيه الآلام التي تعاوده في وحدته ، ولاسيما في لياليه لقد كان بالفعل ذاك الرجل الذي عناه الشاعر بقوله « طبيب يداوي الناس وهو عليل »

يصنع الخير للجميع

كان صبري القباني يؤمن برسالة الخير والمحبة لم يؤذ أحداً في حياته كان شديد الحرص على أن يصنع الخير ، ويؤدي خدماته إلى الجميع وكم سمعته يردد أمامي نظريته المثلى

ـ على الإنسان أن يصنع الخير للجميع . . . وعليه أن يلقي بذور الخير في كل أرض ، وأن لا ينتظر أن يجني عاجلاً ، أو آجلاً جزاء ما يفعل . . . وعندما يؤمن الجميع برسالة الخير هذه ، سترى أنهم يقدمون إليك الخير ، ويصنعون من أجلك أكثر مما تريد ولا يلبث أن يكرر :

ـ افعل أكثر ما تستطيع من الخير . . . وستجني الخير عاجلاً أو آجلاً

وتحقيقاً لهذا القول كنت كلما دخلت عيادته ، وجدتها تغص بالمرضى وتدنو مني ممرضته المتصابية لتشكو سيدها إلي

ـ من الصباح حتى الآن ـ وغالباً ما تكون الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ـ لم يستفتح الدكتور بقرش واحد إن زبائنه كما ترى من الفقراء والجيران . . والأصدقاء . . والأقارب . . . وحواشيهم ! .

هؤلاء الزبائن ، لم يكن صبري القباني يعالجهم بعلمه وخبرته فحسب ، بل كان يوزع عليهم مع العلم والخبرة ، ابتساماته الوديعة ، ويدس في أيديهم زجاجات الدواء مجاناً وقد يبعث من يشتري لهم الدواء سراً ، إذا لم يتوافر لديه ! .

وأطرف ما في الأمر أن صبري القباني حين كان يفتح باب غرفة المعاينة ، التي تطل على غرفة الانتظار ليودع مريضاً ، كان يلقي نظرة على مرضاه ، فإذا ما لمح بينهم صديقاً أو قريباً ، اصطنع له عذراً أمام المنتظرين ، واستقبله قبل أي مريض غريب ، جاء ليتداوى ويدفع !.

القباني وشعرة معاوية

ربما كان فيما سبقت الإشارة إليه ، بعض الأسباب التي جمعت القلوب حول الراحل الكبير ، وجعلت الألوف يهتفون بحياته ، ويتغنون بذكره ، ويشيدون به في المجالس والمجتمعات وكان الفقيد الغالي حريصاً على أن يجعل علاقاته وثيقة مع معظم الناس أما إذا آنس من شخص غلظة أو فظاظة ، أو سبباً آخر يضايقه ، فإنه يؤثر أن يطوي ذلك في صدره ، ويخفف من علاقته به ما استطاع ، محتفظاً بما اعتاد أن يصفه بشعرة معاوية أي أنه كان يضع نصب عينيه قول ابن أبي سفيان :

ـ « لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها فإن شدوا رخيت ، وإن أرخوا شددت »

كان يحرص على بقاء هذه « الشعرة » أشد الحرص ، ويكره معاداة الناس ، ويتجنب الإساءة حتى إلى خصومه ومن أجل هذا كان أصدقاؤه يعدون بالألوف . . . من أنصار اليمين ، ودعاة اليسار ، ومن أصدقاء الشرق والغرب ، وما بينهما من اتجاهات وميول ، يضاف إلى ذلك رفاق الصبا والشباب ، ورجال العلم والصحافة والأدب ، وأرباب الوظائف والحكام والوزراء وكان فقيدنا الكبير يوثِّق صلته بكل هؤلاء ، ويحسن إليهم ، ويسأل عنهم ، ويعودهم في بيوتهم ، ويدخرهم لحين الحاجة وهو يعرف أن أحداً لن يردّ له طلباً ولكن هذا « الطلب » يكون على الأرجح لخدمة صديق آخر ، يحرص على صداقته وحبه . !

إن رسالة الخير ، وخدمة الآخرين ، لم تفارق صبري القباني ، حتى آخر لحظة في حياته

القباني والسياسة

في أواخر الأربعينيات حاول بعض السياسيين أن يزجُّوا به في معترك السياسة ، فدفعوه لترشيح نفسه إلى انتخابات مجلس النواب وخاض المعركة العنيفة ، وبذل فيها الجهد والمال ولكن النتيجة لم تكن كما كان يشتهي أو يتمنى إخوانه ، الذين اندفعوا معه يؤيدونه بأقصى ما يملكون من جهد ورغبة

وحين ظهرت نتيجة المعركة الانتخابية ، طوى صبري القباني صفحة السياسة من حياته ، وعاهد رفاق دربه ، على أن لا ينصرف إليها بعد ذلك اليوم وقرر أن يكرس كل نشاطه ووقته لعيادته وعلمه ومهنته ولكن دون أن يقطع علاقاته ـ التي كانت تتجاوز شعرة معاوية ، إلى خصلات من الشعر ! ـ مع رجال السياسة بلى لقد ظل على علاقة وثيقة بالساسة ، دون السياسة وحين تولى حسني الزعيم الحكم في دمشق ، استدعى صبري القباني وكان يحبه ويثق به ، وجعله رسوله إلى أنطون سعادة ، زعيم الحزب السوري القومي وكان الرجل لاجئاً في دمشق ، بعد حركته ضد رياض الصلح ولعب صبري القباني دوراً بارزاً في تحسين العلاقات بين الرجلين وحين غدر الزعيم بسعادة وسلمه إلى لبنان ، لينفذ به خصومه حكم الإعدام . كان هناك « أسرار » على غاية من الخطورة ، كشفها صبري القباني ، في المذكرات التي نشرها بتوقيع مستعار في مجلة « الدنيا » التي كنت أصدرها وأثارت هذه المذكرات ضجة كبيرة في مختلف الأوساط السياسية . . . وكان الجميع يتساءلون عن صاحب تلك المذكرات ، ويراهنون ، دون جدوى ، على أنه زيد أو عمرو . .

وقد تكون هذه ، المرة الأولى ، التي يكشف فيها اللثام ، حول صاحب هذه المذكرات !

القباني والصحافة

بعد أسبوعين من تولي حسني الزعيم زمام الحكم في سورية ، أصدر أمراً عرفياً بإلغاء معظم الجرائد والمجلات السورية وكان لمجلة « الدنيا » حظ البقاء في ذلك العهد كانت المجلة الوحيدة من نوعها آنذاك وكان عليّ أن أبذل وأضاعف الجهد فيها وخلوت ذات يوم إلى الدكتور صبري القباني ، وعرضت عليه فكرة لم يهضمها بادئ بدء ولم يقتنع بصحتها وصوابها ، لأنها كانت جديدة على صحافتنا أما الفكرة فهي أن يتولى الرد على أسئلة القراء الطبية وشكاواهم الصحية فابتسم يومئذ وقال

ـ غير معقول . . . ولكن دعني أفكر

وودعته في عيادته غير أنه عاد بعد أيام ليزورني في مكتب المجلة ويقول

ـ هل تريد الحق ؟ إنها فكرة مدهشة ، وجديدة على صحافتنا وباستطاعتك أن تعلن في العدد القادم من « الدنيا » عن استعدادي للرد على أسئلة القراء الطبية . .

وتدفقت الأسئلة على المجلة السورية الوحيدة . . . وكنا في منتصف العام ١٩٤٩ ، وصار بريد « عيادة القراء » بعد أسابيع ، كبيراً وضخماً وأخذت الأسئلة تنهال على المجلة من مختلف البلاد العربية وبدأ فريق من زملاء فقيدنا الكبير يهاجمونه وينتقدونه ، غيرة منهم وحسداً ويزعمون أن الطبيب كثيراً ما تخونه القدرة على معاينة المريض ، وتشخيص المرض ، وهو أمامه يفحصه ويجسه ويقلِّبه فكيف يستطيع الدكتور القباني أن يفحص مرضاه ، ويصف لهم الدواء بالمراسلة ؟ . .

ولم يبال فقيدنا الكبير بهذا اللون من النقد والهجوم ، بل راح يوزع مقالاته ونصائحه الطبية على عدد من الجرائد اليومية ، ومنها « الأيام » و« النصر »

واتسع نطاق نشاطه الطبي ، فبلغ الإذاعة ، وصار يقدم كل أسبوع برنامجاً يحمل عنوان « طبيبك خلف المذياع » وبدأت شهرة القباني تطبق الآفاق وكانت هذه المرحلة بداية الطريق ، الذي سبق إصدار بعض كتبه ، ثم مجلة « طبيبك » ، ثم « الرياضة والجمال »

وكان الراحل الكبير ، يأبى إلا أن يبالغ في تكريمي ، فيناديني يا أستاذي بالصحافة ويقول مازحاً إني « افتريت » عليه ، وفتحت أمامه باب الصحافة ، وجعلته يتذوق عسلها حيناً . . . وعلقمها أحياناً ! . .

والحديث عن صبري القباني طويل ذو شجون ، والفجيعة به أكبر من أن يستطاع التعبير عنها في سطور أو صفحات . وجملة القول إن فقيدنا الغالي نشأ وعاش عصامياً ، واستطاع أن يجعل الطب مستساغاً من القراء عامة يفهمونه ، ويتذوقونه بسهولة ويسر ، ويفيدون من نصائح الطبيب وتوجيهه ، دون أن يجدوا فيما يقدم إليهم ، جفاف العلم ، وصعوبة فهمه ، وتعذر هضمه والإفادة منه

لقد استطاع صبري القباني أن يقدم خلاصة العلم ، وثمرة تجارب العلماء والأطباء إلى القراء ، في طبق شهي ، سهل التناول ، يغري دائماً بالحصول على المزيد منه ، لما يتضمنه من مقبلات ومرغبات . ومن أجل هذا نالت « طبيبك » حظها الكبير من النجاح ، وصارت مهوى الأفئدة ، ومحط الأنظار ، في كافة بلاد العرب . كما لقيت معظم كتبه نصيباً وافراً من النجاح يحسده عليه جميع الكتاب والمؤلفين

كتبه ومؤلفاته :

أصدر الدكتور صبري القباني عدداً من الكتب العلمية والطبية ، ولقيت

كلها ، ولا تزال تلقى إلى اليوم اهتمام القراء العرب في كل مكان ، وتعاد طباعتها باستمرار وهذه عناوين هذه الكتب

١ـ طبيبك معك ـ عدة أجزاء

٢ـ الغذاء لا الدواء

٣ـ حياتنا الجنسية

٤ـ جمالك سيدتي

٥ـ قلوب الأطباء

٦ـ ألف باء الجنس

* * *

المراجع

١ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة

٢ـ أعداد مختلفة من مجلة « الدنيا »

٣ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي .

٤ـ من هم في العالم العربي .

* * *



د. مدني الخيمي رحمه الله

عَلَمٌ في الطِبِّ وَالأخلاقِ والوطنية

١٩١٤ - ١٩٩٧

كان واحداً من أعلام الطب في سورية

كان واسع العلم ، جمَّ التواضع ، رفيع الأخلاق

كان موضع ثقة جميع المرضى ، في كثير من أجزاء الوطن العربي

عالج العديد من الملوك والرؤساء ، وتحقق شفاؤهم على يديه

أنقذ حسني الزعيم من أزمة قلبية ، فـ « كافأه » بأن ألزمه بتناول تفاحة معه ، في الصباح الباكر من كل يوم !.

كان معجباً بالزعيم عبد الرحمن الشهبندر(١) ومن أنصاره

تولى رئاسة كلية الطب ، ثم رئاسة جامعة دمشق

منحته الدولة دكتوراة شرف باحتفال كبير ، وهذه الشهادة لا تمنح إلا لكبار العلماء والمبدعين .

كان زاهداً بالمناصب الوزارية ، ورفض قبولها مراراً ثم وافق ، فكان وزيراً للصحة ثماني سنوات

كان مدني الخيمي ، أحد الوجوه المحبوبة والمحترمة ، لدى كافة الأوساط العلمية ، والسياسية ، والاجتماعية

شيء من حياته

أبصر محمد مدني النور ، في المدينة المنورة ، يوم الرابع والعشرين من كانون الأول عام ١٩١٤ ، وسُمّي « مدني » نسبة للمدينة المنورة التي ولد فيها ، جرياً على العادة المألوفة ، بين من يولدون في المدينة ، من غير المقيمين فيها . وكان والده « علي » ووالدته « مهيبة الخردجي » يؤديان فريضة الحج ، حين رزقا بولدهما هذا

ينتمي المترجم إلى أسرة دمشقية عريقة ، في حي القيمرية الأصيل وقد

---

(١) انظر دراسة مفصلة لحياته وأعماله في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف

تساوى أبناء هذه الأسرة وبناتها في تحصيل العلوم والآداب وعندما طاف موظفو السجل المدني ، الذي أُحدث عام ١٩١٦ خلال العهد العثماني على البيوت الدمشقية ، لإحصاء عدد السكان ، كانت بنات العائلة يقرأن ويكتبن ، ويوقعن على صحة إفادتهن

تلقى مدني علومه الابتدائية ، في إحدى مدارس دمشق ، أما الثانوية فتابعها في مكتب عنبر وقد توفي والده ، وهو في الرابعة عشرة من العمر غير أن والدته أصرت على تنفيذ رغبة والده ، بأن يدرس الطب في الجامعة الأميركية ببيروت من أجل هذا انتقلت الأسرة إلى بيروت للإقامة المؤقتة فيها وكانت الجامعة الأميركية تدعى « الكلية السورية البروتستانية »

في العام ١٩٣٦ فاز مدني بشهادة الطب ثم رحل إلى فرنسا ، والتحق بكلية الطب في مدينة « ليون » للاختصاص بالأمراض القلبية

وفي العام ١٩٣٨ نال شهادة الاختصاص ، واستطاع العودة إلى دمشق ، قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية

تزوج الدكتور مدني من الآنسة جميلة مراد ، وهي ابنة المغترب اللبناني في الأرجنتين محمد ، وأنجبا ابنة وثلاثة أبناء ، هم الدكتورة عائدة ، أستاذة في كلة الطب وسامي دكتور في الهندسة وأستاذ في كلية الهندسة بجامعة دمشق . ود . علي وهو طبيب مختص بالجراحة العظمية ، ود . عامر وهو طبيب مختص بمعالجة الأورام ، ويعمل في الولايات المتحدة

مارس الدكتور مدني الطب في بيروت كأستاذ مدة سنة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠) ، ثم انتقل إلى دمشق ، والتحق بالجامعة السورية عام ١٩٤٦ ، وتدرج في دروب الأستذة ، وصولاً إلى مرتبة أستاذ في الأمراض الداخلية بكلية الطب .

رحل الدكتور الخيمي إلى الولايات المتحدة الأميركية لمدة عام

«١٩٥٦» ، وتابع فيها اختصاصاً جديداً في الوسائل الحديثة لمعالجة أمراض القلب

شغل منصب مقرر المجلس الأعلى للعلوم لدى تأسيسه مدة سنوات عديدة

وقع الاختيار عليه ، فكان عميداً لكلية الطب عام ١٩٦٨ ، ثم رئيساً لجامعة دمشق عام ١٩٧٠

عُيّن وزيراً للصحة عام ١٩٧٢ لغاية عام ١٩٨٠

شغل منصب الأمين العام للمجلس العربي للاختصاصات الطبية من عام ١٩٨٠ لغاية عام ١٩٩٠

وكان الدكتور الخيمي رئيساً لجمعية تنظيم الأسرة السورية ، منذ تأسيسها لغاية عام ١٩٩٦

في يوم الخميس العشرين من شباط ١٩٩٧ ، انتقل الطبيب الكبير ، العالم ، الإنسان محمد مدني الخيمي إلى الرفيق الأعلى ، وشيع إلى مثواه الأخير في مقبرة الباب الصغير بموكب حافل يوم الجمعة الحادي والعشرين من شباط

حفل كبير لتأبينه

أقيم للدكتور الخيمي بمناسبة الأربعين من رحيله حفل تأبين كبير في جامعة دمشق ، تكلم فيه عدد من رجال العلم ، يتقدمهم وزير الصحة الدكتور محمد إياد الشطي ، ورئيس جامعة دمشق الدكتور عبد الغني ماء البارد والأستاذ أسعد الأسطواني ، والدكتور برهان العابد والسيد مهاة فرح الخوري وعدّد الجميع مآثر الدكتور الخيمي وأعماله الإنسانية

وتكلم باسم أسرة الدكتور الفقيد ، ابنه الدكتور المهندس سامي الخيمي ، وخاطب والده بقوله

علمتنا يا والدي الحب والحنان ، وستبقى مآثرك ومزاياك مظلة ، نعود إلىٰ دفئها في الأيام الصعبة

وعلمتنا أن عملنا قاصر ، وإن تميز ، وأن إتقان العمل والتفاني فيه شرف ما بعده شرف

وعلمتنا البر بالوالدين ، فقد كان والدك ملهم حياتك ، وأنت من تيتم صغيراً

وعلمتنا تقديس الحرية ، واحترام الفكر الآخر

وعلمتنا تقديس العلم والعاملين فيه

وعلمتنا أن أنفس ما في النفس ، عفتها وعزتها

وعلمتنا أن الأيدي لا ينبغي لها أن تتحول إلى مخالب

وعلمتنا أن اللغات الأجنبية تُتقن ، ويجب أن تُتقن ، ليقارع بها من سبقونا في دروب المعرفة

وعلمتنا أن الإيمان الحقيقي ، يكون راسخاً في شغاف القلب ، لا في ثنايا اللسان .

وعلمتنا حب الوطن ، وحب دمشق الشام ، وحب يوسف العظمة ، وسائر أبطال الوطن .

محطات في حياته

كان الدكتور الخيمي من المعجبين والمقدرين للزعيم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، خلال الانتداب الفرنسي . وقد سجن ، في سجن

الميه وميه اللبناني مدة شهر وبعد مصرع الشهبندر اعتزل الدكتور الخيمي العمل السياسي نهائياً

شارك بتأسيس المنتدى الفكري مع السيدة إليس قندلفت عام ١٩٤٦ وكان خطيباً قديراً ، كامل الاطلاع على تاريخ العرب الفكري والديني والطبي

كان يتقن عدداً من اللغات الأجنبية ، بينها الفرنسية ، والإنكليزية ، والألمانية

عام ١٩٤٥ أرسلت بريطانيا إلى سورية شحنة من المضادات الحيوية ، وكانت حديثة الظهور ، وذات فعالية كبيرة وقد تم اعتماد الدكتور الخيمي لتوزيعها كطبيب موثوق ، كيلا يستغلها بعض الأطباء للإفادة الشخصية منها

اجتاحت الكوليرا البلاد عام ١٩٥٥ ، فقاد حملة الكفاح ضد هذا الداء الوبيل ، وأمضى أكثر من ثلاثة أشهر ، متنقلاً بين القرى وكان يبيت تحت الخيام أحياناً ، إلى أن اجتازت البلاد هذه الكارثة

رفض الوزارة عدة مرات . رفضها في عهد المرحوم أديب الشيشكلي ورفضها بعد انتهاء الوحدة مع مصر . ورفضها للمرة الثالثة في وزارة المرحوم صلاح الدين البيطار . . ولكنه وافق على قبولها عام ١٩٧٢

قام بتطبيب شخصيات عالمية كبيرة ، بينهم الزعيم الهندي نهرو ، والزعيم الأندونيسي سوكارنو ، والرئيس جمال عبد الناصر ، وأمير الكويت السابق ، والملك السعودي خالد بن عبد العزيز

أنقذ حسني الزعيم من أزمة قلبية ، فأجبره بعد شفائه ، على أكل تفاحة معه في الساعة السادسة من صباح كل يوم واستمر ذلك طوال شهر ، وإلى انتهاء عهده الأسود ! . .

أسهم بشكل فعال جداً بتعريب الطب ، وقد بدأ مع الأستاذ الدكتور مرشد

خاطر ، ثم تابع وحده ترجمة معظم مصطلحات الأمراض الباطنية ، ساعده على ذلك إتقانه التام للعربية ولعدد من اللغات الأجنبية

مارس الدكتور مدني الخيمي مهنة الطب الداخلي منذ عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٩٦ ، أي طوال ثمان وخمسين سنة وكان كثير من زملائه الأطباء يلقبونه بـ « شيخ الأطباء السوريين » وكان لفترة طويلة يتقاسم مع الدكتور حسني سبح معظم المرضى الدمشقيين بالأمراض الداخلية كما كان يداوي معظم مرضى القلب[١]

* * *

---

(١) معلومات هذا الفصل ، زودنا بها مشكوراً الدكتور المهندس سامي الخيمي ، الابن الأكبر للدكتور مدني الخيمي



الدكتور مدني الخيمي في الحفل الذي أقيم لمنحه الدكتوراه الفخرية





وصفي زكريّا

عَالِمٌ رَائِدٌ، وَمُجَاهِدٌ صَامِت

١٨٨٩ ـ ١٩٦٤

كان من أكبر علماء الوطن العربي ، في مجال اختصاصه

تخاطفته الأقطار العربية ، وتسابقت للإفادة من بحر علمه ، وواسع خبرته

أسس المدارس الزراعية في سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، والعراق واليمن

عرّب المصطلحات الزراعية ، ووضع المناهج الدراسية ، وألّف الكتب المناسبة لها

تخرج على يديه ، عدد من المهندسين الزراعيين ، لا حصر لهم

وقضى العمر كله ، في خدمة وطنه ومواطنيه

غير أن من بيدهم الأمر ، لم يقدروا هذا الجهد حق قدره

لم يكرّموه في حياته . . . وضنُّوا عليه بعد رحيله ، بحفل تأبين أو وسام

وتبقى كتب وصفي زكريا ، خير شاهد ودليل ، على سعة علمه ، وجهده الصامت

شيء من حياته

أبصر الطفل وصفي النور في مدينة طرابلس الشام عام ١٨٨٩ ، وينتمي إلى أسرة ترجع في جذورها إلى قبيلة « الشميصغ » الشركسية

والده زكريا شركس ، كان ضابطاً في الجيش العثماني حمله والده واسمه وصفي أيضاً ، من مدينة باكوا ، عاصمة أذربيجان الحالية ، إلى استانبول ، عاصمة السلطنة العثمانية ، بعد هزيمة الشركس في حربهم ضد الجيش الروسي وذلك في أواخر القرن التاسع عشر

في استانبول انتسب زكريا شركس إلى الكلية العسكرية ، وتخرج منها ضابطاً . وكانت أولى المهمات العسكرية التي أُسندت إليه ، في مدينة طرابلس الشام ، حيث تزوج من فتاة تدعى « حسناء سمينة » ، وهي شقيقة رجل

الأعمال إبراهيم سمينة وقد رزق منها ابنة سمياها « زهراء » ثم ولدين ، هما وصفي وحقي نقل زكريا بعدها من طرابلس ، وهو يحمل رتبة تعادل العقيد إلى الموقع العسكري في تلكلخ ولم يطل عمله في تلكلخ ، فقد صدر الأمر إليه بالتوجه إلى اليمن ، على رأس حملة ، مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي عثماني ، للقضاء على الثورة التي نشبت هناك غير أن الثوار اليمنيين ، انتصروا على الحملة العثمانية ، وأبادوها ، فاضطرت حسناء للانتقال مع أولادها إلى دمشق للإقامة وتربية أولادها فيها

دراسته وأعماله

تلقى وصفي علومه الابتدائية والثانوية في دمشق ، وانتقل بعد ذلك إلى استانبول ، والتحق بالمدرسة الزراعية العليا هناك ، وتخرج في العام ١٩١٠ مهندساً زراعياً

عقب تخرجه ، عين وصفي في مدينة سلمية ، حيث درّس في مدرستها الزراعية ، وكانت قد أنشئت حديثاً ثم وقع الاختيار عليه فعُيّن مديراً لها

في العام ١٩١٤ شغل منصباً في مديرية « دار التحرير » ببيروت ، ونقل بعدها إلى « اللطرون » ، وهي تقع بين القدس ويافا ، ليكون أستاذاً محاضراً وهناك أُجبر على أداء الخدمة العسكرية برتبة « ملازم أول في الجيش العثماني » الذي كان يخوض حرباً مع الجيش البريطاني

عندما أمضى الأستاذ وصفي زكريا مدة عامين من خدمته العسكرية ، اختاره الجنرال السفاح جمال « باشا » ، مع العديد من المثقفين ، وأعادهم إلى الحياة المدنية ، كي تفيد الحكومة العثمانية من علمهم وثقافتهم في الحياة والمجتمع

في عام ١٩١٦ كُلف بمكافحة الجراد في دير الزور ، الذي اجتاح هذه المدينة

وفي عام ١٩١٩ تولى إدارة مدرسة سلمية الزراعية من جديد

وفي سنة ١٩٢٤ عُين مفتشاً لأملاك الدولة

وفي عام ١٩٣٦ وقع الاختيار عليه ، ليكون مستشاراً زراعياً في اليمن وهناك قدم مجموعة من الخدمات ، وأدخل زراعات جديدة ، تتناسب مع التربة والبيئة

وأقام الأستاذ وصفي في اليمن سنتين استدعي بعدهما إلى العراق للتدريس في « مدرسة دار المعلمين الريفية في بغداد » وظل على اتصال دائم مع المسؤولين في اليمن والمختصين بالزراعة هناك ، وذلك للاطمئنان على أبحاثه وتجاربه الزراعية ، وحسن سير منجزاته

مكث الأستاذ وصفي في بغداد لغاية العام ١٩٤١ أيام ثورة رشيد عالي الكيلاني

في عام ١٩٤٢ استدعته حكومة الأردن ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمان . وهناك قام بتنظيم الوزارة على الشكل الأمثل وظل تنظيمه معمولاً به طوال عقدين من الزمن

وفي عام ١٩٤٣ عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة

وظل في عمله هذا لغاية عام ١٩٥٠ ، حيث أحيل بعدها إلى التقاعد ، بعد بلوغه السن القانونية

وقد اختارته الحكومة السورية في أواخر حياته ، ليكون عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب

نظرات في حياته وأعماله

كان وصفي زكريا عالماً من كبار العلماء ، في مجال اختصاصه الزراعي وكان رائداً في العلوم الزراعية ، ومؤسساً للمدارس في سورية ولبنان والعراق وفلسطين واليمن .

كانت هذه الأقطار الشقيقة تتخاطفه ، وتسارع إلى التعاقد معه ، للإفادة من علمه الغزير ، واطلاعه الواسع ، الذي لم يكن أحد يجاريه به

فهو أول من وضع مناهج وبرامج التدريس للمدارس الزراعية التي أسسها ولذا وضع كثيراً من الكتب المدرسية المناسبة لها

وهو كذلك أول من عرَّب المصطلحات الزراعية من اللاتينية التي يجيدها ، والفرنسية التي يتقنها إلى العربية وهذه المصطلحات ما تزال معتمدة ، وسارية المفعول في المناهج الدراسية والكتب الزراعية ويرجع إليها الباحثون بشكل دائم ومستمر

وصفي زكريا أول من وضع الكتب الزراعية العلمية المبسطة ، لتكون في متناول من يحتاجها وهي تعتبر مادة تلذُّ لأي قارئ يحاول أن يضيف جديداً إلى معلوماته الزراعية

وبالرغم من مرور أكثر من خمسين عاماً على ظهور هذه الكتب ، فإنها ما تزال أهم وأدق المصادر في علوم الزراعة

من جهة أخرى نشير إلى أنه تخرج على يدي هذا العالم المكافح أعداد لا حصر لها من المهندسين الزراعيين ، خلال توليه منصب الأستاذ المحاضر في كلية الزراعة بجامعة دمشق

عاش وصفي زكريا ، خلال هذا الجهد والجهاد الطويلين ، في ميادين العلم والبحث ، حياة صعبة فقد أبصر النور في ظل الاستعمار التركي البغيض وما كاد هذا الاستعمار يرحل ، حتى برز الاحتلال الفرنسي إلى الوجود . وكانت سعادته كبيرة ، عندما علت راية الحرية والاستقلال

كان وصفي زكريا ، العالم الباحث ، يجيد عدداً من اللغات إلى جانب العربية الأم ، وبينها التركية والفرنسية واللاتينية ، الأمر الذي جعل مصادر البحث عنده أكثر اتساعاً ، وآفاقه العلمية أكثر بعداً يضاف إلى ذلك تعلقه

بالرحلات ، وحرصه على متابعة بحوثه ودراساته على الطبيعة مباشرة ، فقد أكسبه ذلك حصيلة علمية وتاريخية وجغرافية وأثرية لا حدود لها

في ميدان البحوث التاريخية ، والجغرافية ، والأثرية ، ترك عالمنا الجليل عدداً من المؤلفات ذات الشأن الكبير ، وكان فيها رائداً ومرشداً ، ومتفرداً بالمراجع والوثائق التي استطاع الحصول عليها وكان إلى جانب ذلك حريصاً على التثبت من دقة المعلومات التي حصل عليها ، من أصدقائه العلماء والأدباء وذوي الخبرة والاطلاع

مصاعبه المالية

كان وصفي زكريا ، يعاني من أزمة مالية حادة ، في تأمين طبعة كتبه إذ أن دور النشر التي تتولى عادة طباعة آثار الأدباء والعلماء ، هذه الدور لم تكن موجودة فكان لا بد له من طباعة كتبه وتسويقها على نفقته وهذا دون ريب أمر شاق ، ولا أمل للمؤلف بتعويض ما أنفق على كتبه

كان هذا العالم يعاني من ضعف في السيولة كان دخله كله موجهاً نحو إنتاجه العلمي ، وتأمين نشره من أجل هذا لم يستطع أن يترك لأسرته بعد رحيله ثروة مادية ، ولكنه ترك لهم ثروة علمية ، وتاريخاً مشرفاً بالجهاد العلمي

ويحزّ في النفس ، أن هذا العالم الجليل لم ينل في وطنه ما يستحق من التقدير

لم تقم له الجهات المسؤولة حفل تأبين

ولم يكتب عنه الباحثون والدارسون ، ما هو جدير به من التحليل والدراسة

عندما حاول ابنه الأستاذ غسان زكريا تذكير وزارة الثقافة بضرورة تكريمه أو تأبينه ، أجاب المسؤولون فيها بأن وزارة الزراعة ، أو نقابة المهندسين الزراعيين أجدر بالقيام بهذا الواجب

وعندما دعا الباحث الأستاذ أبو الفرج العش إلى منح وصفي زكريا وساماً سورياً ، لم تلق دعوته آذاناً صاغية غير أن خير وسام يحمله هذا العالم هو كتبه وآثاره القيمة

ورحل وصفي زكريا إلى جوار ربه في الحادي والعشرين من نيسان ١٩٦٤ في منزله بدمشق ، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين ، إثر انفجار في الدماغ ، خلال مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط « حيوانات وطيور بلاد الشام » ، الذي طبع سنة ١٩٨٣ ويعيد الآن ابنه الصحافي الأديب غسان زكريا ، طباعة آثار والده في مجلدات تضم الأعمال الكاملة له وذلك في مؤسسة « إيبلا » في لندن

كتبه وآثاره

ترك وصفي زكريا عدداً من الكتب الثمينة والمؤلفات النادرة في علوم الزراعة والتاريخ ، والجغرافية والآثار . وفيما يلي بيان بعناوين هذه الكتب

في مجال اختصاصه المهني

١ـ الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية « ثلاثة أجزاء » صدر سنة ١٩٢٥

٢ـ المفكرة الزراعية ـ وهي تتضمن خلاصة الفنون والأعمال الزراعية ـ وقد صدر سنة ١٩٣٠

٣ـ زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام ـ جزءان صدرا سنة ١٩٥١

٤ـ حيوانات وطيور بلاد الشام ـ صدر سنة ١٩٨٣

في المجال التاريخي والأثري والجغرافي

١ـ جولة أثرية في بعض البلاد الشامية سنة ١٩٣٤

٢ـ عشائر الشام ـ جزءان صدرا سنة ١٩٤٥

٣ـ الريف السوري ـ جزءان ـ صدر الأول سنة ١٩٥٥ وصدر الثاني سنة ١٩٥٧

المخطوطات

١ـ مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ أحوال اليمن وقد طبعت في كتاب صدر سنة ١٩٨٩

٢ـ مقالات مختلفة زراعية وتاريخية وأثرية وجغرافية ، نشرت في الصحف السورية

٣ـ مقالات نشرت في مجلات : المعرفة ، والشرطة ، ومجلة غرفة زراعة حلب وجريدتي « القبس » و« النصر » و« مجلة الحوليات الأثرية » و« المقتطف » المصرية

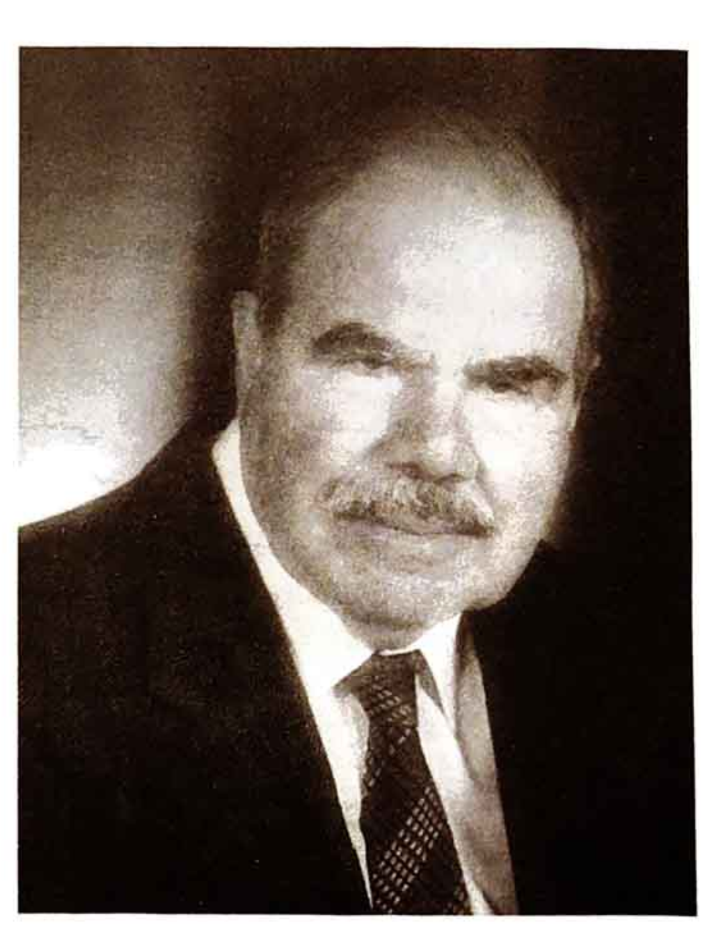
٤ـ يضاف إلى ذلك عدد كبير من المقالات المخطوطة والمقالات التي لم يسبق نشرها ، وبعضها بالفرنسية والعربية

* * *

المراجع

١ـ عدد من مؤلفات وصفي زكريا
٢ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش .
٣ـ معالم وأعلام ـ أحمد قدامة
٤ـ أعداد مختلفة من الصحف والمجلات السورية القديمة

* * *



د. عَبْدُاللهِ عَبْدُالدّائم

الفِكرُ القَومي .. وَالفكر التَربَوي

١٩٢٤ - ...

عَلَم بارز من أعلام الفكر والتربية في الوطن العربي

له في مجال الفكر عامة ، والقومي بشكل خاص ، عطاء مميز

وله في ميدان الفكر التربوي ، وتطور النظم التربوية ما لم يتهيأ لسواه

قدمت له نشأته وخطواته الأولىٰ زاداً لا ينضب

تولىٰ عشرات المناصب ، وأدىٰ عشرات المهمات وضع عشرات الكتب

دؤوب علىٰ العمل يجد فيه متعته وسعادته .

حريص علىٰ العطاء ، وارتياد آفاق فكرية وعلمية جديدة

لم يعرف الوطن العربي ـ بعد ساطع الحصري ـ من استطاع أن يجمع بين العمل القومي والعمل التربوي ، مثل هذا الإنسان الكبير الكبير ، عبد الله عبد الدائم .

إنه عبقرية عربية ، يفخر بها الوطن العربي كله .

سيرة حياته

ولد عبد الله ابن الشيخ أحمد عبد الدائم في مدينة حلب عام ١٩٢٤ ، وينتمي إلىٰ أسرة حلبية ، ذات مكانة علمية دينية مرموقة أما أمه فتنتمي إلىٰ عائلة السقا الحمصية المعروفة .

قضىٰ عبد الله جانباً كبيراً من حياته ، متنقلاً بين العديد من المدن السورية ، بحكم عمل والده . وأمضىٰ معظم أيام شبابه في حمص ، إلىٰ أن استقر به المقام في دمشق منذ عام ١٩٤٨

نشأ عبد الله في أسرة شديدة التمسك بأهداب الدين ، واشتهر فيها عدد من العلماء . وقد درس والده علوم الدين في المدرسة الخسروية بحلب

وبعد تخرجه ، أكمل دراسته الدينية في الأستانة أيام الحكم العثماني

هذه الأجواء الدينية التي تربىٰ فيها عبد الله ، تركت لديه آثاراً باقية فقد اطلع علىٰ علوم الدين منذ حداثته ، وحفظ كثيراً من الرسائل الدينية ، كما حفظ ألفية ابن مالك في النحو ، وهو في التاسعة من العمر وتوفر علىٰ قراءة القرآن الكريم ، وحفظ شطراً كبيراً منه منذ عهد الصبا وكان حصاد هذا كله ، بالإضافة إلىٰ المطالعة المركّزة في التراث الفكري الإسلامي ، إدراكه لعمق العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام

في مرحلة التعليم الثانوي ، ظهر اهتمامه الكبير باللغة الفرنسية واستهوته قراءة آثار كبار الروائيين الفرنسيين وفي مقدمتهم اونوريه دوبلزاك ومارسيل بروست وكذلك الشعر الفرنسي الكلاسيكي والرومانتيكي وقد أقبل علىٰ قراءة هذا الأدب بنهم لا يشبع ، وظمأ لا يرتوي

لم يصرفه تعلقه بالأدب الفرنسي عن عشقه للأدب العربي قديمه وحديثه قرأ في كتب التراث روائعه ، وقرأ في الأدب الحديث ما أبدعه طه حسين ، والعقاد والمازني والزيات . . وأعجب بشكل خاص بشوقي وحافظ .

وكانت نتيجة هذه المطالعات اختياره فرع الأدب القديم في صف البكالوريا .

وفاز في النهاية بفرعي الأدب والعلوم ، وكان من الناجحين الأوائل

وفاز كذلك بالبكالوريا الثانية ، قسم الفلسفة ، عام ١٩٤٣

وتقدم الأستاذ عبد الله إلىٰ المسابقة التي أجرتها وزارة المعارف للدراسة في القاهرة ، بدلاً من باريس ، بسبب ظروف الحرب العالمية

الثانية ، للحصول على الليسانس ، فكان الناجح الأول في قسم الفلسفة .
وسافر عبد الله إلى القاهرة ، والتحق بجامعتها ، وتخرج عام ١٩٤٦ وكان الأول بين خريجي ذلك العام

بعد حصوله على الليسانس من كلية الآداب المصرية ، رحل إلى باريس ، وانتسب إلى جامعة السوربون ، وحصل في نهاية المطاف على دكتوراه الدولة في الآداب عام ١٩٥٦ بدرجة مشرف جداً

والدكتور عبد الله عبد الدائم يجيد من اللغات الفرنسية والإنكليزية ، وله إلمام بالألمانية واللاتينية

الوظائف التي شغلها

- استاذ فلسفة في ثانويتي دمشق وحمص ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨
- أستاذ في كليتي التربية بجامعة دمشق منذ عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٦
- أستاذ كرسي أصول التربية ، ورئيس قسم أصول التربية بجامعة دمشق من ١/ ١٢/ ١٩٦٠ إلى ٢٨/ ٢/ ١٩٦٦
- مدير عام لمعارف حكومة قطر ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨
- مدير الشؤون الثقافية بوزارة الإرشاد القومي في سورية ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠
- وزير للإعلام في الجمهورية العربية السورية ١٩٦٢
- وزير للإعلام في الجمهورية العربية السورية ١٩٦٤
- وزير للتربية في الجمهورية العربية السورية ١٩٦٦

ـ أستاذ التخطيط التربوي في المركز الإقليمي لتخطيط التربية وإدارتها في البلاد العربية ـ بيروت من آب ١٩٦٢ إلىٰ نيسان ١٩٧٢

ـ أستاذ بكلية التربية بالجامعات اللبنانية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٥

ـ خبير التخطيط التربوي في المركز الديمغرافي بالقاهرة التابع لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٧١

ـ مدير مشروع اليونسكو لتطوير التربية في سلطنة عُمان ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦

ـ ممثل اليونسكو ورئيس بعثتها في دول غربي أفريقيا (نيجيريا ، بينين ، غانا) من أيلول ١٩٧٦ إلىٰ تشرين الأول ١٩٧٨

ـ رئيس قسم مشروعات التربية في البلاد العربية وأوروبا بمقر اليونسكو في باريس (تشرين الأول ١٩٧٨ ـ أيلول ١٩٨٥) .

ـ عضو لجنة تقويم النظام التربوي في الكويت (تشرين الأول ١٩٨٥ ـ إلىٰ تشرين الأول ١٩٨٧)

ـ عضو مراسل في مجمع اللغة العربية ـ بدءاً من عام ١٩٩٢

ـ عضو في مجلس أمناء « مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت منذ عام ١٩٧٤ إلىٰ اليوم »

ـ عضو المؤتمر القومي منذ عام ١٩٩٣ إلىٰ اليوم .

ـ عضو المؤتمر القومي الإسلامي منذ عام ١٩٩٥ إلىٰ اليوم .

أهم مؤلفاته الفكرية والقومية

١ ـ دروب القومية العربية ـ بيروت دار الآداب ١٩٥٨

٢ ـ التربية القومية ـ بيروت ـ دار الآداب ١٩٥٩

٣ ـ القومية والإنسانية ـ بيروت ـ دار الآداب ١٩٥٧

٤ ـ الاشتراكية والديمقراطية ـ بيروت ـ دار الآداب ١٩٦١

٥ ـ الجيل العربي الجديد ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٦١

٦ ـ الوطن العربي والثورة ـ بيروت ـ دار الآداب ١٩٦٣

٧ ـ التخطيط الاشتراكي ـ دمشق ـ وزارة الثقافة ١٩٦٥

٨ ـ في سبيل ثقافة عربية ذاتية ـ بيروت ١٩٨٣

٩ ـ منبعا الأخلاق والدين ـ مترجم عن برغسون ـ بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٤

١٠ ـ الضحك ـ مترجم عن برغسون ـ بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٥

١١ ـ القومية العربية والنظام العالمي الجديد ـ دار الآداب ١٩٩٤

١٢ ـ إسرائيل وهويتها المحترقة ـ بيروت ١٩٩٦

١٣ ـ دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٩٨

١٤ ـ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ـ أصولها وأسبابها وآثارها السياسية والفكرية والأدبية في الحياة العربية ـ دار الطليعة بيروت ١٩٩٨

١٥ ـ صراع اليهودية مع القومية الصهيونية ـ دار الطليعة ـ بيروت ٢٠٠٠

أهم مؤلفاته التربوية

١ ـ التخطيط التربوي ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة التاسعة ١٩٩٩

٢ ـ التربية التجريبية والبحث التربوي ـ دار العلم للملايين ١٩٨٨

٣ ـ التربية عبر التاريخ ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٧٧

٤ ـ التربية العامة ـ مترجم عن أوبير ـ دار العلم للملايين ١٩٩٦

٥ ـ التنبؤ بالحاجات التربوية ـ مترجم عن بارنس ـ بيروت ١٩٦٤

٦ ـ الثورة التكنولوجية في التربية العربية ـ دار العلم للملايين ١٩٨١

٧ ـ الجمود والتجديد في التربية المدرسية ـ مترجم ـ دار العلم للملايين ١٩٩٥

٨ ـ التربية في البلاد العربية ـ دار العلم للملايين ١٩٩٨

٩ ـ التربية والعمل العربي المشترك ـ دار العلم للملايين ١٩٨٨

١٠ ـ التربية وتنمية الإنسان في الوطن العربي ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٩٧

١١ ـ المدارس الحديثة ـ مترجم ـ عدد خاص من مجلة المعلم العربي ـ دمشق ١٩٥٣

١٢ ـ نحو فلسفة تربوية عربية ـ بيروت ٢٠٠٠

١٣ ـ بحث مقارن عن الاتجاهات السائدة في الواقع التربوي في البلاد العربية ـ ١٩٩٣

١٤ ـ مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية ـ تونس ١٩٩٥

١٥ ـ الاستراتيجية العربية للتربية ـ تونس ١٩٩٦

١٦ ـ الآفاق المستقبلية للتربية في البلاد العربية ـ دار العلم للملايين ٢٠٠٠

بالإضافة إلىٰ مئات المحاضرات والأبحاث المنشورة في المجلات العربية والأجنبية ، ومنها « الآداب » البيروتية ، و« العربي » الكويتية

نضاله الميداني

إلىٰ جانب العطاء الثقافي والتربوي الذي قدمه الدكتور عبد الله عبد الدائم ، هناك عطاء ميداني واسع ، بدأه منذ فجر شبابه . فقد ناضل في صفوف حزب البعث منذ عام ١٩٤٢ وكان طالباً في جامعة القاهرة ، مؤمناً إيماناً راسخاً بأهمية الوحدة العربية . وقد أكد إيمانه بالوحدة ، عندما تولىٰ ، علىٰ كره منه وزارة الأعلام في حكومة الدكتور بشير العظمة عام ١٩٦٣ . وكان علىٰ رأس أهدافها المعلنة ، إعادة الوحدة مع مصر ، علىٰ أسس سليمة . ولما ثبت له أن الوزارة ليست جادة في موضوع الوحدة ، استقال من الوزارة ، بعد فترة قصيرة من توليها .

وظل الدكتور عبد الدائم ينشط في مجال الدعوة القومية بأشكال مختلفة فكراً وعملاً وتجلىٰ نشاطه في هذا الميدان ، منذ عام ١٩٧٤ ، وذلك بإسهامه في تأسيس مركز « دراسات الوحدة العربية » في بيروت ، وفي عضويته لمجلس أمناء هذا المركز كما تجلىٰ في مشاركته بنشاطات « المؤتمر القومي الإسلامي » ، وفي معظم المؤتمرات والندوات الفكرية والقومية ، التي عقدت علىٰ الساحة العربية في العقود الأخيرة

وفي مجال العمل التربوي الميداني في البلاد العربية ، أسهم الدكتور

عبد الدائم ، منذ عام ١٩٦٣ بشتىٰ الوسائل في تطوير نظم التربية في مختلف البلاد العربية وكان أول انجاز له في ميدان تطوير التربية في البلاد العربية ، اسهامه في وضع اتفاقية « الوحدة الثقافية » بين مصر والأردن وسورية عام ١٩٥٩ ، فقد كان ممثل سورية في وضع هذه الاتفاقية

وبين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٧٠ عمل خبيراً وأستاذاً للتخطيط التربوي والإدارة التربوية في « المركز الإقليمي » لتخطيط التربية وإدارتها في البلاد العربية ، ومركزه بيروت ، الذي تم إنشاؤه بالتعاون مع الدول العربية واليونسكو

وقد أتاح له عمله هذا ، أن يتولىٰ تدريب الأفواج المتتالية من كبار موظفي التعليم في الدول العربية ، التي كانت توفد إلىٰ المركز

كذلك أتاح له عمله في اليونسكو بباريس بين عام ١٩٧٨ وعام ١٩٨٥ أن يشرف علىٰ توليد وتنفيذ العديد من مشروعات التربية في البلاد العربية ، التي أوكل أمر تنفيذها إلىٰ منظمة اليونسكو ، بالإضافة إلىٰ ترؤسه للعديد من البعثات ، التي كانت توفدها اليونسكو إلىٰ بعض البلدان العربية ، لدراسة حاجاتها التربوية ، واقتراح المشروعات ، التي يمكن أن تسهم في تمويلها بعض المنظمات الدولية

عقب مغادرته منظمة اليونسكو ، بسبب إحالته إلىٰ التقاعد ، شارك في نهاية عام ١٩٨٥ وأواخر عام ١٩٨٧ في « تقديم نظام التربية » في الكويت ، ووضع تقريراً مفصلاً عن واقع التعليم في الكويت ووسائل تطويره

وهذا بالإضافة إلىٰ مشاركته في كثير من المشروعات التي وضعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وعلىٰ رأسها استراتيجية تطوير

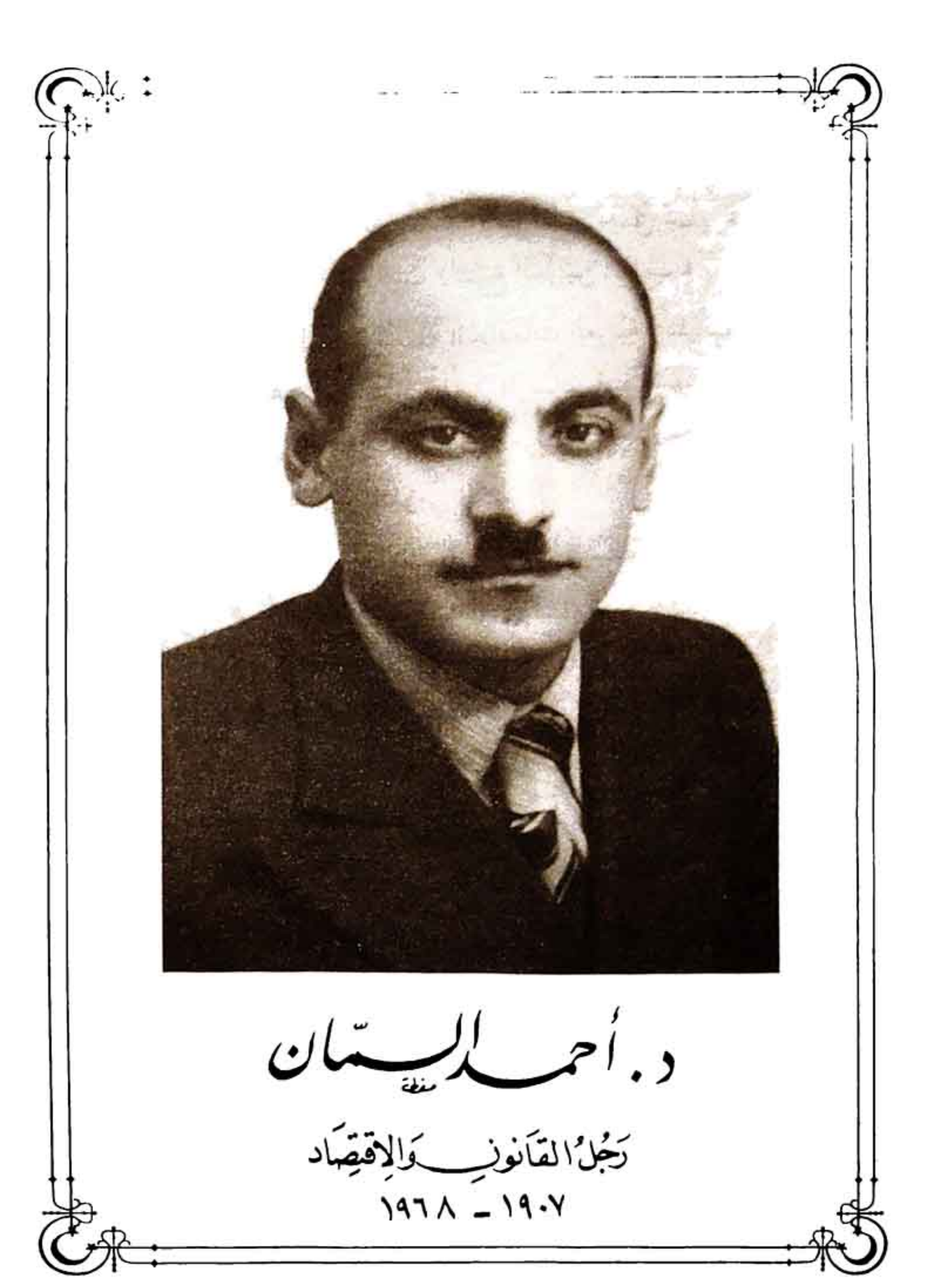
التربية ، التي صدرت عام ١٩٧٨ ، تلك الاستراتيجية ، التي أوكلت إليه المنظمة أمر مراجعتها في ضوء جديد العصر وقد أتم ذلك عام ١٩٩٥

ومن العسير إحصاء أعمال الدكتور عبد الله عبد الدائم في ميدان التربية فكراً وعملاً ، لأنها تندُّ عن الحصر ، الأمر الذي حمل جمهرة المربين في البلاد العربية ، أن يطلقوا عليه لقب « شيخ المربين العرب »

ونتاج الدكتور عبد الدائم تتلقفه الجامعات العربية وكليات التربية بوجه خاص ، منذ نحو نصف قرن . إن بعض الرسائل لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه ، في بعض جامعات الدول العربية ، اختارت موضوعاً لها ، الفكر التربوي عند هذا المربي القومي الكبير .

ولا غرابة بعد ذلك ، أن تمنحه « مؤسسة سلطان العويس الثقافية » جائزة المؤسسة في ميدان الدراسات الإنسانية ، لدورة عام ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣

* * *



د. أحمد السمّان

رجل القانون والاقتصاد

١٩٠٧ - ١٩٦٨

كان واحداً من رجالات سورية الأعلام

كان عالماً من علماء القانون

ورجلًا من رجال الاقتصاد البارزين

وضع في القانون عدداً من المؤلفات القيمة ، وترجم عدداً آخر

كان كتلة من الحيوية والنشاط

تخاطفته الشركات الوطنية المساهمة ، وتسابقت للفوز بآرائه وتوجيهاته السديدة .

شغل مناصب رفيعة في كلية الحقوق ، ثم صار رئيساً للجامعة السورية

أحب العمل الوطني ، وكره السياسة وهمومها

لم ينتسب إلىٰ حزب ، ولم يحاول الوصول إلىٰ منصب سياسي

كان الدكتور أحمد السمان ، يتمتع بحب واحترام مختلف الطبقات والأوساط .

مولده ونشأته

أبصر الطفل أحمد بن عبد العزيز السمان النور في حي الشاغور بدمشق في العام ١٩٠٧ ، وينتمي إلىٰ أسرة عريقة ومحافظة

تلقىٰ علومه الابتدائية في إحدىٰ المدارس ، والثانوية في مكتب عنبر والتحق بعد ذلك بالمعهد العربي ، وتخرج منه حاملاً إجازة الحقوق

سافر من ثم إلىٰ فرنسا وفي باريس تابع دراسته الجامعية ، ونال شهادة اختصاص في العلوم الجنائية من معهد العلوم الجنائي بباريس وفاز بشهادة العلوم الاجتماعية من جامعة باريس ثم فاز بالدكتوراه في العلوم الاقتصادية والسياسية من كلية الحقوق في باريس .

بعد العودة إلىٰ الوطن

بعد أن حصد الدكتور أحمد السمان هذه الشهادات العالية ، عاد إلىٰ أرض الوطن ليعمل محامياً متمرناً في مكتب الأساتذة المحامين الكبار فوزي الغزي[١] ، وبهجت الشهابي وإحسان الشريف

ثم عمل أستاذاً مساعداً في كلية الحقوق بدمشق عام ١٩٣٨

وعُيِّن بعد ذلك مفوضاً مقرراً في مجلس الشورىٰ

ومرة أخرىٰ عاد إلىٰ كلية الحقوق ، ليصبح فيها أستاذاً للاقتصاد

وفي سنة ١٩٥٤ أصبح عميداً لكلية الحقوق

عين بعد ذلك رئيساً للجامعة السورية وظل في منصبه هذا إلىٰ أوائل العام ١٩٦١

أحيل إلىٰ التقاعد في العام ١٩٦٣ لدىٰ بلوغه السن القانونية

ورحل رجل القانون والاقتصاد إلىٰ جوار ربه في العام ١٩٦٨ ، مأسوفاً علىٰ علمه الغزير ، وأخلاقه الرفيعة

نظرة في حياته وأعماله

كان الدكتور أحمد السمان ، وهو والد الأديبة الكبيرة غادة السمان ، واحداً من رجالات الوطن ، واسع العلم ، غزير المعرفة ، يشتعل حماسة وحيوية ، حريصاً علىٰ بذل أقصىٰ ما يستطيع لخدمة وطنه ومواطنيه

علىٰ المستوىٰ الاقتصادي ، كان الدكتور السمان ، عنصراً كبيراً وفعالاً في نهضة سورية الاقتصادية الحديثة ، فقد انتُخب أميناً لسر شركة الصناعات

---

(١) انظر دراسة مفصلة لحياة وأعمال الوطني الكبير فوزي الغزي في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف .

الزجاجية ، وشركة صنع السكر والمنتجات الزراعية ، وشركة الطيران السورية كذلك شارك بتأسيس شركة المصابغ الفنية وكان المشاور الاقتصادي لجمعية التجار الدمشقية وقد عُيّن ممثلاً لسورية في اللجنتين الثقافية والاقتصادية لجامعة الدول العربية

كل هذه المسؤوليات الاقتصادية الجسيمة ، كان الدكتور السمان يحملها على عاتقه ، وتتسابق معظم الشركات الوطنية للإفادة من علمه وخبرته

بقي أن نقول إن أحمد السمان ، شارك في مطلع حياته السياسية بتأسيس « الشباب الوطني » ، وعندما قام الزعيم الوطني فخري البارودي بتأسيس منظمة « القمصان الحديدية » ، التي لعبت دوراً بارزاً في مرحلة الكفاح الوطني ، كان السمان في عداد الهيئة العليا للمنظمة المذكورة

بعد هذا النشاط الكبير ، الذي مارسه الدكتور السمان في حياة سورية الثقافية والاقتصادية ، يحق للقارئ أن يسأل عن ميوله واتجاهاته السياسية ، ولماذا لم يصبح في عداد السياسيين ، الذين شغلوا مناصب وزارية أو سياسية كبيرة في البلاد ؟ .

والجواب على ذلك ، أن أحمد السمان ، لم يكن من محترفي السياسة ، أو الساعين إلى المناصب السياسية . كان الرجل من الوطنيين المخلصين الأوفياء غير أن حبه للوطن والمواطن ، وتضحياته من أجلهما ، تقف عند الخط الأحمر ، الذي تحده السياسة ، وهمومها ومتاعبها

كان يؤثر خدمة بلاده في مجالين اثنين العلم والاقتصاد وقد رأينا في الصفحات السابقة ، أن الرجل شغل مناصب علمية رفيعة ، ولم يصرفه هذا ، عن الإسهام بالنشاط الاقتصادي ، الذي شهدته البلاد ، في مرحلة الاربعينيات والخمسينيات وما بعدهما

كان أحمد السمان وراء النجاح الكبير الذي حققته الشركات المساهمة ،

التي أشرف على شؤونها وإدارتها وكان في الوقت نفسه ، لا يضن بمشوراته وتوجيهاته على شركات عديدة أخرى

كان أحمد السمان أحد رجالات الوطن الأعلام ، الذين بنوا للأمة مجدها العلمي ، وأرسوا بناءها الاقتصادي الشامخ

كتبه وآثاره

هذا النشاط المميز ، والدور الكبير الذي قام به الدكتور أحمد السمان ، لم يمنعه من تقديم عدد كبير من المؤلفات القانونية بعضها من تأليفه وفيض علمه ، وبعضها مما آثر ترجمته من كتب علماء القانون . وفيما يلي بيان بهذه الآثار القيمة

١ ـ المقدمة لدراسة علم الحقوق ـ لمؤلفه ج. استيف ، مترجم عن الفرنسية ـ ١٩٣٨

٢ ـ الحقوق الدستورية ـ مترجم عن الفرنسية ـ ١٩٣٨

٣ ـ موجز الاقتصاد السياسي ـ ثلاثة أجزاء ـ عدة طبعات ١٩٤٨ ـ ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢

٤ ـ تشريع العمل السوري ١٩٤٧ ـ وتشريع العمل بالاشتراك مع جورج عشي ١٩٥٩

٥ ـ الوقائع والنظريات الاقتصادية في العصر الحديث ـ دمشق ١٩٤٧ ـ ٣٨٠ صفحة

٦ ـ نظام النقد السوري ـ بالفرنسية ١٩٣٥

٧ ـ تاريخ المذاهب الاقتصادية

٨ ـ علم الاقتصاد السياسي ـ ج١ ١٣٨ صفحة ١٩٦٠

٩ ـ الاقتصاد السوري

١٠ ـ محاضرات في اقتصاديات سورية ـ منشورات معهد الدراسات العالية ـ القاهرة ـ ١١٦ صفحة

١١ ـ المجتمع العربي ـ دمشق ـ دار الفكر العربي ـ ٢٥٦ صفحة ١٩٦٢

* * *

المراجع

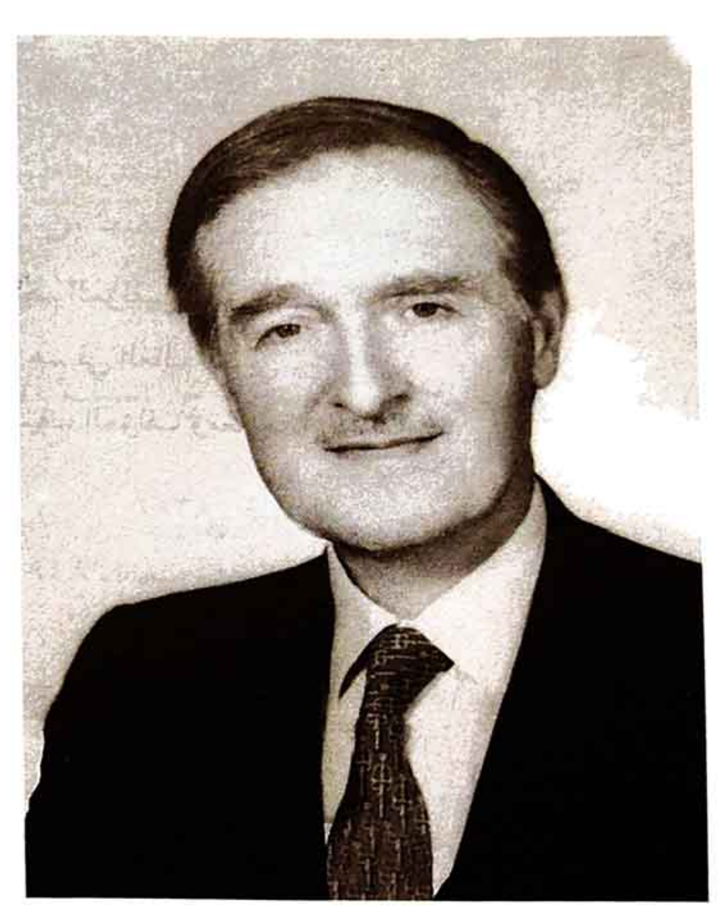
١ ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش

٢ ـ من هم في العالم العربي

٣ ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة

* * *





د. أديب الدّاودي

عبقريةٌ متألقة، ونضالٌ صامتٌ

١٩٢٣ - ...

كانت حياته ـ مدّ الله في حياته ـ حافلة بالأعمال الجليلة ، والنشاط الدبلوماسي المتواصل

تنقل في عدد كبير من السفارات ، ومثّل بلاده في كثير من المؤتمرات واللقاءات

ودافع عن بلاده بصمت وإخلاص ، في المحافل الدولية ، وفضح جرائم إسرائيل وعدوانها الدائم ، في كل مجال ومناسبة

عُيّن مستشاراً للرئيس الراحل في القصر الجمهوري ، فكان رسوله الأمين ، ورفيقه في كثير من المهام والزيارات

أنشأ في الخمسينيات مخيم اليرموك ، الذي بات يعرف بمدينة اليرموك . . . ثم أصبح أحد معالم دمشق

أشرف على بناء وزخارف القاعة الدمشقية ، إلى أن جاءت قطعة من الفن الرفيع

أديب الداودي سياسي ، ووطني ، وإداري يعتز به الوطن

سيرة حياته

أبصر الطفل أديب بن هاشم ، النور بدمشق في العام ١٩٢٣ ، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها ، وفاز بالبكالوريا الثانية عام ١٩٤٠

انتسب إلى كلية الحقوق بجامعة دمشق ونال إجازتها في عام ١٩٤٤

ورحل إلى باريس ، ودخل جامعة السوربون ، وفاز منها بشهادة الدكتوراه في الحقوق عام ١٩٤٩

بدأ حياته العملية عام ١٩٤٤ ، حين دخل سلك وزارة الخارجية

في عام ١٩٤٣ أوفد إلى وزارة الخارجية المصرية ، لقضاء فترة تدريب ، اطلع خلالها على مختلف أعمال الوزارة وتنظيمها ، وأعدّ تقريراً مفصلاً ، ساعد على تنظيم وزارة الخارجية السورية ، وكانت حديثة التأسيس .

نقل عام ١٩٤٥ إلى باريس ، ملحقاً بالمفوضية السورية وكُلف بالشؤون القنصلية ، بعد أن عمل في الإدارة المركزية سنتين سكرتيراً لوزير الخارجية

خلال وجوده في باريس انتسب إلى جامعة السوربون وحصل على الدكتوراه في الحقوق ، وعاد إلى دمشق

عُيّن بين عامي ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ مديراً لمؤسسة اللاجئين الفلسطينيين

في عام ١٩٥٥ نقل إلى لندن ، مستشاراً بالسفارة السورية وظل في منصبه إلى أن قطعت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ، بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦

بعد قطع العلاقات السورية مع بريطانيا ، نقل مستشاراً إلى العاصمة الهندية نيودلهي عام ١٩٥٨ وبعد إعلان الوحدة بين سورية ومصر ، سُمي مستشاراً للجمهورية العربية المتحدة لغاية عام ١٩٥٩

نقل بعدها إلى باكستان مستشاراً لغاية عام ١٩٦٠

في عام ١٩٦١ رفع إلى رتبة وزير مستشار في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في براغ « تشيكوسلوفاكيا » ، واستدعي إلى القاهرة ، لتقديم تقرير عن تقييمه لدورة الأمم المتحدة القادمة ثم أوفد عضواً كوزير مستشار وكلف بأن يكون المتحدث المسؤول عن مناقشات قضية فلسطين ومشكلة اللاجئين في الأمم المتحدة .

بعد انتهاء الوحدة السورية المصرية ، استعادت سورية مقعدها في هيئة الأمم ، ونقل الدكتور الداودي ثانية إلى الهند ، سفيراً لسورية بين عامي ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤

في عام ١٩٦٤ نقل إلى الإدارة المركزية ، وعُيّن أميناً عاماً مساعداً للشؤون السياسية . في ذلك الوقت ، أخذ عدوان إسرائيل يزداد على مختلف الجبهات ، وكانت سورية تلجأ إلى مجلس الأمن شاكية العدوان المتكرر

وكان الدكتور الداودي يشارك في عضوية الوفد السوري في الدورات العادية والاستثنائية للأمم المتحدة ومجلس الأمن ويلقي خطباً ، ويجري مشاورات فعالة خلال المناقشات

خلال عمله كأمين عام مساعد للشؤون السياسية أوفد إلى مجلس الأمن في أيار ١٩٦٧ ، وألقى هناك خطابين ، حذر فيهما من عدوان إسرائيلي واسع النطاق ، وأكد أن إسرائيل باتت جاهزة للحرب ، وهي تنتظر الفرصة المناسبة لبدء هذه الحرب وبالفعل أقدمت إسرائيل ـ كما هو معروف ـ على عدوانها الكبير في الخامس من حزيران وبعد العدوان ظل الدكتور الداودي في واشنطن ، يتابع مناقشات مجلس الأمن ، ويجري الاتصالات مع الأمين العام للأمم المتحدة ، ومع الوفود العربية والأجنبية ، بناء على طلب الخارجية السورية

وفي عام ١٩٦٨ كلفته وزارة الخارجية بأن يرأس الوفد السوري إلى مؤتمر حقوق الإنسان ، الذي عقد في طهران فقام وأعضاء الوفد بنشاط مكثف ، واغتنمها مناسبة لفضح تصرفات إسرائيل وخرقها حقوق الإنسان في الأراضي العربية المحتلة . وألقى العديد من الخطب والمداخلات حول عدوان إسرائيل واحتلالها الأرض العربية

بعد أن أمضى د . داودي خمس سنوات ، كأمين عام مساعد للشؤون السياسية ، صدر عام ١٩٦٩ مرسوم بنقله إلى منصب سفير مقيم في بلجيكا والسوق الأوروبية المشتركة ، وسفير غير مقيم لدى هولندا واللكسمبورغ

لدى وقوع حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ ، كان الدكتور داودي يعقد المؤتمرات الصحفية ، ويتحدث في التلفزيون البلجيكي والهولندي ، لبيان العدوان التوسعي الذي تمارسه إسرائيل . كان يؤكد أن الغاية من هذه الحرب ، استعادة الأراضي العربية المغتصبة

في عام ١٩٧٤ نقل د داودي من بروكسل إلى الإدارة المركزية ثم صدر مرسوم جمهوري بتعيينه مستشاراً للرئيس الراحل حافظ الأسد واستمر الداودي في عمله هذا سبع سنوات (١٩٧٤ ـ ١٩٨١) ، قام خلالها بمهمات عديدة لدى رؤساء الدول العربية ورافق الرئيس الراحل في أكثر رحلاته الرسمية إلى الدول العربية ، وإلى إيران وكوريا الديمقراطية وفرنسا وألمانيا

عندما تقرر عقد اللقاء بين الرئيس السوري والرئيس الأميركي جيمي كارتر في جنيف ، كلف د الداودي بالسفر إلى هناك ، على رأس وفد رسمي للتحضير لهذا اللقاء ثم حضر الداودي جميع اللقاءات التي عقدت بين الرئيسين

وقد أسندت إليه مهمة التحضير المسبق لجميع الزيارات الرسمية التي تمت مع رؤساء الدول العربية والأجنبية في دمشق ، والتي قام بها الرئيس السوري إلى العواصم الأجنبية

الإشراف على القاعة الدمشقية

كلف الرئيس الراحل الدكتور أديب الداودي بالإشراف الكامل على هيكل استقبالات رؤساء الدول ، التي سُمِّيت بالقاعة الدمشقية ، واختيار الديكور المناسب لها . وكان مهندسون ناشئون يعملون في مؤسسة الإسكان العسكرية ، قد أُسندت إليهم هذه المهمة وقد بدأوا بالمرحلة الأخيرة من تصميم الصالونات ، واختيار الديكور لها . وحين زار الدكتور الداودي هيكل القاعة ، وعرف الديكور الذي أوصى المختصون بطلبه ، لم يجد في تصميم القاعة ما يناسب سهولة الحركة والتنقل بين أبهائها . كما فوجئ بالديكور الذي لا تربطه بتراثنا ، ولا بفن التزيين الخشبي العريق أية صلة فاستأذن بالسماح له بالتصرف ، لكي تعكس القاعة طابعاً سورياً ، على طريقة البيوت الدمشقية والحلبية المعروفة . وكان تصميم الديكور على الجدران يقضي بأن تُغطى

بالخيش وأسلاك الألمنيوم ، فقد تعيين ها بالكامل واتفق مع مديرية المتحف الوطني على استعمال الخشب الذي يزين البيوت العربية كما أوصى أن تكون صالة الاستقبال التي يُستقبل بها الضيف الكبير ، مزينة بالرخام ، وتنساب المياه من جدرانه

كان هذا متوافراً في المتحف الوطني بدمشق ثم اختار أن يتم تزيين الجدار الكبير ، في قاعة الاستقبال الكبرى ، نموذجاً يقلد موزاييك الفسيفساء على جدار المسجد الأموي وقد أمضى بالإشراف على هذا العمل الفني أربع سنوات كانت نتيجته تحفة فنية رائعة ، سواء من خشب الجدران أو الخطوط التي تمثل مختلف العهود الإسلامية وكان أهم ما نجح فنياً ، هو شغل الفسيفساء وكان تقليداً للجدار الذي تغطيه على امتداد عشرات الأمتار ، فسيفساء من إنتاج مصنع الفسيفساء التابع للجامع الأموي ، والذي يخيل إليك أنك تشاهد فسيفساء ترجع إلى مئات السنين على جدران الجامع الأموي

أزمة الرهائن الأميركيين

عندما قامت الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ ، أحاط الطلاب المشاركون بالثورة بالسفارة الأميركية ، بمن فيها من الموظفين ، وعددهم إثنان وخمسون ، من دبلوماسيين وحراس وسكرتيرات وضربوا طوقاً حولها ، ومنعوا الخروج منها ، أو الدخول إليها ونشبت أزمة حادة في العلاقات بين إيران والولايات المتحدة وقد لجأ الأميركيون يومذاك إلى الأمين العام الدكتور كورت فالدهايم لإيجاد حل لهذه المشكلة . فشكل الأمين العام لجنة دولية . ووقع اختياره على د . داودي ليمثل الشرق الأوسط وغرب آسيا بهذه اللجنة وقد بذلت اللجنة جهوداً مضنية من أجل حل « أزمة الرهائن » غير أن جهود العالم كله ، لم تثمر يومذاك . ثم وقع اختيار فالدهايم على أديب الداودي ، ودعاه أن يكون ممثلاً شخصياً له في حل الأزمة كان هذا الاختيار دليل ثقة كبرى بالمستشار السياسي د داودي ،

فاستأذن هذا من المراجع العليا فأذنت له وبذل الرجل جهوداً مضنية مع المسؤولين الإيرانيين ثم حمّلوه رسائل جوابية إلى الأمين العام غير أن الغاية التي ذهب من أجلها ، وقطع المسافات الشاسعة ، لم تثمر

العودة إلى وزارة الخارجية

تعرض الدكتور داودي بعد ذلك لظروف صحية قاسية وقد نصحه الأطباء بالتخفيف من هذا الجهد والتزام بعض الراحة من أجل هذا أعيد إلى وزارة الخارجية ، بعد أن عمل مستشاراً في القصر الجمهوري سبع سنوات (١٩٧٤ ـ ١٩٨١) وعين بعدها سفيراً ومندوباً دائماً للأمم المتحدة في جنيف (١٩٨١ ـ ١٩٨٨)

ولما كانت لجنة حقوق الإنسان ، ومقرها جنيف ، تعقد دورتها السنوية لمدة ستة أسابيع ، فقد أتيحت له مناسبات كثيرة مهمة ، فضح خلالها الممارسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة وقد استند فيها إلى مصادر ومعلومات لا يرقى إليها الشك وقدم الأدلة القاطعة على الأعمال الوحشية التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي المحتل ، من تدمير للبيوت واعتقالات لمدة غير محدودة ، وتعذيب همجي ، ينتهي أحياناً بموت المعتقلين

وبعد نحو سنة من عمله في جنيف ، سمي سفيراً لدى الفاتيكان ، مع استمرار إقامته في جنيف . وقد أمضى في عمله الإضافي هذا ست سنوات (١٩٨٢ ـ ١٩٨٨) كانت حافلة بالأحداث

التقاعد . . . والتفتيش في الأمم المتحدة

عندما انتخب الدكتور الداودي في الجمعية العامة للأمم المتحدة عضواً في هيئة التفتيش عام ١٩٨٨ ، أحيل إلى التقاعد من الخارجية السورية ، وتسلم مهام عمله طوال خمس سنوات (١٩٨٨ ـ ١٩٩٢) . وهذه الهيئة تتألف من أحد عشر عضواً ، يمثلون مختلف مناطق العالم الجغرافية وقد تم انتخابه عن

منطقة غرب آسيا والشرق الأوسط ولدى انتهاء السنين الخمس ، التي أمضاها الدكتور الداودي ، كان نائباً لرئيس هيئة التفتيش ، ثم أصبح رئيساً لها في آخر عام ١٩٩٢

مواقف مضيئة في حياته

بعد تقديم هذا العرض الموجز لحياة د أديب الداودي وأعماله ، لا بد لنا من وقفة مع بعض ما سهونا عن ذكره ، وهو لا يخلو من أمور تستحق التسجيل

من ذلك أنه عندما عُيّن مديراً لمؤسسة اللاجئين الفلسطينيين ، لاحظ أن المعلومات عن أوضاع العدو الإسرائيلي حتى لدى المسؤولين ، غير كافية لذا أنشأ دائرة للترجمة عن اللغة العبرية ، يقوم أناس تعلموا هذه اللغة، وباتوا قادرين على قراءة الصحف الإسرائيلية التي تصدر في الأرض المحتلة وبدأت الصحف المذكورة تصل إلى المؤسسة كل يوم ، عن طريق قبرص والأردن وبدأت المؤسسة تصدر نشرة نصف أسبوعية تتضمن آخر الأخبار والتعليقات والمعلومات الضرورية وصارت توزع على جميع الوزارات والمؤسسات والصحف والدوائر والجيش والجامعات وهي تتضمن أخباراً عن الهجرة اليهودية ، واستملاك أراضي الفلسطينيين ، والأوضاع الاقتصادية ، وتذيع أخبار العدو من مصادرها

وظلت النشرة مستمرة بالصدور ، إلى أن توقفت ، بعد أن نقل الدكتور الداودي سفيراً لسورية في لندن

إلى جانب هذه النشرة ، لاحظ الدكتور الداودي ، أن المؤسسة لا تحتفظ بنصوص القرارات التي تصدرها الأمم المتحدة . وهي وثائق على جانب كبير من الأهمية والخطورة . ويضطر الباحث إلى الغوص في عدد من الملفات ، كي يستخرج أحد القرارات ، لذا أمر بإخراج جميع مراسلات الوفد السوري

الدائم ، والقرارات الصادرة عن أجهزة هيئة الأمم ، وبعد جهود مضنية ، وبالتعاون مع وزارة الخارجية والخوض في الأكياس القديمة والمهملات ، تم إخراج ما يلزم من هذه المراسلات والقرارات ثم أخذ عدد من الموظفين بتصنيف هذه الوثائق وصارت المؤسسة تتولى طبعها وإصدارها في ملاحق سنوية

قصة مخيم اليرموك كاملة

مخيم اليرموك في دمشق ، الذي يضم أكثر من أربعمئة ألف من أخوتنا الفلسطينيين ، هذا المخيم كيف نشأ وتطور ، ثم تحول إلى مدينة ؟ هل بين إخوتنا الفلسطينيين من يعرفها ؟

الدكتور أديب الداودي ، الذي كان مدير مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين كتب مقالاً روى فيه قصة هذا المخيم بكامل تفاصيلها ومن هذا المقال نقتطف المعلومات التالية

بعد انتهاء حكم العقيد أديب الشيشكلي في شباط ١٩٥٤ تشكلت وزارة الأستاذ سعيد الغزي . وكانت الوزارة تضم وزيراً للداخلية هو الأستاذ علي بوظو وكانت الوزارة تتولى التحضير للانتخابات النيابية

في تلك المرحلة كان عشرات الألوف من اللاجئين يقطنون أكثر من مئة مسجد ، يطبخون فيها وينامون ، ويلعب أطفالهم في باحات المساجد وقد تعذر على المواطنين السوريين أداء صلواتهم في المساجد هنا راودت الدكتور الداودي فكرة إخلاء المساجد ولكن حالت دون ذلك مصاعب كثيرة فلما تولى الأستاذ سعيد الغزي رئاسة الوزارة ، عرض الداودي عليه فكرة إخلاء المساجد ، بعد أن وجد أرضاً في حي الميدان ، ووافق أصحابها على تأجيرها ، وبناء بيوت للاجئين عليها وبعد لقاءات عديدة بين مدير المؤسسة ورئيس الوزارء ووزير الداخلية ، ووافق الأستاذ علي بوظو على إخلاء

المساجد ، واشترط سرعة تنفيذ البناء

وبادر مدير المؤسسة إلى الاتفاق مع وكالة إغاثة اللاجئين على تمويل المشروع ، وإمداده بمبلغ من المال لكل أسرة ، حسب عدد أفرادها ومساحة البيت الذي سيبنى ، وأن تقدم له المؤسسة كذلك الحديد والإسمنت الكافيين

قوبل الخبر في بادئ الأمر بالاستخفاف والرفض من سكان المساجد ، الذين طابت لهم الإقامة فيها على ما يبدو ، فاحتجوا وتظاهروا ، ثم هددوا مدير المؤسسة بالقتل !. ولكن المؤسسة صمدت ، وبدأت بإخلاء المساجد واحداً بعد آخر . وباشرت في الوقت نفسه بتنفيذ البناء ، وأخذت البيوت ترتفع الواحد بعد الآخر وبعد أكثر من سنة ، تم إخلاء جميع المساجد ، وعددها مئة واثنا عشر مسجداً . نقل قاطنوها إلى مخيم اليرموك ، الذي أخذ يتسع يوماً بعد يوم ، وضم اللاجئين الفلسطينيين ، واستوعب عدداً كبيراً من السوريين ، الذين اشتروا قطعاً من الأرض وشيدوا عليها بيوتاً لهم

وبات اليوم مخيم اليرموك ، يحمل اسم مدينة اليرموك ، ويضم مئات الآلاف وكان الدكتور أديب الداودي صاحب فكرة بنائه وتنفيذها

* * *



محب الدين الخطيب

من أعلام النهضة العربية

١٨٨٧ ـ ١٩٦٩

كان واحداً من أعلام النهضة العربية والدعوة الإسلامية

نشأ يتيماً ، في أسرة عريقة بالعلم والخطابة والتدريس

احتضنه العلامة طاهر الجزائري ورعاه ، فكان خير تلميذ لأفضل أستاذ

تبنَّى الدعوة الإسلامية والعربية أيام العثمانيين ، فطاردوه وحكموا عليه بالإعدام

مارس نشاطه ، ودعا إلى أهدافه واستوطن القاهرة وأصدر فيها مجلتين وعدداً من الكتب القيمة

أسس في مصر جمعية الشبان المسلمين ، ولقيت حظها من النجاح والتأييد

قضى الثمانين من عمره في كفاح مستمر ، ونضال متواصل

كان قدوة في كفاحه ، لكل من يريد أن يعمل ويجاهد في سبيل مبدأ شريف يؤمن به

محب الدين الخطيب واحد من أبطالنا المكافحين المنسيين

شيء من حياته

أبصر محب الدين النور بدمشق في شهر تموز من عام ١٨٨٧ وهو ابن الشيخ أبو الفتح الخطيب ، وينتمي إلى أسرة دمشقية عريقة تُعرف بالعلم ، والصلاح ، وتمارس الخطابة والتدريس والإمامة في الجوامع

كان أبوه أمين دار الكتب الظاهرية ، منذ تأسيسها عام ١٨٧٩ إلى يوم وفاته عام ١٨٩٧

تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة الترقي النموذجي ، وكانت أرقى مدرسة في ذلك العهد ثم التحق بمكتب عنبر وفي السنة الثانية لدراسته ، فوجئ بوفاة والده وكانت أمه قد توفيت في الديار الحجازية خلال أدائها فريضة الحج ، فبات يتيم الأبوين . وهنا قيض الله لهذا اليتيم الضعيف ، العلامة الشيخ

طاهر الجزائري[1] ، فتولى رعايته والعطف عليه فأعاده إلى مكتب عنبر ، وأشرف على توجيهه ، وعرَّفه إلى علماء وشيوخ عصره ، فصحبهم ، وتأثر بهم ، وتلقى منهم علوم الدين والدنيا

وفي سنة ١٩٠٥ رحل إلى الأستانة ، والتحق بكليتي الحقوق والآداب ثم أخذ يعمل مع طلائع الشباب العرب ، ويزرع في صدور الطلاب العرب ، حب العربية ، ويدرسون معاً تاريخ الحضارة الإسلامية وهنا شعرت السلطة التركية بهذا التحرك « المشبوه » ، فأخذت تراقبه ، وتضيق الخناق عليه وعندما أحسّ بالخطر المحدق به ، لجأ للفرار إلى اليمن وفي اليمن عمل مترجماً ، وأخذ يبث روح النهضة ، ويدعو إلى القومية العربية ثم اتصل بالإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن وحاكمها ، فأشار عليه بالاتفاق مع الدولة العثمانية

في عام ١٩٠٨ ، عقب إعلان الدستور العثماني ، عاد محب الدين إلى دمشق ، ومنها رحل ثانية إلى الأستانة غير أن الإقامة فيها لم ترق له ، ولاسيما عندما وجد أن الحكام الأتراك ، ما زالوا مستمرين في مكافحة العرب . من أجل هذا ، عاد محب الدين إلى القاهرة ثانية في عام ١٩٠٩

في مصر أخذ محب الدين يمارس العمل الصحفي كاتباً ومحرراً في جريدتي المؤيد والأهرام .

عندما أعلن الشريف حسين الثورة العربية الكبرى ، عام ١٩١٦ التحق محب الدين بها وفي مكة المكرمة أصدر جريدة « القبلة » ، وأخذ يهاجم فيها الحكام الأتراك ، ويفضح عداءهم واضطهادهم للعرب فأصدروا حكماً عليه بالإعدام

عقب دخول الجيش العربي دمشق عام ١٩١٨ ، وقيام الحكم الفيصلي

---

(١) انظر ترجمة لسيرة حياته وأعماله ، في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف

فيها ، عاد محب الدين إلى أرض الوطن ، وتولى إدارة جريدة العاصمة وكانت أول جريدة عربية حكومية تصدر في دمشق

بعد معركة ميسلون ، في الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ ودخول القوات الفرنسية ، غادر محب الدين دمشق ، وعاد إلى القاهرة ، واستأنف نشاطه الصحفي

أسس بعد ذلك في عام ١٩٢٦ « دار الفتح » ، وأصدر مجلتي « الزهراء » و« الفتح » وكانت الأولى شهرية أما الثانية فكانت أسبوعية وتولى فيما بعد تحرير مجلة « الأزهر » سنوات عديدة

وتابع الأستاذ الخطيب نشاطه في عالم التأليف والنشر ، والدعوة إلى الإسلام الصحيح ، إلى أن وافاه الأجل المحتوم في القاهرة يوم الثلاثين من كانون الأول عام ١٩٦٩

نظرات في حياته وأعماله

كان الأستاذ محب الدين الخطيب شعلة من الحيوية والذكاء والغيرة على العروبة . وكان قبل هذا من أكبر الدعاة للإسلام في العصر الحديث

ينحدر ـ كما ذكرنا ـ من أسرة عريقة ، مارست الخطابة والتدريس ، والإمامة وكانت لها صلاتها الوثيقة بالتجارة وأسرته تجمع بين العمل التجاري الشريف ، والتمسك بأهداب الدين ، وخدمته ، والدعوة إليه ، وكان اتصال محب الدين بالعلامة طاهر الجزائري وتتلمذه عليه ، وعلى فئة كريمة من أهل العلم والأدب ، سبباً في إنضاج شخصيته ، وتنمية حرصه ورغبته بالدعوة إلى نشر الإسلام ، وتحرير العرب من النير التركي ، الذي لم يتردد بالحكم عليه بالإعدام ، عندما بدأ يفضح عداء الترك للعرب واضطهادهم .

كان محب الدين من رجالات العرب المجاهدين الأحرار ، دافع عن الدين والعروبة ، ونشر آراءه وأفكاره في كبرى الصحف والمجلات المصرية . . ولم

يكتف بذلك ، بل أصدر مجلتين « الزهراء والفتح » وهدفهما الدعوة للعروبة والإسلام

العروبة والإسلام معاً

لم يكن محب الدين في نشاطه وجهاده ، داعية للإسلام وحده ، بل كان يدعو كذلك إلى اليقظة العربية ونهضة العرب فكيف استطاع صاحبنا الجمع بين الدعوتين ؟

يقول محب الدين ، في ترجمته لحياته ما نصه

« كان الذين عرفتهم من رجال الفكر والإصلاح في طفولتي فريقين ، فريق الأتراك والمستتركين من رجال الإدارة والجيش ، وفريق المشتغلين بالأدب العربي والتاريخ الإسلامي وكان سبيل الأولين إلى الإصلاح ، الانضمام إلى جمعية تركيا الفتاة ، أو الاكتفاء بالاطلاع على نشراتهم ومجلاتهم ، التي تصدر من باريس والقاهرة وسبيل الآخرين العمل لبعث الثقافة العربية ، والإكثار من أولياتها والمتصلين بها وكان الشيخ طاهر الجزائري يختلط بهؤلاء وأولئك ، وتتلمذوا كلهم له وهو لا يُشعر أحداً منهم بأنه يتحزب لجمعية من الجمعيات

إلى هنا لم يكن في الميدان شيء اسمه دعوة إلى الاستقلال العربي وكل الذين يتصلون بالشيخ طاهر من ترك وعرب ، كانوا ينشدون للدولة العثمانية الإصلاح ومع ذلك فإن الشيخ كان يؤمن بأن الإسلام والمسلمين ، وعلى رأسهم العرب ، لا يصلحون إلا على مثل الأيدي التي تولت أمورهم في عصر التابعين

ويتحدث بعدها عن الأسباب التي دفعت به وبإخوانه من الشباب العرب إلى تأسيس الجمعيات والأحزاب ، التي ناصبها الحكام الأتراك العداء ، فيقول عن مؤسسي جمعية النهضة العربية ، إنهم كانوا يؤمنون بأن العروبة أكرم عناصر

الجامعة الإسلامية ، وأن الله اختارها لحمل أمانات الإسلام في عصره الأول ، لمزايا وخصائص فيها لا توجد في غيرها وكانوا يؤمنون بأنها المسؤولة الآن ـ كما كانت المسؤولة في البداية ـ عن حمل رسالة الإسلام وتجديد شبابه وأن أول ما أساء به المسلمون إلى أنفسهم ، قبل أكثر من ألف سنة ، كفّهم يد العروبة عن إدارة دفة الإسلام ودولته ، وتوجيه تاريخه نحو أهدافه وقد بلغت هذه الإساءة ذروتها ، عندما ارتكبت الدولة العثمانية خطيئتين لم تسبقها إليهما دولة إسلامية أخرى قبلها في شرق الأرض ولا في غربها أولاهما استعجام لغة الدولة الرسمية ، والأخرى تجاهل ما كان يقع في الغرب من نهضة في الصناعة والعلم والتنظيم فكان ذلك من أسباب تقدم الغرب وتخلف المسلمين في أسباب القوة والمنعة والغنى والسؤدد . وكانت الفجوة بين تقدم أوروبا وتخلف المسلمين في اتساع مخيف ، يزداد مع الزمن ، ما لم يستيقظ عملاق العروبة من سباته العميق ، وما لم يأخذ المسلمون بأسباب النهوض الصناعي والعلمي والإداري ، ليلحقوا بركب الحضارة ، ويتمكنوا من أسباب القوة ، ويضعوا حداً لاتساع الفجوة بين تقدم الغرب وتخلف العالم الإسلامي

ويرى الأستاذ محب الدين أن الإسلام « ليس دين عقيدة فحسب ، بل هو ثقافة طبيعية لأرواح ألفته وعاشت به ، وكان مبعث قوتها وسبب اعتلائها »

وبعد أن قرر محب الدين الإقامة الدائمة في مصر عقب دخول القوات الفرنسية إلى سورية ، بات لسان الدعوة الإسلامية ، وأخذ يصدر المجلات ، وينشر الكتب والمؤلفات وتابع أداء رسالته على هذا النهج حتى آخر أيام حياته .

الخطيب في نظر ابن عمه

وبعد فإننا لا نجد في وصف الرجل الكبير ، خيراً مما تحدث به عنه ابن عمه ، الأديب والقانوني ، أمين سر مجمع اللغة العربية الدكتور عدنان الخطيب(١) ، حيث قال في وصفه

« كان الخطيب يشارك عماله في عملهم ، ويحل محل من يتأخر أو يغيب منهم . يعمل أكثر ساعات اليوم ، لا يكل ولا يتأفف ولا ينام إلى قبيل الفجر . يحرر ويؤلف ، ويصحح ويطبع إذا حزب الأمر لا يأكل إلا طعاماً من ثريد فقد ارتأى خلع أسنانه حتى لا يضطر إلى مراجعة الطبيب من أجلها ، الفينة بعد الفينة . ثم لم يعد يجد متسعاً من الوقت يكلف فيه من يصنع بديل أسنانه التي خلعها . وكان لا يترك عمله إلا في حالات الضرورة القصوى . يُسرّ بزيارة إخوانه وأصدقائه مبادهة منهم ، معتذراً عن رد الزيارة لأي واحد منهم ، مهما كانت الصلة بينهما شديدة . وكان لا يراجع الطبيب ، إلا إذا أقعده المرض عن مواصلة عمله حتى في الليلة الأخيرة التي انتقل صاحبها إلى المستشفى ، ليلتحق فيه بالرفيق الأعلى ، كان يصحح كعادته صفحات من كتابه الموسوعي الأخير « توضيح الجامع الصحيح للإمام البخاري » ، الكتاب الذي طالما تمنى من الله أن يساعده على إنهائه ، قبل أن يوافيه الأجل المحتوم »(٢)

* * *

---

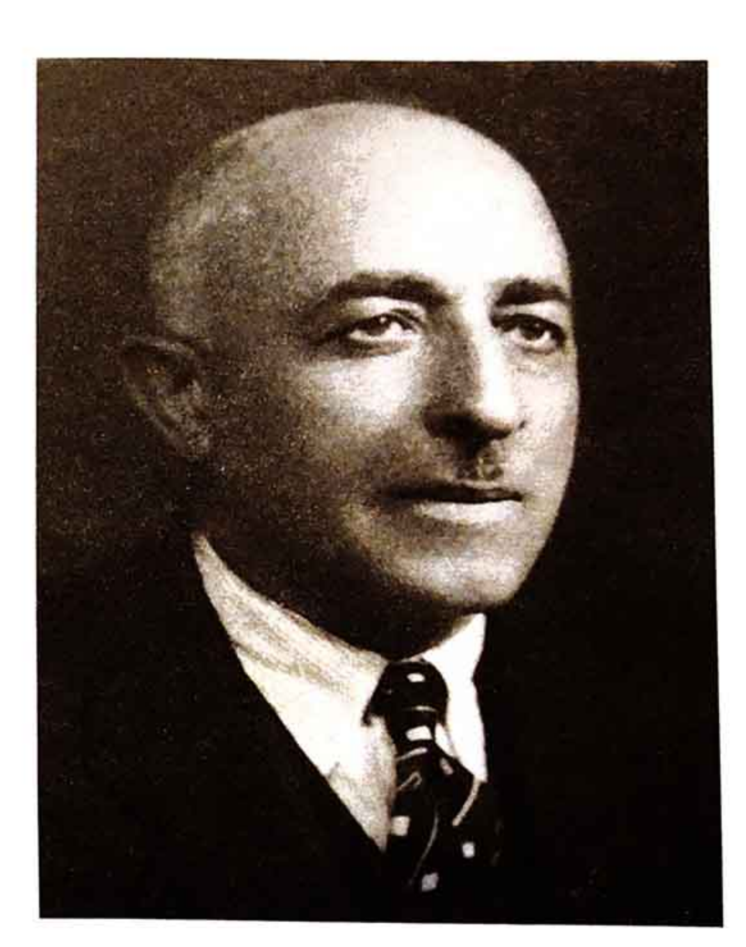
(١) انظر في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف دراسة لحياة وأعمال الدكتور عدنان الخطيب

(٢) انظر كتاب الشيخ طاهر الجزائري للدكتور عدنان الخطيب ص٥١

المراجع

١ـ مذكرات محب الدين الخطيب .
٢ـ كتاب « الشيخ طاهر الجزائري » للدكتور عدنان الخطيب
٣ـ معالم وأعلام ـ أحمد قدامة

* * *



عبدالوهاب القنواتي

متعدِّد المواهبِ والاتجاهاتِ

١٨٩١ - ١٩٧١

منذ طفولته ، كان محباً للعلم والمعرفة

كان متفوقاً في جميع مراحل دراسته

وكان يتمتع بحيوية ونشاط نادرين

أحب الكيمياء ، ومارس صنع الدواء

عندما قيل إنه سيلقي محاضرة باللغة العربية ، عن الكيمياء ، لم يكن أحد يصدق ذلك . . وأرسل الملك فيصل مندوباً عنه لسماعها

مارس صناعة الأدوية الوطنية ، وكان أول من فعل ذلك في سورية

وأول من أسس شركة لصنع الدواء الوطني

حلّل المياه المحيطة بدمشق : الفيجة ، بقين ، هريرة وغيرها

كان من مؤسسي « جمعية مياه عين الفيجة »

وكان من خيرة المدرسين في كلية الطب

وكان إلىٰ جانب ذلك ، أحد ظرفاء دمشق المشهورين

عبد الوهاب القنواتي شخصية فريدة ، متعددة المواهب والاتجاهات

طفولته ونشأته

أبصر الطفل عبد الوهاب بن محمد القنواتي النور في حي القنوات بدمشق ، في العام ١٨٩١ وكان أبوه تاجراً ، وله أربعة أشقاء وشقيقتان ، والدته السيدة آمنة ، لبنانية الأصل من عائلة عفرة

تلقىٰ دروسه الأولية في أحد كتاتيب الحي ، وتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم فيه

لدىٰ افتتاح المدرسة الكاملية في حي البزورية ، وهي أول مدرسة خاصة تفتتح بدمشق ، انتسب عبد الوهاب إليها ، وكان بين تلاميذها المبرزين ؛ ولا سيما في الرسم وحفظ الشعر وكانت هذه المدرسة تطبق النهج

الحديث ، وصاحبها الشيخ كامل القصاب ، من رواد العلم والوطنية

عقب افتتاح « الكاملية » افتتح عدد آخر من المدارس الخاصة ، واستطاعت أن تغري مدرّسي الكاملية بالانتقال إليها عن طريق مضاعفة الرواتب فلجأ صاحب « الكاملية » إلىٰ الاستعانة بالطلاب المتفوقين ، وجعلهم مدرسين في الصفوف الأولىٰ وكان نصيب عبد الوهاب التدريس للصغار ، وهو يتابع دراسته في صفه العالي

بعد أن أكمل عبد الوهاب تحصيله في مدرسته هذه عُين مدرساً للغة التركية في المدرسة العازارية بدمشق ، لقاء أن يدرس فيها اللغة الفرنسية ، ويدرس أخوته فيها مجاناً

التحق الأستاذ عبد الوهاب بعد ذلك بكلية الطب العثمانية بدمشق ، وتخرج منها صيدلانياً مجازاً عام ١٩١١ ومارس المهنة في إحدىٰ الصيدليات .

عندما أعلنت الحرب العالمية الأولىٰ (١٩١٤ ـ ١٩١٨) دعي القنواتي إلىٰ الخدمة العسكرية ، برتبة ملازم أول في الجيش العثماني ، وانتدب للعمل في مستشفىٰ زحلة العسكري وانتشرت الكوليرا بعد ذلك في إحدىٰ وحدات الجيش هناك . وذهب ضحية هذا الوباء عدد كبير من الجنود. وهنا تضاعف العمل في المستشفىٰ ، وكثرت المسؤوليات والإصابات وكان فقدان الدواء المناسب من أسباب انتشار الوباء ، غير أن القيادة العامة لاحظت أن مستشفىٰ زحلة يقدم الأدوية إلىٰ كافة القطعات دون توقف وبشكل منتظم . هنا أرسلت القيادة لجنة خاصة للتحقيق في الأمر وتبين لها فيما بعد ، أن الضابط الصيدلي عبد الوهاب القنواتي ، وجد في مستودعات المستشفىٰ صناديق كثيرة ، تحوي أدوية من منشأ ألماني غير أنها فقدت خلال الشحن ، ما عليها من ملصقات ، تثبت نوعها واسمها

وبات من العسير معرفة ما يصلح منها لهذا المرض أو ذاك فأخذ الضابط القنواتي يدقق فيها ويفحصها ويحللها في أوقات فراغه ، ليعرف كل دواء فيها ثم صار يدخلها بشكل نظامي في قيود المستشفىٰ للاستعمال هذا الأمر جعل لجنة التحقيق تقدر الجهد ، والطريقة البارعة التي لجأ إليها ، ولا سيما في تلك الأيام الصعبة الحرجة فكتبت إلىٰ القيادة تعلمها بالأمر ، وتقترح مكافأة هذا الضابط علىٰ جهده وذكائه

عندما افتتحت الحكومة العثمانية مدرسة الطب ، في الجامعة اليسوعية ببيروت عام ١٩١٦ ، جمع طلاب كليات الطب والصيدلة للجامعات الثلاث ، الأميركية في بيروت واليسوعية ، وكلية الطب العثماني ، وذلك كي يكمل طلابها دراستهم وعهدت إلىٰ الأستاذ القنواتي منصبَ أستاذ مساعد في الكيمياء الحيوية والصيدلانية . فتولىٰ الإشراف علىٰ مخبر ومكتبة كاملتين وكانتا بالنسبة له تشكلان النواة الأساسية لتطوير معلوماته في هذا المجال . وكان المخبر مجهزاً بأحدث الوسائل العلمية المعروفة يومذاك .

العودة إلىٰ دمشق

عندما انتهت الحرب العالمية الأولىٰ ، ترك الأستاذ القنواتي لبنان وعاد إلىٰ دمشق .

وفي العام ١٩١٩ عاد إلىٰ الخدمة العسكرية في الجيش العربي .

عندما افتتح المعهد الطبي العربي ، كان القنواتي بين مؤسسي هذا المعهد . وقد أُسند إليه منصب أستاذ الكيمياء يومذاك أوفد الملك فيصل ممثلاً له . ليستمع إلىٰ أول محاضرة يلقيها الأستاذ القنواتي ، لأن الملك لم يكن يصدق أن هناك من يستطيع أن يحاضر عن الكيمياء ، باللغة العربية .

تابع القنواتي عمله في كلية الطب حتىٰ عام ١٩٢٤ ، حيث أوفد إلىٰ معهد السوربون في باريس ، من أجل الاختصاص بالكيمياء

وقد ألف الأستاذ القنواتي عدداً من الكتب في الكيمياء العامة والمعدنية وأشباه المعادن وكانت تدرس لطلاب الطب والصيدلة في السنوات الأولىٰ كذلك ألف في الكيمياء الغذائية ، والكيمياء الطبية وكانت هذه الكتب كلما أعيدت طباعتها ، زودها مؤلفها بمعلومات جديدة ، من خلال مطالعاته المستمرة

مياه الفيجة وبقين

في عام ١٩٢١ بدأ بدراسة وتحليل مياه منطقة دمشق ونشرت نتائج دراساته لأول مرة ، وأثبتت جودة مياه عين الفيجة ، وبقين ، وهريرة ، وبقية الينابيع المحيطة بدمشق ، ومنها أيضاً عين الصاحب ، وعين الفاخوخ في بلدة حلبون وغيرها

وقد أهَّله ذلك كي يكون في عداد مؤسسي جمعية مياه عين الفيجة وظلت الجمعية تعرف بهذا الاسم إلىٰ أن تحولت إلىٰ مؤسسة مياه عين الفيجة ثم أصبح عضواً في مجلس إدارتها الجدير بالذكر أنه ، وجميع أعضاء مجلس الإدارة المنتخبون وعن أطباء دمشق ، كانوا يمارسون عملهم هذا دون أي أجر أو تعويض ، لقناعتهم بأن الواجب الوطني ، يلزمهم القيام بمثل هذا العمل ولا يزال اسمه إلىٰ اليوم منقوشاً مع الأعضاء المؤسسين في قاعة مجلس الإدارة ، في بناء عين الفيجة بشارع النصر ، تخليداً لجهودهم

أول معمل للأدوية

أنشأ في عام ١٩٢٣ نواة أول معمل صغير لصنع الأدوية ، والمستحضرات

الطبية ، وذلك داخل الصيدلية وكان يشرف عليه بنفسه ، ويساعد إخوته في العمل

وتوسع المعمل الصغير ، ولفت الأنظار إلىٰ ضرورة تأسيس معمل كبير في البلاد ، ولا سيما بعد أن باتت المستحضرات الطبية باهظة الثمن

وفي عام ١٩٢٩ أسس أول شركة مساهمة لصناعة الأدوية ، ضمت جميع الأساتذة المختصين في الجامعة ، وعدداً من الأطباء والصيادلة السوريين وقد سجلت باسم « شركة قنواتي ، تقي ، جراح ، كواكبي وشركاه » غير أن النجاح لم يحالف هذه الشركة ، فاضطر عام ١٩٣١ لتصفيتها وأخذ علىٰ عاتقه جميع التزاماتها ، وضَمِنَ قيمة الأسهم لجميع المساهمين دون أية خسارة

وتابع القنواتي العمل مع إخوته في انتاج الأدوية الوطنية وكان خلال ذلك يشرف فنياً علىٰ صناعتها ، وينفق معظم وقته في التدريس والتأليف

في عام ١٩٣٩ أوفد إلىٰ باريس للمرة الثانية ، للاطلاع ومتابعة البحوث والمستجدات العلمية هناك ولكنه اضطر للعودة علىٰ جناح السرعة ، لدىٰ نشوب الحرب العالمية الثانية

التقاعد . . والرحيل

وفي عام ١٩٤٩ تقاعد الأستاذ القنواتي عن العمل في المعهد الطبي العربي ، بعد أن ظل يعمل فيه طوال ثلاثين عاماً ، وتفرغ بكل إمكاناته للعمل في مصنع الأدوية ، الذي أخذ يضاعف انتاجه

وفي عام ١٩٦٠ تم تحويل المصنع إلىٰ شركة تحمل اسمه . ولا تزال الشركة تمارس عملها في الانتاج الطبي بنشاط إلىٰ اليوم

تابع عمله في المصنع بنشاط ، رغم تقدمه في السن . وكان يحضر كل صباح إلىٰ إدارة المعمل ، قبل جميع العاملين فيه ولم يكن له من هدف

سوىٰ بث النشاط في هذه الصناعة ، وتأمين الدواء بمواصفات عالية ، وسعر مقبول للمواطنين كافة

ظل الأستاذ عبد الوهاب القنواتي يتابع نشاطه إلىٰ شهرين قبل رحيله وكان قد بلغ السادسة والثمانين فأقعده المرض كان خلال مرضه يتألم ويحزن ، لعدم قدرته علىٰ متابعة العمل وإدخال التحسينات التي يجب توافرها في صناعة الدواء

ورحل الأستاذ القنواتي إلىٰ جوار ربه عصر يوم الأبعاء ، في الثامن من حزيران عام ١٩٧٧ ووري الثرىٰ في مقبرة المهاجرين بدمشق

ظرفه ومرحه

هذا الإنسان ، العالم ، الذكي ، المدرس ، كان يهوىٰ إلىٰ جانب علمه الغزير ، وثقافته الواسعة ، وذكائه وحيويته ، المرح ، والظرف ، والنادرة كان أحد ظرفاء دمشق ، وفي مقدمة عشاق المرح ، والنادرة كانت تهفو إلىٰ مجلسه النفوس ، ويتوق إلىٰ سماع نوادره وطرائفه عشاق الظرف والنادرة

كان في دروسه ومحاضراته علىٰ طلابه ، يلطِّف أجواء الكيمياء الجافة بالنوادر والأفاكيه ، فيفيد طلابه من دروسه أكثر من سائر الدروس ، ويتمنون أن تطول ساعة الدرس إلىٰ أضعافها

كان في محاضراته الجامعية ، يمزج الجد بالهزل ، فتسعد قلوب طلابه ، ويتعلقون بدروسه ويحفظونها بسهولة ويسر ، رغم صعوبتها وتعقيدها .

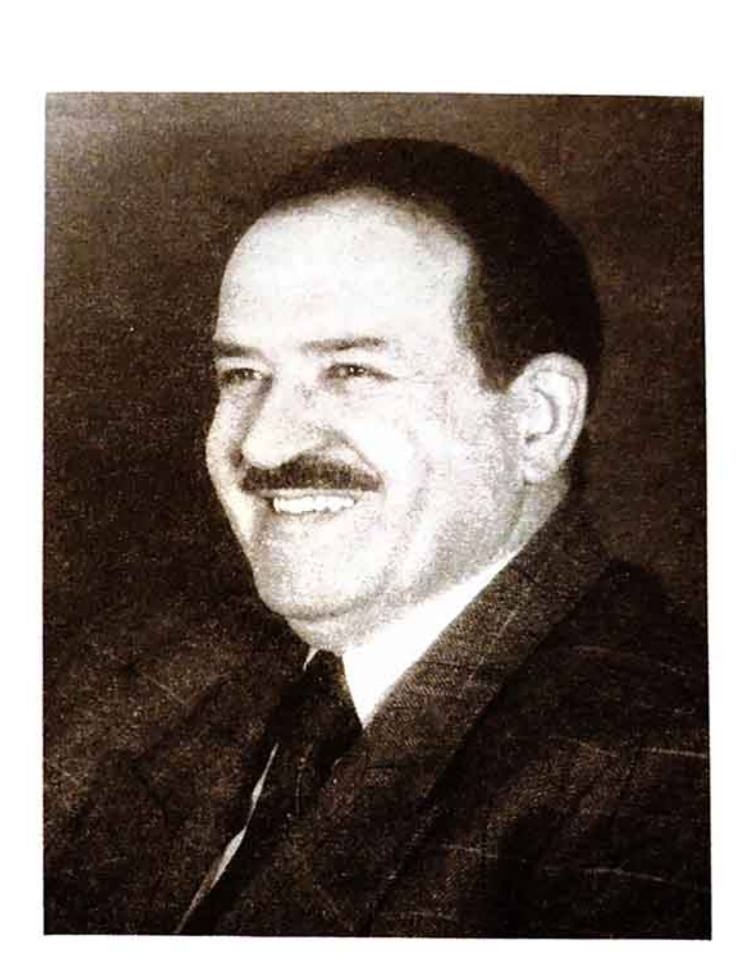
كان الأستاذ القنواتي ، إلىٰ جانب ذلك ، يولي اهتماماً خاصاً لمشاكل طلابه العلمية والاجتماعية . ويوجه إليهم النصح والإرشاد في معالجتها

وحلها ومن هنا كانت علاقته بطلابه ، علاقة الصديق الوفي ، والأخ الكبير ، بأصدقائه وأخوته

ولا نزال نجد في كثير من البلاد العربية طبيباً أو صيدلانياً ، يذكر الأستاذ القنواتي بالخير ، والمحبة ، والتقدير[1]

* * *

(١) معلومات هذا الفصل زودنا بها السيد الدكتور زهير القنواتي ابن الدكتور عبد الوهاب القنواتي ، فله الشكر والتحية .



الدكتور عبد القادر الكتّاني

العالِمُ المُهَندِسُ ... وَالمؤلِّفُ المُناضِلُ

المهندس ، الأديب ، الباحث ، المؤرخ ، الداعي إلى الوحدة ونبذ الخلافات إنه يذكرنا بكبار العلماء ، الذين يتسمون بسعة المعرفة وتعدد المواهب

إنه ابن الإمام العلامة محمد المكي الكتاني ، وكفاه ذلك فخراً ونسباً

لا يعرف للراحة سبيلًا إنه دائماً في عمل هندسي جاد ، أو في أبحاث ونشاطات فكرية واجتماعية مجدية

بدأ حياته العملية بدمشق ، عندما شارك بأحد المشاريع الهندسية الكبرىٰ

عمل في السعودية لدىٰ إحدىٰ أكبر الشركات الوطنية ، وشغل فيها مناصب كبيرة ورفيعة

وتابع دراسته العليا خلال عمله ، وفاز بالدكتوراه في الهندسة من إيطاليا

كانت درجاته العلمية التي حققها خلال مراحل دراساته مشرقة وعالية

استمر عمله في السعودية أكثر من سبعة عشر عاماً

عندما عاد إلىٰ دمشق في العام ١٩٨٧ ، تابع نشاطه العلمي والهندسي ، في شتىٰ المجالات الهندسية والصناعية والفكرية ، وافتتح مكتباً هندسياً للدراسات .

وأنشأ مؤسسة الكتاني كجزء من نشاطه الهندسي

التزم بوصية والده ، التي نصح بها أولاده بعدم الاعتماد علىٰ الشهادة فحسب ، بل بمتابعة العلوم الشرعية .

درس مناهج كلية الشريعة ، وركّز علىٰ علوم الحديث .

عُرف بعشقه للكتاب ، وحرصه علىٰ المطالعة دائماً

وضع عدداً كبيراً من أمهات الكتب .

وما زال يواصل عطاءه وكفاحه في شتىٰ المجالات .

إنه واحد من رجالنا الأبرار ، وعلمائنا الأخيار .

صفحة من حياته

أبصر الطفل عبد القادر النور بدمشق في العام ١٩٤٥ ، السنة التي توجت فيه سورية كفاحها الطويل ضد الاستعمار الفرنسي ، والاستقلال التام ، وارتفعت فيه راية الحرية

عبد القادر هو ابن الإمام العلامة محمد المكي الكتاني الإدريسي الحسني[١] وقد نشأ في كنف ورعاية والده ، وفي بيئة علم وعمل وجهاد ، واهتمام بالقضايا العامة ، فكان خير خلف لأفضل سلف

تلقىٰ تعليمه الابتدائي في مدرسة شكري العسلي ، ثم في مدرسة التربية والتعليم ، المعروفة بالحزم والعناية الفائقة بتلاميذها ، ونال فيها الابتدائية ، ثم نال الاعدادية من ثانوية الكواكبي في حي الميدان وفاز بالثانوية العامة سنة ١٩٦٣ في ثانوية ابن خلدون ، بمعدل جيد جداً ، الأمر الذي مكّنه من الانتساب إلىٰ كلية الهندسة في جامعة دمشق وفاز بعدها بشهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية بدرجة جيدة ، وذلك سنة ١٩٦٨

في الحياة العملية

باشر الأستاذ المهندس عبد القادر حياته العملية بالإشراف علىٰ مشروع المذبح الآلي لمدينة دمشق ، ويشتمل علىٰ عدد من المنشآت الهندسية المهمة .

سافر الأستاذ الكتاني بعد ذلك ، إلىٰ المملكة العربية السعودية للعمل في مؤسسة محمد بن لادن السعودية ، وهي من أكبر شركات الهندسة والمقاولات في العالم العربي لديها مئات المشاريع الهندسية ، وعلىٰ رأسها مشاريع

---

(١) انظر في هذا الكتاب ترجمة موسعة لحياة وأعمال الإمام الكتاني .

توسعة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وعدة مطارات وقصور ومشاريع طرق ضخمة

في هذه المؤسسة الكبرى ، تقلب الأستاذ عبد القادر في مناصب عديدة ، بدأها منذ العام ١٩٦٩ ، مهندساً للأعمال الصناعية والجسور ، في مشروع الطائف ـ الباحة ثم مديراً لمشروع مطار تبوك عام ١٩٧٠ ثم مديراً لمشاريع في المنطقة الجنوبية عام ١٩٧٥ ثم مديراً للإدارة الهندسية بين ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦

افتتح بعد ذلك مكتباً للدراسات الهندسية والإشراف في مدينة جدة وقام بتصميم وتنفيذ مئات « الفيلات » والمباني والقصور وهذا ما أهّله كي يصبح عضواً في اللجنة الاستشارية ، لتطوير وتجميل مدينة جدة السعودية ، حتىٰ مغادرته للمملكة العربية السعودية

حصل خلال ذلك علىٰ عدد من الشهادات والدبلومات في العلوم الهندسية في الأعوام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨

وفي العام ١٩٧٩ اختاره مجلس إدارة مؤسسة محمد بن لادن لمنصب المدير العام المساعد لهذه المؤسسة الكبيرة

وفي سنة ١٩٨٤ فاز بشهادة الدكتوراه في الهندسة من أكاديمية ليوناردو دافنشي الدولية للعلوم والفنون ، التابعة لجامعة روما

وعاد إلىٰ متابعة جهوده ، لدىٰ المؤسسة ، مديراً عاماً مساعداً ، لفرع الصناعة والشركات المشاركة

وفي العام ١٩٨٥ أصبح زميلاً لأكاديمية ليوناردو دافنشي

العودة إلىٰ أرض الوطن

في العام ١٩٨٧ قرر الدكتور المهندس عبد القادر الكتاني العودة إلىٰ أرض

الوطن ، بعد أن لجّ به الشوق إلىٰ بردىٰ والغوطة وقاسيون ، وطال حنينه إلىٰ الأهل والصحب   عاد إلىٰ دمشق ، بعد غربة امتدت أكثر من سبعة عشر عاماً

في دمشق استأنف الدكتور الكتاني نشاطه العلمي والهندسي والاجتماعي ، في مختلف مجالات الأعمال الهندسية ، والصناعية ، والفكرية ، والاجتماعية ، وكعضو فعّال في نقابة المهندسين السوريين   وقام من ثم بافتتاح مكتب للدراسات الهندسية والاستشارات   كذلك أنشأ مؤسسة الكتاني للهندسة ، والتجارة ، والمقاولات ، كجزء من نشاطه الهندسي والتجاري

وكان الدكتور الكتاني قد شارك بالعديد من المؤتمرات الهندسية في جدة ، ودمشق ، والقاهرة ، والرباط   كما تابع نشاطه الفكري والثقافي في الاجتماعات واللقاءات والندوات مع كبار العلماء والمفكرين ، الذين يُعنون بقضايا الأمة العربية ، والقضايا الوطنية المحلية في جميع الدول العربية التي زارها خلال جولاته في السنوات الثلاثين الماضية ، كأنه من مواطني هذه الدول ، يعيش همومها الوطنية وقضاياها المصيرية ، متمثلاً بقول الزعيم والوطني الكبير الراحل فخري البارودي

بلاد العرب أوطاني   من الشام لبغدان
ومن نجد إلىٰ يمن   إلىٰ مصر فتطوان

وقد التزم الدكتور الكتاني بوصية والده الإمام محمد المكي ، التي قال فيها مخاطباً أنجاله

« لا تعتمدوا علىٰ شهاداتكم ، وإن علت ، بل ضموا إليها تعلم الكثير من العلوم الشرعية ، التي تكسبكم خشية الله في قلوبكم »   من أجل هذا تابع الاهتمام بالعلوم الشرعية ، ودرس مناهج كلية الشريعة ، في جامعة دمشق ،

وركّز علىٰ علوم الحديث النبوي واستمرت دراسته بإشراف والده ، ودراسة بعض كتب الحديث ؛ ولا سيما كتب جده العلامة المحدث الإمام السيد محمد بن جعفر الكتاني

ثم تابع أبحاثه ومناقشاته حول الحديث مع ابن عمه العلامة المحدث السيد محمد المنتصر بالله الكتاني في الأراضي المقدسة ، حيث كانا يقضيان الساعات الطوال ، في الدرس والبحث والمناقشة ، في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وجدة ، في علوم مصطلح الحديث ، وبعض كتب الصحاح ، والسنن والمسانيد كما كان يحضر دروس العلامة السيد أمين الكتبي ، والعلامة السيد محمد علوي المالكي ، رحمهم الله جميعاً

بعض صفاته وأخلاقه

يعتبر الدكتور الكتاني من أكثر الناس رقة ، وتهذيباً ، ودماثة خلق ، وحرصاً علىٰ إغاثة الملهوف ، وصنع الخير ، بالإضافة إلىٰ الكرم العربي الأصيل . يضاف إلىٰ ذلك حرص شديد علىٰ التمسك بالأخلاق الحميدة ، من صدق ، وأمانة ، ووفاء بالوعد والعهد ، وحرص علىٰ العلم والتعلم ، والاطلاع علىٰ كل جديد ، وخدمة من حوله من الأهل والصحب ، ومساعدة الفقير والمحتاج وخدمة الآخرين ، متمثلاً بقول الشاعر

ازرع جميلاً أينما كان موضعه فلا يضيع جميل أينما زرعا

قبس الدكتور الكتاني هذه الصفات الكريمة من والده الإمام العلامة ، ومن البيئة الصالحة التي نشأ وترعرع فيها ، ومن طيب العنصر ، الذي يسري في دمائه ، والحماسة لكل مشروع وطني وخيري يعرض له

وقد عرف عن الدكتور الكتاني ولعه الشديد بالمطالعة . فقد كان ولا يزال يقضي الساعات الطوال في النهار والليل . وهو يقرأ ، ويضع الملخصات والشروح ، والنقاط المهمة علىٰ هامش ما تصل إليه يده من الكتب ، جرياً علىٰ

عادته التي درج عليها ، وهي أن لا يضع كتاباً في مكتبته قبل أن يقرأه ، أو يطلع عليه ويتصفحه على الأقل كان الكتاب صديقه الوفي ، منذ حداثته ولا يزال

وقد أتاح له كل ذلك التعمق في دراسة العديد من كتب مصطلح الحديث ، وكتب الصحابة ، وغيرها من كتب السنة المشرفة الأخرى ويجد نفسه في منتهى السعادة ، وهو يتناول الأحاديث النبوية الشريفة من مختلف مصادرها

وهو من مناهضي المذهبية الضيقة ، ومن دعاة تطوير التشريع الإسلامي والعودة به إلى ينابيعه الصافية ، القرآن الكريم والسنة النبوية المتفق على صحتها ، وما لم نجده فيهما وفي آراء الفقهاء المبنية عليهما من مستجدات الحياة العصرية يعود أمره للآية القرآنية ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

هذا وقد شارك في العديد من مؤتمرات التقريب بين المذاهب وكان له دور بارز فيها ، وفي صياغة القرارات والتوصيات النهائية إذ كان يصر دوماً على إدراج بنود يراها مهمة جداً لتضييق شقة الخلاف ، منها :

١ ـ تجاوز خلافات الماضي السياسية والاجتماعية والفكرية والعودة إلى ينابيع الإسلام الصافية المتفق على صحتها

٢ ـ عدم المساس برموز وأئمة المذاهب المختلفة

٣ ـ تشكيل لجان لإعادة دراسة النصوص والأفكار المختلف عليها وقد أجاب على سؤال لمراسل صحيفة كيهان العربي الإيرانية أثناء مأساة المسلمين في كوسوفو قائلاً « نحن لا نطالب أمريكا باستخدام أسلحتها وصواريخها ضد إسرائيل لتنفذ القرارات الدولية ، بل نكتفي بوقف دعمها لها وسنتكفل نحن بالباقي . . . وأضاف أنه سبق وارتكبت مجازر واضطرابات متعددة في العالم ولم يتحرك الضمير الأميركي ولا الغربي لقمعها أو وقفها

وهو يعد الآن لإصدار كتاب ضخم باسم « مختصر جوامع الأحاديث

النبوية وقد جمع منه الأحاديث الصحيحة ، التي اتفق علىٰ روايتها عدد من أئمة الحديث ، وهي في رأيه صفوة الأحاديث النبوية

نظراً لطبيعة دراسته هذه ، فقد أصبح الدكتور الكتاني ميالاً إلىٰ الإصلاح والتقريب بين المذاهب الإسلامية وهو يرىٰ أن الأساسيات الإسلامية ثابتة تقريباً لدىٰ الجميع وأن الخلاف بينها لا يفسد للود قضية

هذا وقد منحه المجمع العلمي العالي للعلوم العربية والإسلامية الدرجة المجمعية السامية بمرتبة الشرف ، وذلك في ١٥/ ٧/ ١٩٩٢ وتم اختياره أستاذاً في المجمع العلمي المذكور

مؤلفاته الدينية والتراثية

فيما يلي نورد كشفاً بمؤلفات الدكتور المهندس عبد القادر الكتاني الدينية والتراثية :

١ ـ أعلام الفكر الإسلامي (ترجم فيه لعدد من كبار علماء الفكر الإسلامي من المحدثين والفقهاء والمفسرين وأئمة المذاهب الكبرىٰ)

٢ ـ نقاط النبوغ عند ابن خلدون (دراسة تتضمن نقاط النبوغ التي سبق بها ابن خلدون عصره ، الأمر الذي جعله من كبار علماء الاجتماع في التاريخ)

٣ ـ مختصر جوامع الأحاديث ـ (جمع فيه الأحاديث التي اتفق علىٰ روايتها عدد من أئمة الحديث بلغت نحو خمسة آلاف حديث مع شرح غريبها وذكر مناسبتها إذا اقتضىٰ الحال)

٤ ـ المصادر الحقيقية للتشريع والفكر الإسلامي

٥ ـ الزعامة والزعماء ـ (دراسة علمية جادة لشخصيات الزعماء وميزات الزعامة ومتاعبها)

٦ ـ روائع الحكم والأمثال ـ (مجموعة مختارة من أشهر وأبلغ الحكم والأمثال العربية)

٧ ـ الديمقراطية والشورىٰ في الإسلام ، (دراسة مقارنة بين الديمقراطية والشورىٰ)

٨ ـ هذا هو الإسلام

المؤلفات العلمية والهندسية

١ ـ تصميم المشاريع الهندسية باستخدام الكمبيوتر

٢ ـ الجسور المعلقة تصميماً وتنفيذاً

ترجم إلىٰ العربية

١ ـ آه ظهري يؤلمني ـ لمؤلفه الأميركي الدكتور أوليفر توم

نشاطاته الفكرية والاجتماعية

١ ـ أسهم بإنشاء اللجنة العلمية لمسجد الشيخ محيي الدين بن عربي ، التي انتخبته نائباً لرئيسها ، وهي اللجنة الثقافية الفكرية المسؤولة عن تطوير وتوسيع المسجد ، ومتابعة نشر الآثار الفكرية للشيخ محيي الدين بن عربي

٢ ـ أسهم بإنشاء اللجنة الثقافية المغاربية وهي اللجنة الفكرية الاجتماعية التي تضم نخبة من كبار المثقفين المنحدرين من أصل مغاربي ، المهتمين بشؤون الجاليات والطلبة المغاربة المقيمين في سورية وقد انتخب أميناً عاماً لها بتاريخ العاشر من كانون الثاني عام ١٩٩٩

٣ ـ عضو الجمعية السورية للمعلوماتية ، وتعمل علىٰ نشر هذه العلوم بين جماهير المثقفين والطلاب العرب . وهو من خيرة خبراء الكمبيوتر في مجال الدراسات والمشاريع الهندسية ، والدراسات الأدبية والتجارية ، ويتابع كل

جديد في مجال برمجة واستخدام الكمبيوتر ، ويحث تلاميذه ومحبيه على تعلم المزيد في هذا المجال ، ومتابعة كل تطور فيه

* * *

المراجع

١ ـ كتاب غرر الشام للشيخ عبد العزيز الخطيب

٢ ـ معلومات شفهية من بعض تلاميذ الدكتور الكتاني

* * *



عبد الرحمن الطباع

مدرسة في الأخلاق والنزاهة

١٩٠٨ - ١٩٨١

كان واحداً من رجالات الوطن ، الذين يعتز بهم

كان مدرسة في الأخلاق ، والإخلاص ، والنزاهة

تدرج في الأوقاف ، منذ ربيع حياته إلىٰ نهاية خدمته

دخل الأوقاف موظفاً صغيراً وغادرها وزيراً كبيراً

كان مثالاً يحتذىٰ في خدمة المواطنين وأرباب الحقوق والمصالح

تلقىٰ علوم الدين ، من كبار العلماء والأئمة

واستطاع أن يجعل من مديرية الأوقاف ، وزارة لها كيانها ووجودها

وتؤدي للدين وأربابه كل ما يطلبون

أوجد التعليم الديني ، وأقام المعاهد الشرعية ، وحافظ علىٰ التراث الإسلامي

خدماته في الأوقاف ، أكثر من أن تحصىٰ

عندما رحل ، بعد جهاد طويل ، كانت « ثروته » ليرتين سوريتين ! . . .

أيها المجاهد الكبير الصامت

تحية لك ، في عالمك الثاني ، من مقدّري الأخلاق ، والنبل ، والنزاهة .

حياته وأسرته

أبصر الطفل عبد الرحمن بن شكري الطباع النور بدمشق في عام ١٩٠٨ وتلقىٰ تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارسها أما علوم الدين ، فقد تلقاها علىٰ يد العلامة الشيخ علي الدقر فقد تتلمذ عليه طوال فترة صباه وكان تعلقه به كبيراً ، ومحبته بلا حدود للإمام العلامة الشيخ محمد مكي الكتاني

والد عبد الرحمن هو الوطني المجاهد شكري الطباع وقد كانت داره ملتقىٰ الأحرار ، ورجال الجهاد والوطنية ، ومقراً للقاءاتهم واجتماعاتهم وقد شارك شكري بمعركة ميسلون ، وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام . غير أنهم أرغموا على إصدار عفو عنه ، تحت الضغط الشعبي العارم

تعتبر أسرة الطباع من الأسر الدمشقية العريقة ، بحفاظها علىٰ الأخلاق ، والدين ، والعادات الأصيلة   وقد احترفت التجارة منذ أربعة قرون ، عندما جاءت إلىٰ دمشق من بغداد ، بعد خلافها مع الوالي العثماني فيها   وقد أمر بإبعادها ونفيها إلىٰ الديار الشامية

كانت هذه الأسرة ، تمارس مهنة الطباعة للسيوف   وطباعة الحديد هي مَدُّه وليس زخرفته ، كما يوحي معناها اليوم   ومن هنا جاء اسم الطباع ولا زال بعض أفراد الأسرة في بغداد والموصل إلىٰ اليوم   ويرجع تاريخ هذه الأسرة إلىٰ عام مئتين للهجرة ، حيث عرف جدها المحدث الشيخ موسىٰ الطباع   وكان معاصراً للإمام الجليل أبي حنيفة النعمان

قضى حياته في الأوقاف

أمضىٰ الأستاذ عبد الرحمن الطباع حياته العملية كلها في خدمة الأوقاف   دخلها وهو شاب في ربيع العمر ، واستمر فيها إلىٰ أن بات وزيراً لها   ولم يمارس أي عمل سوىٰ الأوقاف ، وخدمة العلماء ، وأئمة المساجد   وقبلهم جميعاً ، الفقراء المستفيدين منها

في العام ١٩٣٥ دخل الشاب عبد الرحمن الطباع سلك العمل الوظيفي ، فعمل في « دائرة » الأوقاف ، في أصغر رتبة وأقل راتب فيها   كان راتبه الشهري إحدىٰ عشرة ليرة سورية فقط   ولكن الشاب المخلص ، المكافح ، كان يولي عمله ، كل اهتمامه ، ويبذل فيه أقصىٰ جهده

مرت الأيام . . . ولم تغفل عيون المسؤولين عن الإخلاص والجهد الكبيرين ، اللذين يبذلهما الموظف الصغير ، برتبته وراتبه   كانوا يشاهدونه كل يوم ، وهو منكب بكليته فوق أكداس المعاملات ، يدققها بعناية ، ويدرسها باهتمام ، من أجل أن ينال كل ذي حق حقه ؛ دون زيادة أو نقصان وعندما تضيق أوقاف الدوام الرسمي ، عن انجاز ما بين يديه من معاملات

وملفات ـ وكانت دائماً تضيق ـ يحمل ما تبقىٰ منها إلىٰ منزله ، ينجزها في المساء والسهرة ، ويعود بها في اليوم التالي ، جاهزة من كل عائق

لم يكن بوسع رؤسائه بعد هذا الجهد ، سوىٰ تقدير الإخلاص والتضحية من أجل هذا ، أخذ عبد الرحمن يتدرج في مراتب العمل يوماً بعد يوم فمن كاتب ، رُفّع إلىٰ محاسب وتتالت الدرجات ، وتحسنت الرتبة والراتب

وفي عام ١٩٥٠ أصبح الأستاذ الطباع مديراً للأوقاف ، ثم مديراً عاماً سنة ١٩٥٥ وبعد فترة قصيرة أميناً عاماً للوزارة ووقع الاختيار عليه عام ١٩٦٥ فكان وزيراً للأوقاف

ويعترف السيد الطباع ، بأنه مارس في الأوقاف كل الأعمال بالأصالة والوكالة . وهو يحمد الله ويشكره .

وقد كافأه أهل دمشق كافة ، وقدروا إخلاصه ، وأخلاقه ، وتضحياته أحسن تقدير ، عندما حاول أحد المسؤولين الاستغناء عن خدماته ، فهبّت الصحافة ، والعلماء ، والوجهاء ، وزعماء الأحياء ولم تهدأ الضجة ، إلا بعد أن أعيد السيد عبد الرحمن الطباع إلىٰ منصبه ، معززاً ، مكرماً

جهوده في الأوقاف

كان عبد الرحمن الطباع يرىٰ أن الأوقاف مؤسسة رسمية قائمة لخدمة الفقراء ولكل فقير حق فيها كان يوظف جهده لمساعدة كل محتاج يطرق باب الأوقاف ، ولا يحرمه أية خدمة يمكنه القيام بها

كانت دمشق في الماضي أحوج ما تكون ، بعد أن خرجت من قبضة الاستعمار وحرب التحرير ، إلىٰ مسؤول ينظر بقلبه قبل عينيه ، في شكاوى الناس ، وأوضاع العوائل الفقيرة المستورة ، ليواسيها ويقف إلىٰ جانبها وكان هذا المسؤول ، الإنسان الخلوق ، الطيب عبد الرحمن الطباع

إلىٰ جانب هذا الواجب الاجتماعي للأوقاف ، كانت هذه الوزارة مرجع رجال الدين وعلماء الإسلام ، وحملة القرآن ، والجهة الرسمية التي ترعىٰ المساجد ، وتعنىٰ بشؤون أئمتها ، وخطبائها ، والمدرسين الدينيين ، وقراء القرآن فيها ولم يكن إرضاء هذا الجمع الكبير بالأمر السهل . فكل واحد منهم له وقاره ، وله حقوقه ، ويمثل فئة كريمة ، علىٰ المسؤولين الاعتراف بها ، وتقديم الاحترام والخدمات لها ولم يكن أحد يستطيع إرضاء هذه الجماعات ، كما استطاع عبد الرحمن الطباع ، بلطفه ورقته ، وحسن معاملته للجميع

وقد أسهم الأستاذ الطباع ـ وهو يتدرج في مناصب الأوقاف بجهود مثمرة ، في إعمار المساجد السورية وترميمها ، وإعادة فرشها ، وتنظيمها وكانت من قبل هرمة متداعية ، مهملة ، فأعاد إليها رونقها ، وطالب الدولة بتزويدها بالماء والكهرباء دون مقابل

ودفع بالأوقاف إلىٰ الإسهام بالتعليم الديني ، وأقام المعاهد الشرعية التابعة لها ، وتحت إشرافها ، ودافع عن الإبقاء علىٰ المعاهد الشرعية التي تشرف عليها الجمعيات الإسلامية ، حفاظاً علىٰ تراث إسلامي ، إلىٰ أن تمكن من المحافظة علىٰ وجودها ولا زالت هذه المعاهد موجودة ، وفي ذروة مجدها ، تدفع بأفواج الدعاة والخطباء والأئمة والمدرسين ، لتنعم بها بلادنا ، وتنير بهم مساجدها ولا زالت هذه المعاهد ، تقدم إلىٰ العالم الإسلامي رجالها علىٰ اختلاف أوطانهم وألوانهم

وشملت خدمات عبد الرحمن الطباع الجليلة ، جهاز وزارة الأوقاف والعاملين فيها ، فقد كانت الأوقاف في بدايتها مديرية تابعة لرئاسة مجلس الوزراء ، لا تتمتع بكيان كامل . فتابع جهوده إلىٰ أن اكتملت معالمها ، وأصبحت وزارة متكاملة ، واستفاد العاملون فيها ، بعد أن أُدخلوا في ملاكها ، بحقوق موظفي الدولة ورعايتها وكان السيد الطباع المسؤول الذي ناقشه نواب المجلس النيابي ، مدافعاً عن نظام الأوقاف الجديد ، شارحاً له ،

وموضحاً مبهمه ، ودافع عنه وقد تم إقراره ومنح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الثانية عام ١٩٥٦

ونجح الأستاذ الطباع كذلك في تنظيم التدريس الديني في المساجد وقراءة القرآن فيها ، ومضاعفة رواتب الأئمة

وقد أدركه الوقت ولم يسعفه ، إذ كان يحلم ويطمع بأن يمنح أئمة المساجد صلاحيات ، تشبه إلىٰ حد بعيد صلاحيات عمدة الإحياء « المختارين » لتصديق الوثائق والتعريف بالمواطنين وتزكيتهم ، أملاً بدفع الناس نحو المساجد ، والتعرف إلىٰ الأئمة ، وتأمين دخل إضافي للأئمة ، لأنه يستحيل علىٰ الأوقاف تعويضهم بما يناسب جليل أعمالهم ، ومشقة الارتباط بالمساجد

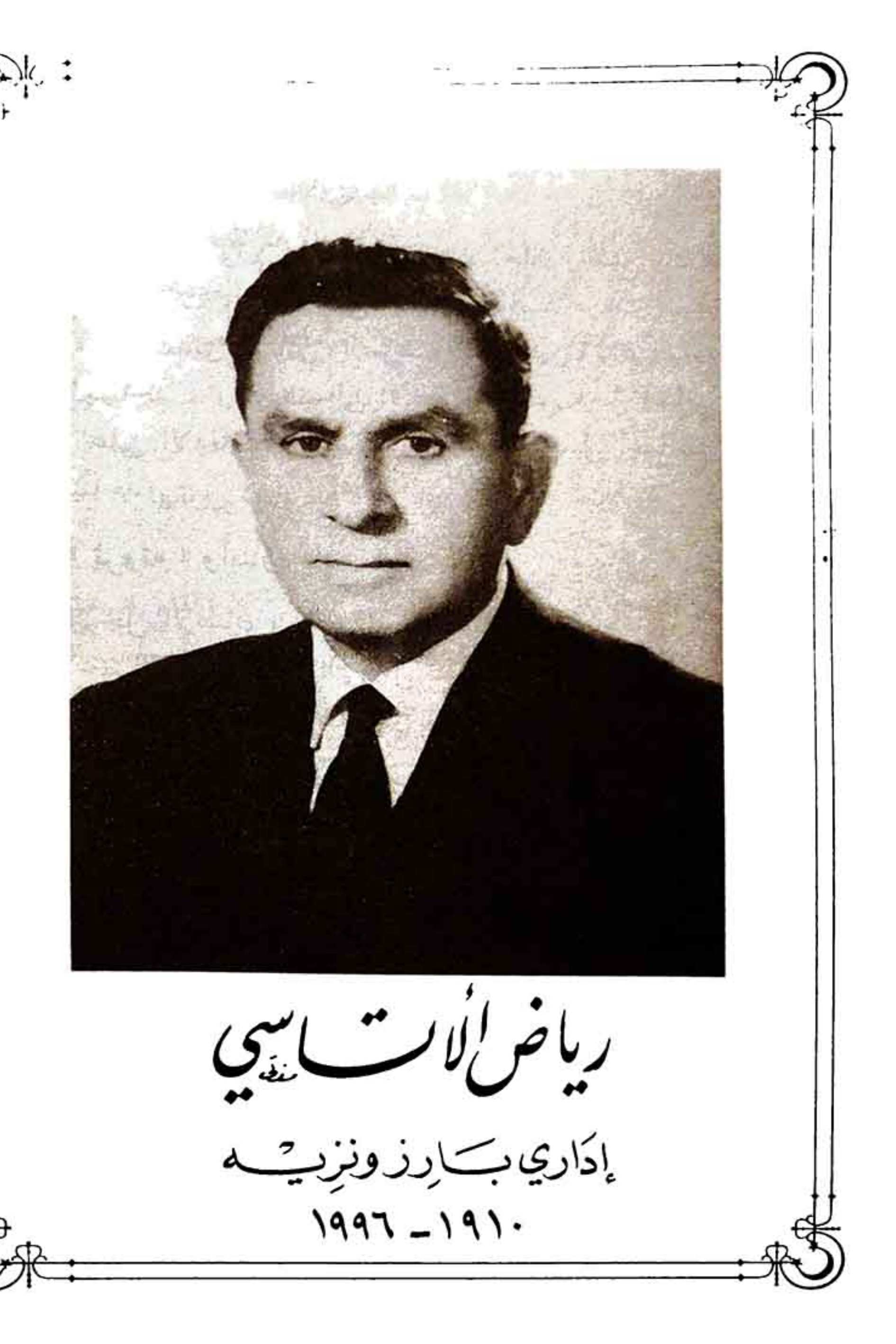
وفاته . . و« ثروته » وأبناؤه

ورحل الرجل الإنسان ، الطيب ، الخلوق في العام ١٩٨١ مأسوفاً ، ومبكياً علىٰ خصاله الحميدة ، التي قل نظيرها ، ولا سيما في هذا الزمن الرديء وشيع في موكب حافل ، ووري الثرى في مقبرة الباب الصغير

عقب رحيله ، وجد ورثته في درجه المقفل أي « خزينته » وجدوا ليرتين سوريتين فحسب وكان ذلك ، بعد عمر مديد ، حافل بالمناصب والألقاب والأتعاب ، والكفاح الطويل المتواصل

وللأستاذ عبد الرحمن الطباع خمسة أبناء ، ثلاثة منهم مهندسون ، وهم مصباح ، وهيثم ، وفواز وطبيبان الدكتور فائز والدكتور محمد وأكبر أولاده الدكتور فائز ، كان رحمه الله يعمل في السعودية ، منذ انتهاء تخصصه في الولايات المتحدة عام ١٩٦٥ وكان إلىٰ عهد قريب من رموز المغتربين السوريين في مدينة الرياض وله مشاريع كبيرة فيها . وقد ورد اسمه في النشرة السنوية للألف الأوائل في العالم .

* * *



رياض الأتاسي

إداري بارز ونزيه

١٩١٠ - ١٩٩٦

كان من رجال سورية الإداريين البارزين

اتصف بالنزاهة ، والاستقامة ، والعمل الدؤوب ، والثقافة الواسعة

كان في عمله مثال الإداري النشيط ، والعادل المنصف

كان عزيز النفس ، كريمها ، يعمل في خدمة ومساعدة الجميع
الفقراء والضعفاء منهم ، قبل الآخرين

لم يكن يفكر بأية منفعة أو مصلحة خاصة

لم يتردد يوماً بمساعدة مستغيث أو ملهوف

لم يمارس العمل السياسي ، ولم ينتسب إلىٰ حزب ، أو تنظيم سياسي ؛
رغم صداقته لعدد كبير من رجال الوطنية والسياسة

كان مثالياً ، في نكران الذات ، ومحبة الجميع ويرىٰ الكثيرون أن فيه
شبهاً بوالده المغفور له هاشم الأتاسي ، في طبيعته وطباعه

لم يعادِ في حياته أحداً . . ولم يعرف قلبه الحقد علىٰ أحد

سيرة حياته

أبصر رياض ابن الزعيم الوطني المجاهد هاشم الأتاسي ، النور عام ١٩١٠ في مدينة بعلبك ، حيث كان والده قائمقاماً للمنطقة

عُيّن والده بعد ذلك متصرفاً في عدد من بلاد الشام ، فأمضىٰ رياض سنوات حياته الأولىٰ ، متنقلاً مع أبيه وأسرته بين هذه المدن . وقضىٰ السنوات الثلاث الأخيرة من الحرب العالمية الأولىٰ ، في مدينة بوردور بالأناضول ، مركز عمل والده ، كمتصرف للواء

عندما عادت أسرته إلىٰ دمشق ، عقب انتهاء الحرب ، التحق رياض بمكتب عنبر مدة عام واحد ثم انتقل إلىٰ حمص ، مدينة الأسرة الأتاسية ، ليتابع دراسته الابتدائية والإعدادية في مدارسها

عندما انتُخب والده هاشم الأتاسي رئيساً للمجلس التأسيسي عام ١٩٢٨ انتقل رياض مع أسرته إلىٰ دمشق ، حيث أكمل دراسته الثانوية في مكتب عنبر

بعد أن فاز بالبكالوريا الأولىٰ ، ثم الثانية ، انتسب إلىٰ الجامعة اليسوعية في

بيروت لدراسة الطب ، غير أنه ما لبث أن عاد إلىٰ دمشق ، وانتسب إلىٰ كلية الحقوق ، ودرس القانون فيها

لدىٰ تخرجه من كلية الحقوق ، اختار العمل في السلك الإداري ، فعُيّن قائمقاماً في عدد من المناطق ، كان آخرها مدينة طرطوس

في تفتيش الدولة

عندما تأسس مكتب تفتيش الدولة عام ١٩٥١ ، برئاسة صديقه الأستاذ نهاد القاسم[1] ، عين مفتشاً للدولة

وفي عام ١٩٦٢ لدىٰ تعيين رئيس مكتب تفتيش الدولة الأستاذ أحمد مظهر العظمة وزيراً للزراعة ، كُلّف برئاسة مكتب تفتيش الدولة ، تقديراً لكفاءته ، وعلمه ، وخبرته ، ونزاهته

ثم انتقل إلىٰ مرحلة التقاعد ، لدىٰ بلوغه السن القانونية

خلال العشرين عاماً ، التي أمضاها السيد رياض الأتاسي في مكتب تفتيش الدولة ، كان مثالاً للنزاهة ، والعدالة ، والاستقامة . كان شديد الحرص علىٰ حسن سير التحقيقات ، وسيادة القانون ، والحق ، دون محاباة لأي طرف علىٰ آخر . كان يضمر المحبة للجميع ، ويدلي برأيه في أي موضوع بتجرد ونزاهة

اشتهر الأستاذ الأتاسي بالتواضع ودماثة الخلق غير أنه ، رغم هذا ، كان يضيق ذرعاً بالنفاق ، والمراءاة ، والمجاملة ، التي تتجاوز المألوف ، وتتحول إلىٰ نفاق مغرض .

ورغم كراهيته لجميع ألوان النفاق والمصانعة ، فقد كان الرجل متسامحاً ، يقدر الظروف ، التي تدفع فريقاً من الناس ، إلىٰ ارتكاب الأخطاء ، عمداً أو دون عمد ! .

---

(١) انظر دراسة كاملة لحياة وأعمال الأستاذ نهاد القاسم في كتاب « أعلام ومبدعون » للمؤلف .

نظرة في حياته وصفاته

أمضىٰ رياض الأتاسي معظم سنوات حياته في دمشق ، وأحبها من أعماقه ، كما أحب قبلها مدينته حمص وكان صديقاً وفياً ومخلصاً ، للكثيرين من رجالات دمشق ، وعلمائها وأدبائها

كان مثقفاً من خيرة المثقفين ، واسع الاطلاع علىٰ وقائع التاريخ وأحداثه ، ولا سيما التاريخ العربي والإسلامي كما كان يحفظ كثيراً من قصائد الشعر ، حديثه وقديمه

في سنوات حياته ، التي قضاها متقاعداً ، كان يحضر ندوة أسبوعية ، كل يوم ثلاثاء ، في منزل صديقه الشاعر المسرحي عدنان مردم بك ، حيث يتناقش الحضور ، ويتبادلون الرأي ، في موضوع أدبي محدد لكل جلسة

كذلك كان يجتمع كل يوم أحد ، مع مجموعة أخرىٰ من الأصدقاء المتقاعدين ، من سياسيين سابقين ، وقضاة وأدباء وشخصيات أخرىٰ ، في ندوة ، يتسامرون ويتداولون خلالها في مختلف شؤون الحياة وكانوا يسمون ندوتهم هذه « مجلس الشيوخ » ، وهي امتداد لمجلس مشابه ، كان والده المرحوم هاشم الأتاسي يحضره بعد تقاعده من رئاسة الجمهورية ، مع مجموعة من أصدقائه الوطنيين ، من الرعيل الوطني الأول

رحل رياض الأتاسي إلىٰ جوار ربه عام ١٩٩٦ ، بعد عمر مديد ، تاركاً في نفوس من حوله من الأهل والصحب أجمل وأطيب الذكريات ووري الثرىٰ في مدينة حمص

* * *

المراجع :

١ ـ رجالنا المبرزون ـ تأليف نجيب رويحة وخالد الساعي

٢ ـ من هم في العالم العربي

٣ ـ معلومات المؤلف وأرشيفه الخاص .

رجال أعمال



د. عثمان العائدي

رجل أعمال، وعبقرية متألقة

١٩٢٤ - ...

هذا الفصل من الكتاب ، لو عرف صاحبه شيئاً من مضمونة قبل نشره ، لتوسل أن لا ننشره ، ذلك لأنه يهرب من الأضواء يحب العمل بصمت ، ولا يريد الكلام يحرص على أن يقول جهده وإخلاصه كل شيء ، وأن لا يقول لسانه شيئاً عن نفسه ويحرص أكثر وأكثر ، أن لا يقول عنه أصدقاؤه شيئاً

حاول المؤلف في كتبه السابقة ، أن يتحدث عنه ، أسوة بمن يشيد بهم من الأعلام والعمالقة ، وأن يشير إلىٰ ما يبذل من جهد صامت وصادق ، في خدمة الوطن والمواطن كان يشاوره المرة تلو المرة ، ويحاول أن يقنعه بأهمية تعريف القارئ ، بالجهد المخلص الذي يبذله ، فكان علىٰ الدوام يعتذر واعتذاره من باب التواضع الذي عرف عنه ، وحرصه الدائم علىٰ العمل بصمت ، بعيداً عن الأضواء

غير أننا في هذه المرة ، نشعر بأن صديقنا الكبير ، ورفيق دراستنا في « الكلية العلمية الوطنية » ، قد أفرط في حب التواضع ، وكراهية الأضواء من أجل هذا ، طاب لنا أن لا نستشيره في موضوع هذا الفصل طاب لنا أن نجمع ما لدينا من معلومات عن أخينا وابن معلمنا ، وصاحب الفضل الأول في تعليمنا ، وإنقاذنا من ظلام الجهل إلىٰ نور العلم ، وأن نثبت كل ذلك في هذه الصفحات ، لتكون قدوة لكل طامح ، ودليلاً لكل راغب بالعلم والعمل وخدمة الوطن والمواطن

فإلىٰ القارئ العربي ، وإلىٰ الأخ ، الصديق الكبير الدكتور المهندس عثمان عائدي نقدم هذه الصفحات ، آملين أن لا نكون قد أخطأنا أو أسأنا بعدم استئذانه فيما كتبنا ونشرنا

سيرة كفاحه

أبصر الطفل عثمان ابن المربي الكبير ، الطبيب العالم أحمد منيف

العائدي[1] النور في دمشق عام ١٩٣١ وهو الابن الثالث لوالديه وكان الأول الدكتور عدنان ، والثاني الدكتور غسان ، عليهما رحمة الله

كانت فرحة أبيه بقدومه كبيرة ، لذا منحه اسم أبيه عثمان ، تبركاً به وبراً له وتوسم فيه الذكاء والنبوغ ، منذ طفولته المبكرة ولم يخيب الطفل نبوءة أبيه ، كان عند حسن ظنه

تلقىٰ عثمان تعليمه الابتدائي والثانوي ، في المدرسة الكبيرة التي أسسها والده ، وهي « الكلية العلمية الوطنية »[2] ، وكانت أكبر المدارس الخاصة ، وأكثرها تقدماً ورقياً

بعد أن نال شهادة البكالوريا بامتياز ، أرسله والده إلىٰ فرنسا ، فدخل كلية الهندسة « بوليتكنيك » في « غرونوبل » وفاز بشهادتها ، واختص بالسدود والعلوم المائية والكهرباء ، وتخرج متفوقاً علىٰ أقرانه

لم يقنع الأستاذ المهندس عثمان ، بما فاز به من علم وشهادات ، لذا انتقل إلىٰ باريس ، ودخل جامعة الصوربون ، وحصل منها علىٰ الدكتوراه بتفوق وعاد إلىٰ دمشق في اليوم الخامس من كانون الثاني عام ١٩٥٦ حاملاً أول دكتوراه في الهندسة .

بعد العودة إلىٰ دمشق

لدىٰ عودة الدكتور المهندس عثمان إلىٰ دمشق ، عُيّن مديراً للشؤون الفنية للمشاريع الكبرى في سورية غير أن طموح الدكتور العائد من باريس ، حاملاً شهادة الصوربون ، كان أكبر وأبعد من أن يقف عند وظيفة محدودة

---

(١) انظر دراسة مفصلة لحياة وأعمال الدكتور أحمد منيف العائدي في كتاب « عبقريات من بلادي » للمؤلف

(٢) انظر دراسة عن « الكلية العلمية الوطنية » في كتاب « اعترافات شامي عتيق » للمؤلف .

الأفق ، من أجل هذا ، أخذ يمارس أعماله الهندسية في مكتبه الذي افتتحه ومنها بناء السدود ، كسد الرستن ومحردة ، ودراسة وانجاز شبكة الارتباط الكهربائية بين المدن السورية ، ودراسة وتحسين مياه عين الفيجة كذلك قام بتدريس الهندسة المائية والهيدروليك في كليتي الهندسة بجامعتي دمشق وحلب

عندما تأسست الشركة السورية للمنشآت السياحية ، واكتتب بها المساهمون ، انتُخِب رئيساً لها تقديراً لعلمه وذكائه وتفوقه ، وحماسته لكل مشروع وطني واستطاع الدكتور عثمان بعمله هذا ، أن يفوز بثقة المسؤولين والحكومات ، كما فاز بثقة المساهمين وهذه الثقة جعلته يفوز بانتخابات الدورات التالية

وقد استهل عمله في الشركة ، بأن أكمل البناء الضخم لفندق الشام ، والمحالّ التجارية الملحقة به

وفاز بمزيد من ثقة المسؤولين ، بعد انجاز هذا البناء الشامخ ، الذي ازدانت به دمشق ، وبات موضع إعجاب من يرتاده ، ومثالاً يحتذىٰ للعمل الوطني الجاد والمثمر وأقبل المواطنون علىٰ اقتناء أسهم الشركة الناجحة ، التي تبرهن كل يوم علىٰ ازدهارها وحسن إدارتها

بعد هذا النجاح الكبير ، رغب المسؤولون إلىٰ الدكتور العائدي بتوسيع نشاطه في مختلف المدن السورية فباشر بإقامة سلسلة من « فنادق الشام » ، في عدد من المدن السورية قام بتنفيذ هذه المشروعات علىٰ أفضل وجه وباتت سورية تملك مجموعة من الفنادق الضخمة في جميع المدن السورية والمناطق السياحية ، التي يقبل السياح لمشاهدتها ، من مختلف الأقطار العربية والدول الأجنبية

منجزات كثيرة أخرىٰ

ومن منجزات الدكتور العائدي الكبيرة ، مشروع الشاطئ الأزرق في اللاذقية ، الذي يعتبر من أضخم الشواطئ السياحية ، التي يرتادها السوريون وأبناء الأقطار الشقيقة ، الذين يؤثرون السباحة والاستجمام علىٰ الشواطئ

ومن منجزاته الكبيرة أيضاً ، إقامة الفنادق الكبرىٰ ، في بصرىٰ الشام ، وتدمر ، ودير الزور ، وحلب ، وحماه ، وصافيتا ، ومشتىٰ الحلو وقد تم تنفيذ هذه الفنادق في أزمنة قياسية ، وجمالية ، لا نظير لها

ولم يقتصر نشاط الدكتور العائدي علىٰ سورية ، بل تجاوزه إلىٰ لبنان الشقيق وقد منحته حكومة لبنان الجنسية اللبنانية ، فقام بالإسهام بإنشاء كلية العلوم في جامعة « بلمند » ، في شمال طرابلس كما شارك بوصفه عضواً في مجلس الأمناء ، بإخراج جامعة « كرامي » إلىٰ الوجود ، تخليداً لذكرىٰ الزعيم اللبناني الراحل عبد الحميد كرامي ، والد رئيس الوزراء الأسبق رشيد كرامي

أوسمة بالجملة

يحمل الدكتور عثمان عائدي وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولىٰ

ويحمل وسام الجمهورية الفرنسية من رتبة فارس . ثم رُفّع إلىٰ رتبة ضابط

ومنح في ربيع ١٩٩٦ وسام الأمم المتحدة الفضي ، بمناسبة الذكرىٰ الخمسين لتأسيسها ، فكان العربي الوحيد الذي يفوز بهذا الوسام وذلك لدوره في تنمية العلاقات الثقافية بين الأقطار العربية وأوروبا والبلاد الفرانكوفونية

كذلك منحته بلدية باريس أعلىٰ وسام لديها ، لدوره في تنمية العلاقات العربية الفرنسية وقال عنه عمدة باريس « إن الدكتور عائدي كان سفيراً للعالم العربي في فرنسا ، وسفيراً لفرنسا في العالم العربي »

معلومات متفرقة

ـ انتخب الدكتور عثمان عضواً في مجلس أمناء الجامعة الأميركية في بيروت

ـ أسس شركة للدراسات والمقاولات العامة والهندسية

ـ بنىٰ عدداً من المشافي ، في إمارة رأس الخيمة ، والفجيرة ، وأبو ظبي ، بالإضافة إلىٰ منشآت صناعية ، كمعمل للبحص في رأس الخيمة وغيره من دول الخليج العربي

ـ يعمل الدكتور عثمان كل يوم أكثر من ثماني عشرة ساعة في أعمال جادة ومثمرة ، مشرفاً بكل ذكائه وديناميكيته واندفاعه ، علىٰ جميع ما قام ويقوم به من أعمال   وكلها مشروعات كبيرة ، قد تعجز حكومات مجتمعة عن القيام بها ، ولكن عثمان عائدي ، الرجل الديناميكي المكافح ، الذي يعمل بصمت ، بعيداً عن الأضواء ، والتهريج الدعائي ، الذي يمارسه الآخرون ، ينفذ هذه المشروعات علىٰ أكمل وجه ، بصمت ، ودون صخب أو ضجيج

ـ من أجل تنفيذ مشروعاته الكثيرة هذه ، يقوم الدكتور عثمان بأسفار متلاحقة بين دمشق وباريس ، ويتفقد باستمرار جميع المنشآت والفنادق التابعة له . يفعل ذلك بحماسة نادرة واندفاع لا يتقنه غيره

ـ وصفته جريدة « لوموند » الفرنسية ، بأنه ابن سورية ، الذي يعتز بانتمائه وقوميته العربية السورية . وقالت إنه من رجال الأعمال السوريين القلائل ، بل ربما الوحيد ، الذي لم يغادر وطنه بعد ثورة حزب البعث .

ـ بدأ اهتمامه بالسياحة وبناء الفنادق منذ عام ١٩٧٨ وتضم الشركة ١٨ منشأة فندقية في سورية ، بالإضافة إلىٰ فروعها العشرة . ومنها الشام للفنادق ، وشركة الشام للهندسة ، وشركة « شامتور » وغيرها

ـ وتساهم الدولة بنسبة ٢٥٪ أما الباقي وهو ٧٥٪ فموزع على ١٩٨٠٠ مساهم من القطاع الخاص

ـ أما في فرنسا ، فتملك مجموعته اثنتي عشر منشأة فندقية راقية

ـ انتخب عام ١٩٩٤ رئيساً للاتحاد العربي للفنادق والسياحة

ـ وفي عام ١٩٩٥ انتخب نائباً لرئيس الاتحاد الدولي للفنادق

ـ وفي عام ١٩٩٦ انتخب عضواً في « اللجنة الاستشارية للشرق الأوسط وشمال أفريقية للبنك الدولي »

ـ كذلك انتخب رئيساً للاتحاد الأوروبي المتوسطي للسياحة

جهوده في أفاميا

ألقىٰ الدكتور المهندس عثمان عائدي قبل حين ، محاضرة في النادي العربي بدمشق ، تحدث فيها عن فوائد المنشآت السياحية ، بحضور جمهور كبير من المهندسين ورجال الأعمال ، وأهل العلم والأدب وأشار إلىٰ الفوائد الكبيرة التي تحققها المنشآت السياحية وشرح الأعمال التي قام بها لإنهاض أفاميا ، حيث رفع علىٰ نفقته الخاصة ، أكثر من مئتي عمود ضخم ، كانت مرمية علىٰ الأرض ومطمورة بجبال من الأتربة ، بفعل الزلازل وقد أعيدت منتصبة كما كانت .. بالإضافة إلىٰ الكشف عن الأرصفة والطرق والمحال التجارية والحمامات

نظرة في حياته وأعماله

هذا الرجل الكبير ، تربطه بالمؤلف ، رفقة درب طويل ، ترجع إلىٰ أيام الطفولة والدراسة المشتركة في « الكلية العلمية الوطنية » الكلية التي أسسها والده المغفور له الدكتور أحمد منيف العائدي ، وتخرج منها العلماء والأدباء والشعراء والوزراء وأعلام الوطن تخرجنا من هذا الصرح الثقافي

الكبير معاً ولكنني تقدمته بالتخرج سنوات عديدات ، وتقدمني بالتفوق في مجالات الحياة ، بما لا يقاس من سنوات غير أن حبل المودة والمحبة والإخاء ، ظل موصولاً دون انقطاع وكيف تنقطع صلات الطفولة والدراسة ، وكلانا شرب من نبع واحد ، ونهل من ماء عذب طهور ، قدمه لنا في كؤوس من ذهب ، حامل لواء العلم ، وأحد أركان الثقافة العربية في هذا الوطن ، المغفور له أحمد منيف العائدي

ظلت صلات الطفولة والدراسة موصولة ، رغم بعد المسافة ، واختلاف سبل الحياة بيننا فقد آثرت العمل في الأدب والصحافة ، وآثر أخي عثمان العمل في بناء السدود والمنشآت المائية ثم السياحية ، فنجح والحمد لله فيما اختار من خدمة وطنية وقومية ، وفشلت ، مع من فشلوا ، باختيار الكلمة الحرة سبيلاً للحياة !..

ويظل نجاح الأخ الكبير ، رفيق المدرسة والدراسة ، نجاحاً لي ، ونجاحاً لكل مواطن ، يؤثر مصلحة ، الوطن علىٰ مصلحته الذاتية

أرقب علىٰ البعد مَسيرة أخي عثمان ، فأراه أعجوبة الأعاجيب في طراز حياته ، ونشاطه المتدفق ، وحرصه علىٰ خدمة وطنه بصمت ، ودون ضجيج ، ودون أن ينتظر تقديراً أو شكراً من أحد

إنه يعمل آناء الليل وأطراف النهار ، ولا تطيب له الحياة إلا بالعمل الدؤوب المستمر قيل لي إنه يعمل ثماني عشرة ساعة كل يوم ، وينتقل من بلد إلىٰ بلد ، يتفقد سير العمل في هذا المشروع أو ذاك ، لا حرصاً علىٰ مزيد من المال ، بل حرصاً علىٰ نجاح كل مشروع يضع توقيعه عليه ، ويرسم بصماته لتنفيذه .

أكبر مشروعاته الاقتصادية في سورية ، هو شركة المنشآت السياحية . هذه الشركة الوطنية المساهمة الكبرىٰ ، التي أقامها الدكتور عثمان ، أعادت الثقة إلىٰ نفوس المواطنين بالشركات المساهمة ، بعد أن أقدمت إحدىٰ الحكومات

السابقة على مصادرة الشركات المساهمة ، اعتقاداً خاطئاً منها ، بأنها بورجوازية ، ورأسمالية ، ولا تنسجم مع « العدالة » و« الاشتراكية » مع أن هذا الطراز من الشركات يقوم على الاشتراكية الصحيحة وتوزيع رأس المال

أعاد الدكتور الذكي الثقة إلى المواطنين ، فأقبلوا على اقتناء أسهمها وبلغ عدد أصحاب الأسهم أكثر من ثمانية عشر ألف مساهم وباتت شركة المنشآت ، تملك فروعاً وفنادق في معظم المدن السورية والأماكن السياحية

وفي فرنسا وباريس خاصة ، يعتبر الدكتور عثمان العائدي من أكبر أركان السياحة فيها وقد وصفه عمدة باريس ـ كما أسلفنا ـ بسفير العالم العربي إلى فرنسا ، وسفير فرنسا إلى العالم العربي

أعماله الخيرية والإنسانية

بعد هذا ، لا بد أن يتساءل القارئ ـ بينه وبين نفسه على الأقل ـ عن الأعمال الخيرية والإنسانية ، والمساعدات التي يقدمها هذا الرجل الكبير ، إلى الجمعيات والفقراء والعائلات المحتاجة .

والجواب الذي نعرفه حق المعرفة ، أن عثمان العائدي ، الرجل الديناميكي الذكي ، الذي يعمل بصمت ، ويهرب من الأضواء ، هذا الرجل يدفع باليمين ، دون أن تدري الشمال بما دفع وأعطى . يدفع سراً ، لمن يعرف أنهم أهل للعون والمساعدة . ويدفع بسخاء أكثر لمن كانوا من ذوي النعمة واليسر ، ثم قلب الدهر لهم ظهر المجن ، وغدر بهم الزمان ، وباتوا دون مورد أو معيل . وهو يحفظ جيداً الحديث الشريف : « ارحموا عزيز قوم ذل » . ونعلم كذلك أنه يشفق من أعماقه على هؤلاء المحتاجين ، ويحاول ما استطاع أن يخفف عنهم ، ويمد إليهم يد العون ، ويصرّ كثيراً على أن تظل مساعداته هذه سراً ، لا يشعر بها ، ولا يعلم شيئاً عنها ، إلا المقربون جداً

وتبقىٰ هناك مساعدات ، لا بد لها من أن تظهر ، شاء الدكتور العائدي أو لم يشأ

من هذه المساعدات الكبيرة « دار السعادة » للمسنين والمسنات ، التي أنشئت في منطقة المزة ، تحيط بها الأشجار والحدائق والأزهار في هذه الدار يتلقىٰ النزلاء من الجنسين كل ألوان الرعاية ، وجميع الخدمات ، وفي مقدمتها الخدمات الصحية

وكان الدكتور أحمد منيف العائدي ، قد أوصىٰ بإنشاء هذه الدار وجاء ابنه الدكتور عثمان ، فنفذ وصية الأب الراحل بسخاء كبير ، وكرم جدير بالشكر والدعاء وأوكل الدكتور عثمان إلىٰ شقيقته السيدة الفاضلة أميمة العائدي حرم الدكتور عزة مريدن ، إدارة هذه الدار ، بما فطرت عليه من حب للخير ، وحرص علىٰ مساعدة الفقراء والمحتاجين

وتضم « دار السعادة » عدداً كبيراً جداً من المسنين والمسنات وبسبب الرعاية الكبيرة التي يلقاها نزلاء « دار السعادة » ، فإن كثيراً من المسنين غير الفقراء ، باتوا يحلمون بالانتقال إلىٰ هذه الدار والإقامة الدائمة فيها

وبعد فإن الحديث عن الدكتور عثمان العائدي طويل ومتشعب ، ولن يكون بمقدور فصل محدود الصفحات ، أن ينصفه ويوفيه حقه من الحديث والتمحيص

ولا ريب أن كتّاباً وباحثين آخرين ، سيتحدثون ويكتبون بتفصيل أكثر ، حول إخلاصه وذكائه وتضحياته وخدماته لوطنه والرجل ما زال والحمد لله ، مستمراً بالبذل والعطاء وكل من حوله من الأصدقاء ورجال الأعمال ، يدعون له بطول العمر ومزيد من التألق والنجاح .

* * *

أدباء وشعراء



أنور العطّار

شاعر الطبيعة والوصف

١٩١٣ ـ ١٩٧٢

كان واحداً من أعلام الشعر الحديث في سورية

نشأ يتيماً ، يلفه الفقر ، وتعذبه أجواء الحرب العالمية الأولى

كان منطوياً على نفسه ، يعيش العزلة ، ويهوى البعد عن الآخرين

أحب الشعر ، وتعلق به ، وغرد على غصونه أحلى الألحان

كان شعره رومانسياً ، وعاطفياً رقيقاً تأثر فيما نظم بأجواء بعض أعلاء الشعر الفرنسي

أبدع في الوصف ، وتغزل بالوطن ، وهاجم المستعمر ، وبكى الأحلام الضائعة

وحلّق أنور العطار في كل ما قال ونظم

رغم هذا ، لم يصدر له سوى ديوان شعر صغير

ولا يزال شعره الكثير ، ونثره الوفير ، دفيناً عند أسرته ينتظر اليد الحنون كي تخرجه إلى النور .

نشأته وحياته

ولد أنور بن سعيد بن أنيس العطار في مدينة بعلبك في العام ١٩١٣ من أبوين دمشقيين[1] ، وتلقى بعض علومه الابتدائية في بعلبك ، وأكملها في مدرسة البحصة بدمشق . وكان من المتفوقين والمبرزين وانتسب بعد ذلك إلى مكتب عنبر ، وأكمل فيه دراسته الثانوية وتابع دراسته العالية في كلية الآداب بالجامعة السورية ، وفاز بشهادتها

---

(١) ذكر صاحب « الأعلام » خير الدين الزركلي أن الشاعر من مواليد عام ١٩٠٨ غير أن صديقه ورفيق عمره المرحوم علي الطنطاوي أكد أن العطار من مواليد عام ١٩١٣ ، وهذا التاريخ أثبتناه في كتابنا « عبقريات شامية » ونكرره اليوم

قضى الشاعر الجانب الأعظم من حياته في تدريس اللغة العربية وآدابها في ثانويات دمشق والعراق والسعودية كذلك تولى رئاسة ديوان الإنشاء في وزارة المعارف بعض الوقت

الشاعر في بداياته

حول مرحلة دراسته في « مكتب عنبر » كتب المؤلف يقول في كتابه « عبقريات شامية »

لم يكن إنساناً عادياً ، ذلك الفتى ، الذي يتابع دراسته في مكتب عنبر إنه نحيل ، شارد ، محب للعزلة ، نظراته حالمة ، وهمساته حائرة ، يعيش في شبه غيبوبة ينظر إليك ، وكأنه لا يراك يتأمل الزهرة حين يلمحها ، وكأنه يناجيها ويرسل نظرته في الأفق ، فترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة ، تنبئ عن الغبطة والسعادة . ثيابه دليل فقره ، ونحوله البادي ينطق بمعاناته وقلقه

« إنه دائماً حليف الحزن ، أليف الأسى ، يبكي الأحلام الضائعة ، كما يبكي أوراق الخريف المتناثرة

نشأ والحرب العالمية قائمة على قدم وساق ، ومظاهر البؤس والألم والجوع في كل مكان . ودمشق تعاني الجوع وضغوط الأجنبي الازدحام على الأفران ، والناس يموتون جوعاً ، والجياع ينبشون المزابل ، ويأكلون قشور الفاكهة »

بهذه الكلمات العذاب ، وصف أديب الشام وعلامتها علي الطنطاوي - تغمده الله بواسع رحمته - صديقه ، ورفيق شبابه وعمره الشاعر أنور العطار

من أجل هذا عاش شاعرنا منطوياً على نفسه ، بعيداً عن المجتمع والناس لم يمرح في طفولته مرح الأطفال ، ولم يلعب لعبهم ، ولم يلهُ لهوهم .

عندما أصبح العطار فتى يافعاً ، بدأت عروس الشعر تغازل أحلامه ، وتدغدغ خياله ، وتحاول أن تلهمه أبكار المعاني وما هي إلا فترة ، حتى أنشأ قصيدته « الشاعر » فكانت أول ما نظم من الشعر وكان مطلعه

خليـــاه ينـــح علـــى عـــذبـــاتـــه ويصـــغ مـــن دمـــوعـــه آيـــاتـــه
ويـــرتـــل آيـــاتـــه بخشـــوع مستمـــداً مـــن العلـــى نفحـــاتـــه

كان أنور العطار يومئذ في التاسعة عشرة من عمره ، حين أنشأ قصيدته هذه وقد بلغت أبياتها ستة وخمسين بيتا ، وصف فيها « الشاعر » وصور مشاعره وخلجاته وقد حلل القصيدة وأثنى عليها الثناء العاطر الأستاذ علي الطنطاوي في مقال مطول

وتوالت القصائد وأبت عروس الشعر أن تضنَّ على من تيَّمه حب القوافي ، وأبكار المعاني ، وفرائد الأبيات ، فكان من المحلِّقين المبدعين

وحين تخرج شاعرنا من كلية الآداب ، وبدأ اسمه يلمع في دنيا الأدب والشعر وترافق ذلك مع ظهور الشاعرين الراحلين زكي المحاسني وجميل سلطان ، أقام لهم مجمع اللغة العربية حفل تكريم مشترك ، تشجيعاً لهم ، وتقديراً لنبوغهم ، وحثاً لهم على مواصلة العطاء

عاشق الطبيعة

أحب شاعرنا الشاب الطبيعة ، وهام بها عشقاً وغراماً ، كان لا يُرى إلا في أحضانها ، غارقاً ، يحدّق في جمالها المفتان ، ويتأمل أزهارها المفتحة ، ويصغي إلى أطيارها المغردة ، ويتنشق أنسامها المعتلة

وفي جو الأزهار ، والأنهار ، والأطيار ، والأنسام ، ينظم الشاعر روائعه ويصوغ فرائده

ويحار المرء حين يقلب صفحات ديوانه الوحيد المطبوع « ظلال الأيام » ماذا ينتقي ، وبماذا يستشهد على شاعرية صاحب الظلال الفذة ، وماذا يختار دليلاً ففي كل صفحة ، بل في كل بيت روائع تشهد له بطول الباع ، وعلو الكعب ولعل في قصيدته عن « غوطة دمشق » بعض الدليل على ما نقول لنستمع إليه يغني

عـالـم مـن نضـارة واخضـرار	فـاتـن الـوشـي ، عبقـري الإطـار
ضـم دنيـا مـن البشـاشـة والبشـ	ـر ومـا تشتهيـه مـن الأوطـار
مـن فـراش علـى الخمـائـل حـوّا	م وطيـب مـع النـواسـم سـار
وينـابيـع خُفَّـل بـالأغـاريـ	ـد تناجـي بـالسـاكـب الهـدار
وأقـاصيـص تسكـر القلـب والـرو	ح روتهـا قيثـارة الأطيـار
وأغـان مسلسـلات رقـاق	فـاتنـات سـالـت مـن الأوكـار
وأنـاشيـد رددتهـا السـواقـي	والتفـاف الأنهـار بـالأنهـار
وحقـول بـالـزهـر مـؤتلفـات	مـن أقـاح ونـرجـس وبهـار
وتحـاسيـن تـأسـر الطـرف أسـرا	وتعـاشيـب حـاليـات النثـار
ونسيـم يُنشـي النفـوس نـديّ	أَرِجٌ نـافـحُ الشـذا معطـار
وثمـار كـأنهـا عبـق الخلـ	ـد عِـذَابٌ ، أحبب بهـا من ثمـار
وصبـايـا مـن الغـراس نـدايـا	قـد نمتهـا عجـائـز الأشجـار

إنه وصف حي ، وصور ناطقة ، تضج فيها الحياة في كل بيت من القصيدة صورة مشرقة ، تلمس فيها الحرارة في الوصف ، والصدق في التصوير

وكما هو شأن الشاعر في براعة التصوير ، وصدق الوصف ، اللذين لمسناهما من خلال أبياته هذه ، شأنه في سائر قصائده ، أمثال : الخريف ، ودمشق ، وبردى ، ودمر ، والربيع ، وآذار ، ولبنان ، وغيرها لقد أسر

جمال الطبيعة شاعرنا الكبير ، واستولى على جميع أحاسيسه ، حتى جعل منه شاعراً رومانتيكياً ، يهيم بالطبيعة حباً وعشقاً وافتتان ، ويندفع في تصويرها ، متأثراً بجمالها الأخاذ ، وسحرها النفاذ ، وفتنتها الطاغية

ويلفت الانتباه ، ويثير الاهتمام كثيراً في شعر العطار ، أن القارىء المدقق يجد الكلمة الرقيقة الحلوة ، واللفظة المختارة المنحوتة ، التي أعدت لتحل في المكان الذي اختاره لها الشاعر ، فلا يستطيع أحد أن يستبدلها بلفظة أخرى ، أو الاستعاضة عنها بكلمة غيرها

ومن الخير قبل أن نطوي الحديث عن شاعرنا المحلق في وصف الطبيعة ، من الخير أن نورد عدداً من الأبيات ، قالها في وصف دمّر ، متنزه دمشق الشهير ، وضاحيتها الفتانة

كل شيء يحيا بدمّر فالسطـ	ـح يغني والدوح يندَى ويَعْبق
والنسيم الحبيب ينفح بالعطـ	ـر ويُنشي كالبابلي المعتق
والأزاهير في الدروب تهادى	بين ورد نضير وفل وزنبق
هوذا الياسمين مدَّ على الصخـ	ـر شباكاً من نوره وتسلق
تتغنى الحقول سكرى من العطـ	ـر ومن سجعه الحمام المطوَّق
بلبل في غصونه يتشكى	ونُهير بدمعه يترقرق

لقد أحب شاعرنا الطبيعة ، وهام بها هُياماً عجيباً ولعله تأثر بذلك بالشاعرين الفرنسيين لامارتين وألفريد دي موسيه ووصفه معروف الأرناؤوط ، صاحب « سيد قريش » بقول بايرون « قيثارة بعض أوتارها للغناء ، وبعضها الآخر للبكاء »

طرق شاعرنا باب الشعر الوطني والقومي ، وبلاده تعيش في مراحل النضال من أجل الحرية والسيادة ، فكان في ذلك مجلياً ومبدعاً ، كما كان

شأنه في وصف الطبيعة   وقد أخذ يُعنى بهذا اللون من الشعر ، خلال وجوده في بغداد وقيامه بتدريس الأدب العربي فيها   وأضاف العطار بذلك وتراً جديداً إلى قيثارته الساحرة ، وطلع على الناس بأعذب الألحان

كان أنور العطار من أشد المعجبين بأمير الشعراء أحمد شوقي   كان يكثر من قراءة شعره ويحفظ العديد من قصائده   وكان مولعاً بجمع ما تنشره الصحف من قصائده الروائع   ولاحظ أن ديوان « الشوقيات » حين ظهر ، غاب عنه كثير من هذه القصائد سهواً أو عمداً ، فجمع هذه القصائد ، وقدم لها ، وجعل منها كتاباً أعده للطبع   وبلغ من تعلق شاعرنا بأمير الشعراء أنه سجل لنفسه صورة شبيهة بصورة شوقي ، وقد أسند رأسه بيده وساعده

ولعله من الخير أن نسجل أبياته الأربعة هذه في وصف القلم

قلم صاغ رائعات المعاني   وجلاها مثل الضحى اللماح
يُطرف النفس بالجديد ابتداعاً   ويحامي عن النهى ويلاحي
هات منك البيان محضاً صراحاً   جوهر الفن في البيان الصراح
ما يوفيك شعري الدهر وصفاً   ما رحيقي يكفي ولا أقداحي

شعره الوطني

كان العطار شديد الحماسة لوطنه ، كارهاً لأعدائه ، يتغنى بتراب الوطن ، وجهاد المناضلين ، ويحث على الدفاع عن كل ذرة من أرض الوطن

حول جهاد أبطال فلسطين يقول

يا دماء على فلسطين سالت   من شباب زكية أعواده
من جريح يود لو برئ الجرح   فخاض الوغى ندياً ضماده
وطعين على الثرى يتلوى   غاب عن نفسه ، وضاع رشاده

مات لم تشهد الأحبة بلواه ولم يحمل الأسى عواده
هكذا المجد أن تموت فريداً يا شهيداً يا لذه استشهاده

ظلم نفسه . . وظلمناه !

ظلم أنور العطار نفسه وهو حي ، فعاش بعيداً عن المجتمع والنقاد ، كانت صلته بهم ، وبأرباب الصحف ضعيفة هزيلة ، وهم الذين يملكون القدرة على رفع الشاعر والكاتب والفنان ، وإبراز مواهبه ، من خلال تسليط الأضواء على نتاجه ، وإجراء الأحاديث والمقابلات معه كما يستطيعون العكس إن طاب لهم . وابتعاد الشاعر والأديب والفنان ، وكل ذي موهبة عن هذه الطبقة ، يحرمه كثيراً من الشهرة والمجد وهذا ما حدث لشاعرنا الكبير وكم في تاريخ الأدب من شعراء وأدباء ظلموا أنفسهم ، حين اختاروا العزلة ، أو حجبهم عن الأضواء أدباء كبار ، أو ظروف سياسية قاهرة ، أو أحزاب مستبدة ظالمة ! .

في السنوات الأخيرات من حياة الشاعر ، اختارني العطار صديقاً له ، فكان يتردد على مكتبي زائراً ، مرة أو أكثر كل أسبوع كنت آنس إلى لقائه ، وأسعد كل السعادة بحديثه ، وأستمع إلى أخباره وأشعاره ، وأنا أتأمل يده المرتعشة أبداً بفعل المرض ، فأعضُّ على شفتيّ ندماً ، لأني قصّرت في إبراز مواهبه والحديث عنه ، حين كنت في موقع المسؤولية ، خلال عملي الصحفي الطويل .

وطال غياب صديقي الشاعر ذات مرة ، وكان ذلك في ربيع العام ١٩٧٢ تصرّم الأسبوع كله دون أن أراه فالتمست له العذر بادئ بدء وجاوز غيابه الأيام العشرة ، فاشتد بي القلق عليه ، فقررت أن أسعى إليه سائلاً عن صحته ،

مطمئناً على سلامته كنت على وشك أن أفعل ذلك ، حين أخذت أقلب صحف ذلك اليوم ووقع ناظري فجأة ، على خبر صغير مهمل ، في ذيل صفحة مهملة وكان الخبر يحمل الشكر لمن شارك بالتعزية بوفاة أنور العطار صعقت يومها للنبأ ، وغامت الدنيا في عيني ، وطفرت منهما دمعتا حزن وألم بلى لقد مات الشاعر الكبير بصمت لم يشعر برحيله ، إلا قلة من الناس ، ولم تنشر الصحف خبر وفاته ، ولم تتحدث عن تاريخه وأعماله ، واكتفت إحداها ، بنشر الشكر المأجور ، لمن عزّى بوفاته

ومع ظلم شاعرنا لنفسه ، ظلمه مجتمعه ومن حوله ، فلم يقيموا له حفل تأبين ، ولم ينشئوا المقالات الطوال للحديث عنه ، ودراسة أدبه وشعره

ولا تزال كتبه ودواوينه الكثيرة في زوايا النسيان ، مبعثرة لم تجمع وتطبع وأعرف أن للشاعر عدداً من المؤلفات والدواوين ، هي « البواكير » ، « وادي الأحلام » ، « البلبل المسحور » ، « منعطف النهر » ، « علمتني الحياة » ، « ربيع بلا أحبة » . ومن كتبه النثرية « الوصف والتزويق عند البحتري » و« أسرة الغزل في العصر الأموي » ، و« الخلاصة الأدبية » ، و« شوقيات لم تنشرها الشوقيات » ، و« ألف بيت وبيت » وكل هذه الدواوين والمؤلفات لم تطبع ، ولا تزال تنتظر أن تهب إحدى الجهات المسؤولة ، أو بعض دور النشر ، فتنفض الغبار عنها ، وتعمل على إخراجها من عالم النسيان والضياع ، إنصافاً لصاحبها ، وتقديراً لشاعريته وعبقريته وفنه

* * *

المراجع

١ ـ ظلال الأيام ـ ديوان أنور العطار

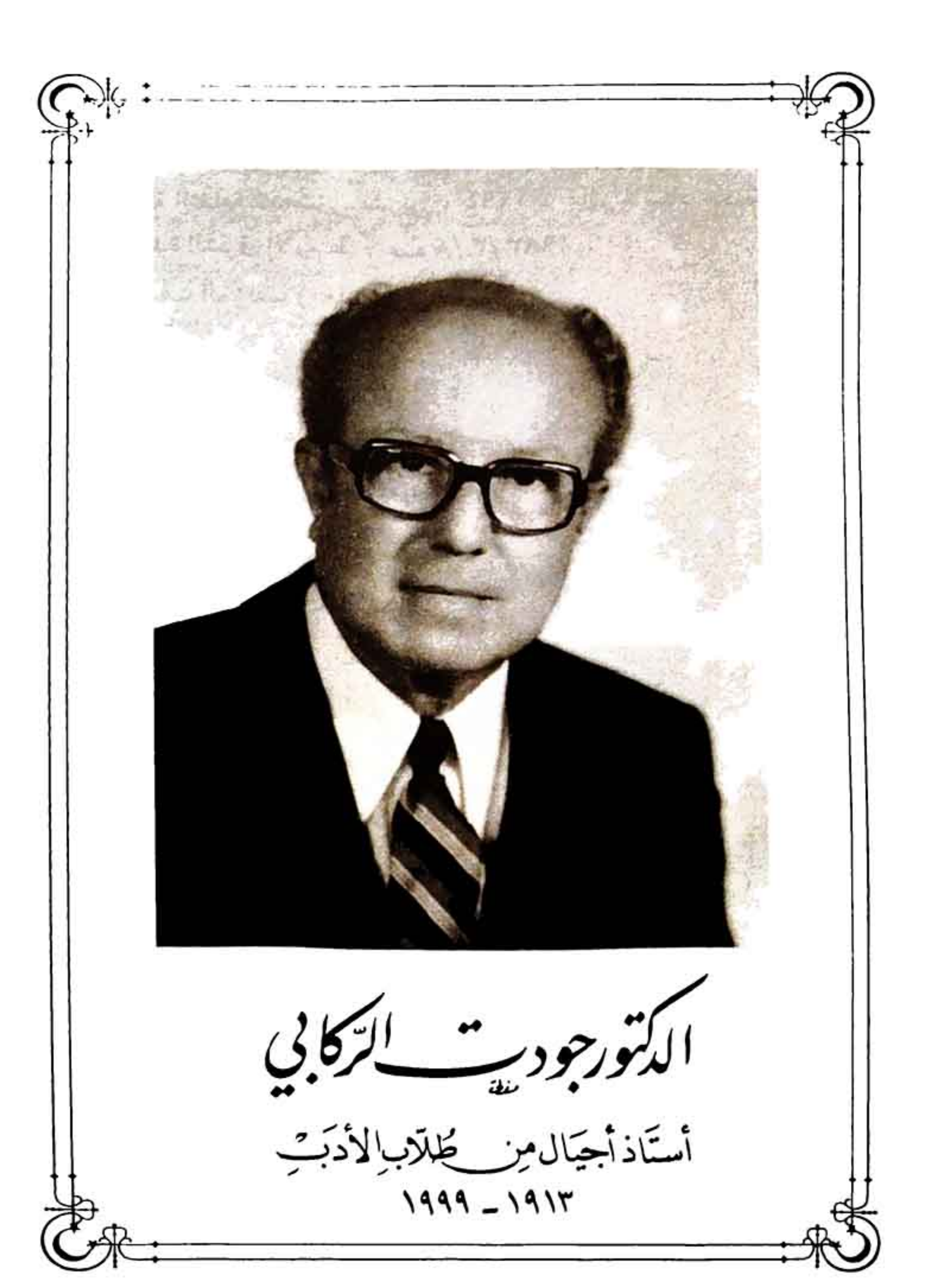
٢ـ الأدب العربي المعاصر في سورية ـ لسامي الكيالي

٣ـ مجلة الثقافة ـ دمشق ـ تشرين ، ١٩٩٤ ـ مقال للأستاذ حكمة هلال

٤ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ٨/ ٣/ ١٩٨٣

٥ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة

* * *



الدكتور جودت الرّكابي

أستاذ أجيال من طلاب الأدب

١٩١٣ ـ ١٩٩٩

كان عاشقاً للغة الضاد والأدب العربي

وكان من المتفوقين في جميع مراحل دراسته

تخرجت على يديه أجيال من الأدباء والمتأدبين وعشاق اللغة

درَّس الأدب واللغة في الثانويات ، ثم في جامعة دمشق

عندما أكمل الستين ، وأحيل إلى التقاعد ، اختطفته جامعة قسنطينة في الجزائر ، فدرّس فيها ثلاثة عشر عاماً ، وأسهم بحملة التعريب فيها

كان من عشاق الأدب الأندلسي ، ومن علماء هذا الأدب والمتضلعين به

وضع عدداً كبيراً من المؤلفات الثمينة ، وأعيدت طباعة هذه الآثار مرات ومرات

ورحل الدكتور جودت الركابي ، مأسوفاً عليه في العام الماضي ، بعد أن أكمل السادسة والثمانين من العمر

شيء من حياته[1]

ولد بدمشق في العام ١٩١٣ وينتسب إلى أسرة دمشقية عريقة ومحافظة

تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في دمشق ، وحصل على شهادة أهلية التعليم في العام ١٩٣٣ وفاز بشهادة البكالوريا الثانية ـ قسم الفلسفة عام ١٩٣٤ بدرجة جيد جداً

---

(١) هذه الترجمة الموجزة ، لأعمال وحياة الدكتور جودت الركابي ، زودتنا بها السيدة الفاضلة عقيلته . وكان الدكتور الركابي قد أعدها بنفسه قبيل رحيله

بدأ حياته العملية مدرساً في دير الزور بين عامي ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧ ، نقل بعدها إلى دمشق ، ومارس التدريس فيها بين عامي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨

أوفد إلى فرنسا عام ١٩٣٨ لدراسة الآداب ، وحصل على شهادة الليسانس في الآداب من جامعة السوربون في باريس عام ١٩٤١

فاز بشهادة دكتوراه الدولة في الآداب من الجامعة نفسها عام ١٩٤٧ بتقدير مشرف جداً

عاد الدكتور الركابي إلى دمشق في أيلول من عام ١٩٤٧ ، وعُيّن مدرساً للغة العربية وآدابها في عدد من ثانويات دمشق ، ودور المعلمين والمعلمات .

في عام ١٩٥٠ عُيّن مفتشاً أول للغة العربية في المدارس الثانوية وأسهم ـ إلى جانب التدريس والتفتيش ـ بتأليف عدد من كتب الأدب واللغة والبلاغة والمطالعة للمدارس الثانوية

ولا تزال كتبه هذه أساساً للتدريس المدرسي حتى اليوم

في رحاب الجامعة

باشر بالتدريس في الجامعة السورية « جامعة دمشق حالياً » أستاذاً محاضراً منذ سنة ١٩٤٩ وقام بتدريس مادة « الأدب الأندلسي » فيها وتدريس مواد أخرى ، وأصبح في عام ١٩٦١ أستاذاً ذا كرسي ، ثم عميداً لكلية التربية في الجامعة نفسها

أوفد للتدريس في جامعة الجمهورية الجزائرية ، بعد أن أحيل إلى التقاعد

عام ١٩٧٤ وأصبح أستاذاً في جامعة قسنطينة « الجزائر » منذ عام ١٩٧٤ وحتى عام ١٩٨٧ ، وقام بتدريس مادتي « الأدب الأندلسي » ، و« الأدب المغربي » إلى جانب تدريس مواد أخرى كذلك شارك في الجهود الثقافية والأدبية المختلفة في الجزائر ، وفي حملة التعريب

عاد إلى دمشق في نهاية عام ١٩٨٧ ، وتابع في موطنه الأول نشاطه في ميدان الأدب والتأليف

نشاطات ومهام مختلفة

● كان الدكتور جودت الركابي عضواً في اتحاد الكتاب العرب منذ تأسيسه في دمشق

● صاحب دار « ممتاز » للتأليف والترجمة والنشر بدمشق

● عمل مستشاراً ثقافياً في « دار الفاضل » للتأليف والترجمة والنشر

● شارك بالإشراف على طلاب الدراسات العليا ، الذين يعدّون شهادتي الماجستير والدكتوراه ، كما شارك بمناقشة رسالاتهم ، وغيرها من الرسالات الجامعية الأكاديمية

● شارك بعدد من المؤتمرات والملتقيات الأدبية والثقافية العربية والدولية وكتب عدداً من البحوث والمقالات في عدد من الصحف والمجلات والموسوعات العربية والعالمية ، وألقى عدداً من المحاضرات في الجامعات والأندية العربية والأجنبية من هذه المؤتمرات التي شارك بها « المؤتمر الدولي الأول للشعر الدوري في الآداب العربية والرومنسية والعبرية » ، الذي عقد في مدريد العاصمة الإسبانية في كانون الأول عام ١٩٨٩ وكذلك

« الملتقى الدولي لدراسة النص الأدبي في ضوء اللسانيات » الذي عقد في جامعة قسنطينة في كانون الأول عام ١٩٩٣

له حضور أدبي ملموس في الأوساط الأدبية العربية والعالمية ، ولاسيما في ميدان الأدب

● رحل الدكتور جودت الركابي إلى جوار ربه في الحادي عشر من أيار « مايو » عام ١٩٩٩

بعض آثاره ومؤلفاته

١ـ الشعر الدنيوي في العصر الأيوبي وممثلوه الأساسيون « باللغة الفرنسية » ـ باريس ١٩٤٩

٢ـ دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء المُلْك (تحقيق) ـ منشورات دار الفكر بدمشق ١٩٨٠ ـ عدة طبعات .

٣ـ في الأدب الأندلسي ـ دار المعارف بمصر ـ عدة طبعات منذ عام ١٩٦٠ ولا يزال يطبع ـ ويُعدّ مرجعاً مهماً متداولاً في هذا المضمار

٤ـ الطبيعة في الشعر الأندلسي ـ دمشق ١٩٧٠ (عدة طبعات)

٥ـ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ـ الطبعة الثالثة ـ دار الفكر بدمشق ١٩٨٣

٦ـ طرق تدريس اللغة العربية ـ الطبعة الرابعة ـ دار الفكر ١٩٨٦

٧ـ مبادئ تخطيط التعليم (ترجمة عن الوثائق التربوية لليونسكو) دمشق ١٩٦٧

٨ـ الوافي في الأدب العربي الحديث (بالمشاركة) دمشق ١٩٦٤ ـ طبع عدة طبعات .

٩ـ الأدب العربي ونصوصه (بالمشاركة) دمشق ١٩٥٦ ـ طبعته وزارة التربية السورية عدة طبعات

١٠ـ منهج البحث الأدبي في إعداد الرسائل الجامعية ـ دار ممتاز بدمشق ١٩٩٢

١١ـ بحوث في الموسوعة الإسلامية التي يصدرها عدد من المستشرقين ـ بالفرنسية والإنكليزية ، وتطبع في مدينة « ليدن »

* * *



مارِي عجمي

الأديبة الشاعرة، والمناضلة الرائدة

١٨٨٨ ـ ١٩٦٥

كانت أديبة كبيرة

وكانت شاعرة مبدعة

وكانت صحافية رائدة

وكانت مناضلة ، وثائرة جريئة وشجاعة

كانت كل ذلك ، في عهد ساد فيه الظلم ، والجهل ، والظلام

كافحت الجهل بأقصى ما تستطيع

وقاومت الظلم بكل ما تملك من جرأة

وحملت مشعل النور ، عندما كان النور من المحرمات

وتنقلت في عدد من الأقطار العربية ، تنشر العلم ، وتدعو إلى الثورة على الجهل

وباتت من ثم موضع تقدير الأدباء ، والعلماء ، وأهل الفكر

وضمها فيما بعد ، أكبر تجمع ثقافي في البلاد . . . وكانت فيه المرأة الوحيدة

ماري عجمي ، أديبة ، وشاعرة ، وصحافية ، وثائرة ، تستحق كل التكريم والإجلال .

إنها إحدى عبقريات الوطن

قصة حياتها[1]

أبصرت الطفلة ماري النور بدمشق في الرابع عشر من أيار عام ١٩٨٨ ، وكان ذلك في عصر ساده الظلم والظلام ، وسيطر عليه الجهل ومحاربة العلم والمعرفة ، ولكنها أبت إلا أن تكون الأديبة ، والشاعرة ، والصحافية ، والمثقفة ، والثائرة على الجهل ، والتخلف ، والانحطاط

---

(١) هذا الفصل مقتبس بعضه من كتاب « عبقريات شامية » للمؤلف .

أبت إلا أن تكون المشعل ، الذي يبدد الظلام ، ويثور على الظلم ، والرائدة التي تقرع طبول الثورة ، وتدعو الآخرين إلى الالتحاق بها ، وحمل الراية معها ، لدكّ صروح الجهل ، وإيقاظ الغافلين ، والمطالبة بالحقوق المهضومة ، من قبل الأجنبي والغاصب

درست ماري فن التمريض في الكلية الأميركية ببيروت وفي عام ١٩٠٦ عينت معلمة أولى في المدرسة الروسية بدمشق ، وعشقت الصحافة ، فأخذت تراسل عدداً من كبريات الصحف ، كالمقتبس في دمشق ، والمهذب في زحلة ، والإخاء الحموي ، والحقوق ، ولسان الاتحاد ، والحسناء وغيرها

أنشأت مجلة العروس في العام ١٩١٠ ، واستمرت بإصدارها أربع سنوات وحين اشتعلت نار الحرب ، اضطرتها ظروف الورق لإيقافها ، وأسست بدلاً منها مدرسة خاصة .

وفي العام ١٩١٨ أعادت إصدار « العروس » وأنشأت النادي الأدبي النسائي في العام ١٩٢٠ ، كما أسست جمعية نور الفيحاء ، ومدرسة لبنات الشهداء ، في العام نفسه .

وتوقفت « العروس » في العام ١٩٢٥ إبّان الثورة السورية على الانتداب الفرنسي ، وأقيم لها في بيروت حفل يوبيل فضي ، بمناسبة مرور ربع قرن على كفاحها

وأقيمت لها حفلات تكريم في حيفا ويافا وفي دمشق كما أسهمت بتحرير مجلة الإصلاح في بونس آيرس ، ومجلتي العروسة والأحرار المصورة المصريتين

وعينت أستاذة لتدريس العربية في مدرسة الفرنسيسكان مدة أربع سنوات . . . وفي بغداد عينت أستاذة للأدب العربي عام ١٩٤٠ وعادت

إلى دمشق وبيروت لتسهم في المجالات العلمية والأدبية ، وفي نشاط الجمعيات والإذاعات وتابعت نشر قصائدها وبحوثها في عدد من الصحف والمجلات

وكانت ماري عجمي ـ عدا ذلك كله ـ تتقن العزف على بعض الآلات الموسيقية ، وتتمتع بصوت رخيم جذاب

وانتقلت إلى جوار ربها في الخامس والعشرين من كانون الأول « ديسمبر » من العام ١٩٦٥ ، وأقام لها اتحاد الجمعيات النسائية حفل تأبين على مدرج جامعة دمشق ، تكلم فيه عدد من كبار الأدباء والأديبات

هذا جانب يسير من حياة هذه الإنسانة ، المليئة بشتى أنواع الكفاح حياة عمل دؤوب لا يفتر ، ولا يتوقف ولا يتعب

كفاحها المتواصل

عشقت ماري عجمي الصحافة منذ نعومة أظفارها ، وتعلقت بها تعلقاً شديداً ، ووجدتها المنبر المفضل للتعبير عن أفكارها ، والدعوة إلى تحرير المجتمع ، ومكافحة الأمية والجهل ، ومناهضة الاستعمار ، واليقظة القومية الشاملة فأخذت تراسل عدداً من الصحف في دمشق وبيروت وحماه وزحلة ولكنها ما لبثت أن أدركت أنه من الخير لرسالتها الفكرية والاجتماعية ، أن تعبِّر عنها من خلال مجلة خاصة بها ، فأنشأت مجلة « العروس » ، وظلت تصدرها إلى أن دقت طبول الحرب ، فاضطرت لإيقافها وعندما وضعت الحرب الكونية الأولى أوزارها ، استأنفت ماري إصدار مجلتها وبقيت تصدر باستمرار حتى العام ١٩٢٥ ، حين أوقفت في ظروف الثورة السورية العارمة على الفرنسيين

ومرة أخرى عادت ماري إلى مراسلة بعض المجلات في مصر والأرجنتين ودمشق ، ونشر نتاجها الفكري والشعري هنا وهناك

نشأت ماري عجمي ، وفي دمها الثورة على المستعمر العثماني ، والحقد على تخلف المرأة ، والحرص على العمل والحركة في كل مكان ومجال ، من أجل تحقيق السيادة للوطن ، والحرية للمرأة ، ونشر العلم والمعرفة في كل مكان من أجل هذه الأهداف سعت ، وعملت ، وكرست حياتها ونشاطها أنشأت الجمعيات ، وألقت المحاضرات ، وحاربت المستعمر العثماني ، ثم الفرنسي في عقر داره ، وغضبت وثارت من أجل المناضلين الأحرار ، الذين أعدمهم جمال السفاح ، في ساحة الشهداء بدمشق وبيروت

ناضلت ماري من أجل هذه المبادئ ، وبث الشعور القومي ، وأذكت روح الثورة في كل مكان استطاعت كلماتها الوصول إليه ، حتى كادت النار أن تحرقها كيف لا وقد أمكنها ذات يوم أن تقابل السفاح التركي جمال ، وتناقشه في عدد من الأمور ، وأن ترده عن بعض طغيانه ؟ وخرجت من المقابلة ، لتنشئ مقالاً في وصفه ووصف أعماله وكادت النقاط في هذا المقال أن تسقط فوق الحروف ، وأن تدل على الطاغية الحاكم بنفسه . وكادت الكاتبة الجريئة أن تدفع حياتها ثمن هذه الجرأة

والواقع أن ماري كانت كما وصفها ايليا أبو ماضي

بنت سورية التي أبكي ، لها همة الليث وروح الحمل

وحين أطل صباح السادس من أيار ١٩١٦ ، ورأت مشانق الأحرار معلقة في دمشق وبيروت ، انفجرت تبكي وتخاطب الشهداء

أما تبرحون غارقين في سباتكم أيها النائمون ؟
أما تعبت أجنابكم من اللصوق بالرمال ؟
قوموا فقد نمتم نوماً طويلا
إن نفحات الربيع مالئة الفضاء
والأطيار تتسابق على الأفنان

والجداول تناديكم أن هيا عودوا إلينا
لقد كفى القلوب وجدا وأنينا

نظرة في شعرها

بعد هذا علينا أن نتحدث قليلاً عن ماري عجمي الشاعرة ، هذه الإنسانة التي جمعت النبوغ من أطرافه ، والثورة على التخلف والعبودية من كل جانب

لم تعط ماري عجمي الشعر إلا جانباً محدوداً من اهتمامها ولو تفرغت له ، كما تفرغ فحول الشعر ، لكانت شاعرة تقف إلى جانب كبار الشعراء دون ريب . ولكن الشعر كان جانباً يسيراً من اهتماماتها المختلفة وبالرغم من كل ذلك ، فقد كان شعرها آية في الرقة والعذوبة ، ومتانة القافية ، وبلاغة المعنى ، واختيار الكلمة إلا أن نَفَسها في الشعر لم يكن طويلاً ومعظم ما وصلنا من شعرها قصائد قصيرة ، ومقطوعات لا تكاد أبياتها تزيد على بضعة عشر . وشاءت أديبتنا الشاعرة أن تخص مجلة « الصباح » التي كان المؤلف يصدرها ويرأس تحريرها في أوائل الأربعينيات ، بخمس من قصائدها الجياد ، نشرها في أعداد مختلفة ، هي على التوالي : الحنين الذي بقي ، في الغاب ، الخريف ، الراديو ، الديمقراطية ، بالإضافة إلى بعض الأحاديث ، ومقال نثري شائق ، حول المقارنة في وصف الربيع بين أبي تمّام والبحتري . وقد أهدت قصيدتها « الحنين الذي بقي » إلى الأديبة الراحلة السيدة وداد سكاكيني . ومن الإنصاف للشاعرة ، ولكي نعطي صورة صادقة لتفوقها في الشعر أن نورد هذه القصيدة القصيرة بكاملها وقد ذكرت الشاعرة في مقدمتها أنها نظمتها في مصيف برمانا اللبناني ، بعد انقطاع طويل عن الشعر

عروسة شعري أين أنت فنلتقي لقد زاد بعد الشوق حر التشوق
تبعتك لا أدري مكانك إنما لمحتك ليلا بين ظل ورونق

فهمت بوادي الشعر أنشدك الهوى وقلت أيا كأس الغرام تدفقي
وسرعان ما غاب الخيال مودعاً فأصبح شغلي بالحنين الذي بقي
سألت نجوم الليل عنك فخلتها عيونا تحدّق في ضياك وتتقي
وساءلت أزهار الربى هل عشقتها فقالت بلى ، لكنها لم توفق
وساءلت غصن البان ، قال سرقتها ألا إنها إن تأمر القلب يخفق
وقهقهت الأنهار هاتفة بنا لقد كانت الحسناء تأتي فتستقي
ولكنها غابت عن العين بعدما أساء إلى عشاقها كل أخرق

وشعر ماري الذي تركته يغلب عليه الوصف ، وتبدو فيه الصور الحسية ، إلى جانب طابع من الكآبة لنستمع إليها ، وهي تصف الربيع

نضا الروض عنه رداء المنام وألقى عليه وشاح الزهر
ألا أفسحوا للربيع المقام فقد أقبل الكوكب المنتظر
على السهل منه بساط نضير توشى بأزهى فنون الخيال
ترقرق فيه لجين الغدير وشدَّت إليه الطيور الرحال

ولنصغ إليها ، وهي تتحدث عن الصباح ، وتتغنى بجماله

هلل الروض للصباح وكبَّر يا له شاعراً تغنى فأسكر
هبّ والزهر في الغلالة يشدو ما أحيلى الصباح ، الله أكبر
شهد الفجر أروع الآيات إن حب النهوض سر الحياة
فاتر العزم ، قم من النوم وانظر إنما الفجر معرض المعجزات

وحين كبرت ماري وشاخت ، ودب اليأس في أعطافها ، وباتت أسيرة الوحدة القاسية ، أصبح جهاز « الراديو » أنيسها الوحيد ، وسميرها المفضل ، فقالت تناجيه

أنام والأنغام في مسمعي تدوّي وحرُّ الشوق في أضلعي
تردد الأصداء مخضوبة بما نزا في كبد موجع
على جناح الليل في وحشة معقودة الأطراف ليست تعي

يا صلتي بالكون في وحدتي إذا دجا ليل الهوى الأروع
مدّي بهذا الصوت يا طالما حملت إلى الملأ الأرفع
أكل ما يبقيه دهر لنا سلك من الفولاذ في المخدع ؟

ومن الطريف أن نشير هنا ، إلى أنه حين أذيع نبأ وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي ، واهتز العالم العربي حزناً وأسى لهذا النبأ الأليم ، أقبل شيطان الشعر يحمل إلى الشاعرة الرقيقة مطلع قصيدة في رثائه وكان هذا المطلع

« هزوا الغصون لعله نائم » وأنشدت الشاعرة قصيدتها أمام الشاعر الكبير أمين نخلة ، فاهتز طرباً ونشوة ، وخاطبها بلهجته اللبنانية الحلوة

« دخيلك أعطيني إياها ، وخذي من شعري ما شئت » ، ويردد من جديد ، وهو في نشوة : « هزوا الغصون لعله نائم »

ويوم وقف أمين نخلة يرثي ماري عجمي في حفل تأبينها ، خاطب جمهور المستمعين بقوله

« ما لهم لا يهزون الغصون لعلها نائمة ؟ ما لهم لا يرون في يومها ما رأته في يوم شوقي ؟ »

وجدير بالذكر أن الشاعرة خاضت غمار مسابقة شعرية أقامتها إذاعة لندن في العام ١٩٤٦ ، فكانت قصيدتها في وصف الفلاح ، وتصوير نضاله وكده ، الفائزة بالجائزة الأولى بهذه المسابقة ، التي شارك بها عدد كبير من شعراء الوطن العربي . وكررت الإذاعة نفسها المسابقة في العام التالي ، وكانت ماري عجمي الفائزة الأولى للمرة الثانية .

إلى جانب كل ما تقدم من ألوان النشاط ، الذي أسهمت فيه ماري عجمي ، أدلت دلوها في ميدان الترجمة فنقلت إلى العربية عدداً من المؤلفات الروائية والفكرية لبعض كبار الأدباء والمفكرين في العالم ، منها كتاب « أمجد الغايات» لباثيل ماثيور، ورواية «المجدلية الحسناء» . وكانت أديبتنا المفكرة، مجلية ومحلقة فيما ترجمت ، كما كانت مبدعة ورقيقة فيما كتبت ونظمت

آراء أهل الفكر

وبعد فمن هي ماري عجمي ؟ وما هو رأي كبار المفكرين والأدباء والعظماء في هذه الإنسانة ، التي جمعت المجد من أطرافه ؟

سئل ذات يوم الزعيم والعالم والسياسي فارس الخوري عن رأيه فيها ، فأجاب بهذين البيتين وقد قارن فيهما بين ماري عجمي ومي زيادة

يــا أهيــل العبقــريــة سجلـوا هـذي الشهـادة
إن مـــاري العجميــة هـــي مـــي وزيـــادة

وقال عنها الأمير مصطفى الشهابي ، رئيس مجمع اللغة العربية ما نصه « إن ماري عجمي من أكتب كتّاب العربية وكاتباتها ، وإن مجلة « العروس » كانت فريدة بين المجلات العربية »

أما شاعر الشام خليل مردم بك فقال فيها

« لا أحب من غواية المرأة إلا غوايتها في الأدب وأكثر ما يعجبني من أدب المرأة هو سحر الحياء ، وهذان المعنيان ماثلان في الآنسة ماري عجمي وفي أدبها »

وقالت الأديبة الكبيرة وداد سكاكيني :

« كـان الفـرزدق إذا سمـع شعـراً للخنسـاء قـال تلـك أنثى غلبـت الفحول . . . وفي زماننا هذا لو يسأل فحول الأدب عن ماري عجمي ، لأعادوا قول الفرزدق في الخنساء »

ويطول بنا الحديث كثيراً ، إذا ما رحنا نسرد كل الآراء السديدة التي قيلت فيها ، ونشير إلى كل الذين مجدوها وكرّموها بآرائهم وشهاداتهم ، وقدّروا جهدها وجهادها ، وأشادوا بعبقريتها وذكائها الخارقين . . إلا أننا ما نزال جد مقصرين في تقدير هذه الإنسانة النابغة

فنحن لم نقم لها تمثالاً في حيها ، وهي جديرة بذلك

ولم نطلق اسمها على شارع ، وهي أهل لذلك أيضاً

ولم تحمل مدرسة اسمها ، وهي التي حملت راية نهضة نسائية وعلمية شاملة ، وكانت أستاذة لأجيال عديدة

ولم نجمع آثارها المشتتة في مجلتها، وفي عشرات الصحف والمجلات

ولم نحدّث الجيل الصاعد في الكتب المدرسية ، بشيء من أخبارها ، ولم نرو له صفحة من كفاحها

لقد نسيناها كما نسينا سائر عظمائنا في الجهاد الوطني والفكري والعلمي .

واكتفت بعض الجمعيات النسائية بإقامة حفل تأبيني كبير لها وطويت صفحة ماري عجمي ، كما طويت صفحات عظماء السياسة والأدب والفكر في بلادنا ، الذين رحلوا ، فنسيناهم ، ولم نعد نذكرهم في قليل أو كثير

وأحب أن أقول لبعض من بيدهم الأمر ، إن عباقرة السياسة والصحافة والأدب والفن ، سيخلدون مهما تجاهلناهم ، ومهما نسيناهم عامدين أو غير عامدين وسيبعث ذات يوم تاريخهم من مرقده وتنشر صفحات جهادهم ونضالهم كاملة ، وستنصفهم الأجيال القادمة ، مهما أنكرنا حقهم في التقدير ، ومهما قصّرنا في التغني بجهادهم وكفاحهم

* * *

المراجع :

١ـ أعداد من مجلة العروس .

٢ـ مجلة الصباح ١٩٤١ ـ ١٩٤٣

٣ـ مجموعة كلمات ألقيت في حفل تأبينها

٤ـ ترجمة مخطوطة لحياتها للأستاذ يوسف عبد الأحد .

* * *



كوليت الخوري

عشرون كتاباً... والبقية تأتي

١٩٣٥ - ...

حفيدة السياسي الوطني ، والعالم ، الأديب ، الشاعر فارس الخوري

إبنة السياسي ، المثقف ، اللبق ، الدكتور سهيل الخوري

خالها الصحافي الكبير الساخر ، حبيب كحالة صاحب مجلة المضحك المبكي

في هذا الوسط الرفيع ، وهذه البيئة الراقية نشأت ، ونهلت العلم ، والسياسة ، والأدب

كان أول من علمها القراءة ، جدها الكبير

بدأت تكتب الشعر ، وهي في الخامسة عشرة

وظهر أول كتبها بالفرنسية ، وهي في العشرين

وتنوع إبداعها فيما بعد بالعربية ، بين القصة ، والرواية ، والمقالة ، وشتى فنون الأدب

مارست الصحافة حيناً ، والتدريس حيناً آخر

وانتُخبت عضواً في مجلس الشعب مرتين

ثم آثرت أن تتفرغ للأدب والفكر

كتبها المطبوعة حتى اليوم ، تجاوزت العشرين

وعلى الطريق كتب أخرى لا حصر لها

كوليت الخوري ، أديبة كبيرة ، تشغل مكانة رفيعة ، وذات حضور متميز

شيء من حياتها

أبصرت الطفلة كوليت النور بدمشق في العام ١٩٣٥ وهي تنتمي إلى أسرة ذات تاريخ عريق بالسياسة ، والوطنية ، والعلم والأدب والدها الدكتور سهيل ، الوطني ، والسياسي ، والمثقف اللبق تعرفه مختلف الأوساط ، وتدين له بالمحبة والتقدير

أما جدها فهو السياسي ، العالم ، الأديب ، الشاعر فارس الخوري[1] ، أحد أركان السياسة والوطنية في سورية تروي السيدة كوليت أن أول من علمها القراءة جدها ، عندما كانت في الرابعة من العمر ثم أخذت تقرأ الإنجيل والقرآن وهي صغيرة وانتقلت بعد ذلك إلى مدرسة الراهبات « البيزانسون » وكانت أستاذتها السيدة عفيفة زغيب وكانت ـ كما روت في إحدى المقابلات ـ متفوقة في الرياضيات والصرف والنحو غير أنها كانت مقصرة في التاريخ والجغرافيا

بعد أن أكملت تحصيلها الابتدائي ، انتسبت إلى معهد اللاييك وفي هذه المرحلة المبكرة من الحياة ، بدأت تنظم الشعر بالفرنسية

وفي عام ١٩٥٢ فازت بالشهادة الثانوية ، وانتسبت إلى الجامعة اليسوعية في بيروت ، فدرست الحقوق سنتين ، قبل أن تتعرف إلى الكونت الإسباني « رودريغو دي سايس » ، فنالت « الليسانس » بالحياة الزوجية ، بدلاً من ليسانس الحقوق والقانون !.. وأقامت مع زوجها في باريس غير أنها لم تطق حياة الاغتراب ، فانفصلت عن زوجها ، وعادت إلى دمشق ، لتدخل الجامعة من جديد ، وتدرس الأدب الفرنسي

وفي عام ١٩٥٦ أنجبت ابنتها « نارة » ، التي باتت اليوم طبيبة ماهرة وفي هذه المرحلة ، زارت كثيراً من البلدان الأوروبية ، كما رحلت إلى الولايات المتحدة ، وأمضت فيها ثمانية أشهر ، درست خلالها اللغة الإنكليزية .

حياتها الأدبية

بدأت السيدة كوليت حياتها الأدبية ـ كما أسلفنا ـ في سن مبكرة جداً

---

(١) يتضمن هذا الكتاب فصلين مستقلين عن الرجلين الكبيرين فارس والدكتور سهيل الخوري

كانت في الخامسة عشرة عندما بدأت تكتب الشعر وتنشره في الصحف والمجلات وعندما بلغت العشرين ، صدر أول كتبها بالفرنسية « عشرون عاماً » ، وهو مجموعة شعر وتوالت كتبها بالصدور ، واستمر عطاؤها ولا يزال وتزوجت أديبتنا الكبيرة ثانية من رجل الأعمال الدمشقي المعروف السيد أنطون زلحف وتعيش معه حياة ملؤها السعادة والمحبة

عندما جرت انتخابات مجلس الشعب في عام ١٩٩٠ فازت بعضوية المجلس

ومرة ثانية رشحت نفسها في انتخابات مجلس الشعب التالية ، وكانت كذلك بين الفائزين

أما في الدورة التي جرت عام ١٩٩٩ ، فقد آثرت البعد عن هذه الأجواء ، فلم ترشح نفسها ، بل آثرت أن تكرس وقتها وجهدها للحياة الأدبية والثقافية

ولا ريب أن اعتزال السيدة كوليت النشاط السياسي ، فيه كسب كبير للحياة الأدبية . وقد استطاعت في الآونة الأخيرة ، أن تضاعف من نشاطها الأدبي ، وتثبت حضورها في الندوات واللقاءات التي تدعى إلى المشاركة بها

بين الصحافة والأدب والتدريس

لدى ظهور السيدة كوليت في الحياة الأدبية ، كانت ما تزال في باريس ، تعيش متأثرة بأجواء الغرب كان كتابها الأول « عشرون عاماً » بالفرنسية غير أنها عندما عادت إلى أرض الوطن والأجواء العربية ، لم تجد ما يبرر أن يكون إبداعها بالفرنسية ، من أجل هذا ضاعفت عنايتها بلغة الآباء ، وانتقلت إلى الكتابة بالعربية

تمارس السيدة كوليت كتابة الرواية الطويلة ، والقصة القصيرة ، وتكتب المقالة والدراسة التاريخية. وقد تجاوز عدد كتبها حتى الآن، العشرين كتاباً

يضاف إلى ذلك أن السيدة كوليت تعشق الصحافة ، بحكم جذورها العائلية وقد شاركت في مرحلة معينة ، بتحرير صفحات الثقافة بمجلة « المضحك المبكي » التي كان يصدرها خالها المرحوم حبيب كحالة

كذلك مارست كوليت التدريس بعض الوقت ، وقدمت دروساً ومحاضرات بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق

وقفة عند روايتها « أيام معه »

بعض كتب كوليت الخوري أثار ضجة ونقاشاً طويلين في الوسط الأدبي والثقافي ، وأعيدت طباعتها مرات عديدة روايتها « أيام معه » التي صدرت في العام ١٩٥٩ أعيدت طباعتها خمس مرات ، ولا تزال مرشحة لمزيد من الطبعات

هذه الرواية علّق عليها كثير من الأدباء والنقاد بعضهم أثنى عليها، وأعجب بها ، واعتبرها نقلة جريئة في أدب المرأة وبعض آخر اعتبر جرأتها « وقاحة » ، وخروجاً على الآداب والتقاليد ، وزعم أن بطلة الرواية « ليلى » هي المؤلفة نفسها ، وأن العلاقة العاطفية ، التي تتحدث عنها الرواية ، مع الشاعر العربي الراحل « نزار قباني » الذي يحمل في الرواية اسم « زياد »

وسواء كان الفريق الأول أو الثاني على صواب ، فيما قال أو كتب ، فإن الرواية بحد ذاتها ، تظل عملاً إبداعياً جيداً ، بل في مقدمة الأعمال الروائية الناجحة

ذات يوم من عام ١٩٦٠ أجرى معها الأستاذ عيسى فتوح لقاء صحفياً ، نشرته مجلة « دنيا المرأة » ، حول هذه الرواية في هذا اللقاء ، قالت كوليت رداً على سؤال حول روايتها هذه :

ـ كنت أنظم قصيدة بالفرنسية ، فلم أوفق . ثم حاولت كتابتها بالعربية ، فترددت أيضاً . عند ذلك أخذت أكتب وأكتب ، حتى ملأت عشر صفحات

ثم راجعت ما كتبت ، فإذا بي أجده كالشعر رقة وعذوبة

« سأملأ كأسي برحيق الفن ، فالفن نبع فياض ، دفق وجود لا ينضب ، مهما غرفنا منه يظل يسكرنا بالآمال والحب » كنت أكتب وأفكاري تتدفق بشكل لا عهد لي بمثله استغرقت بالكتابة ثلاثة شهور وكانت أعصابي متوترة ، لا يأتيني النوم أبداً. وبعد أن فرغت من الكتابة ، نمت أسبوعاً كاملاً كنت خائفة من الفشل ، خائفة من السقوط في منتصف الطريق ، قبل أن أصل إلى النهاية

كانت الشائعات في الوسط الأدبي تؤكد ، أن بطل القصة « زياد » هو نزار قباني ، وأن « ليلى » هي المؤلفة نفسها حول هذه الشكوك والشائعات قالت السيدة كوليت

ـ هذه الظنون والشائعات لا أساس لها من الصحة . إنك لا تستطيع أن تعثر في قصتي على بطل أو بطلة ، تنطبق عليهما كل الصفات التي أردتها إن ليلى إحدى صديقاتي ، ولكن ملامحها ، قد لا تجمع ملامح ليلى في القصة ربما انقصت منها أو زدت عليها وهكذا الأمر مع زياد إن ملامحه قد تزيد أو تنقص عن ملامح نزار قباني . لقد عبّر نزار عن أحداث مجتمعه شعراً ، فأي مانع في أن يعبّر زياد عنها نثراً ؟

ورغم هذا فللقارئ ملء الحرية في أن يصدق دفاع الكاتبة الكبيرة ، أو يؤمن بما تجمع عليه الأوساط الأدبية والنقاد ! .

أوراق فارس الخوري

هذه نظرة عجلى في واحد من كتب السيدة كوليت ، ولكل واحد من كتبها وروراياتها خصوصيتة ونكهته .

في السنوات الأخيرات ، آثرت كوليت أن تكرس جانباً من وقتها وجهدها ، لجمع آثار جدها العلامة فارس الخوري وهي كثيرة جداً ،

وموزعة في ثنايا الصحف والمجلات   وكثير منها ما يزال سراً لم ير النور وقد صدر من هذه الآثار جزءان كبيران باسم « أوراق فارس الخوري » ، والجزء الثالث والأخير على وشك الصدور

إنه دون ريب ، عمل جليل ، تستحق الحفيدة الأديبة كل الشكر عليه وإن كان لا يجوز الشكر للحفيدة على واجب كهذا

* * *

ولعل خير ما نختتم به هذا الفصل عن أديبتنا الكبيرة ، الرأي الذي أدلى به الشاعر اللبناني سعيد عقل ، وقد سماها « صاحبة القلم الضوئي »   وقال فيها ما نصه   « كوليت خوري امرأة عظيمة ، وروائية كبيرة   في أدبها تطل المرأة طاغية جميلة ، وهي السيدة المثقفة المطلعة على أدب الغرب ، وأدب وكتاب العرب المشهورين

ولكنها لم تتأثر بأحد من عظماء التاريخ ، وبقي أدبها فيه نضارة ، وهذا مهم جداً أن تكون في خط العظماء ، وتبقى أنت أنت »

عناوين كتبها

١ـ عشرون عاماً ـ مجموعة شعر بالفرنسية ١٩٥٧

٢ـ أيام معه ـ رواية ـ خمس طبعات ١٩٥٩ الطبعة الأولى

٣ـ رعشة ـ شعر بالفرنسية ١٩٦٠

٤ـ ليلة واحدة ـ رواية ـ ١٩٦١

٥ـ أنا والمدى ـ مجموعة قصصية ـ ١٩٦٢

٦ـ كيان ـ قصة ١٩٦٨ (ثلاث طبعات)

٧ـ دمشق بيتي الكبير ـ قصة ١٩٦٩

٨ـ المرحلة المرة ـ قصة ١٩٦٩

٩ـ الكلمة الأنثى ـ مجموعة قصص ١٩٧١

١٠ـ قصتان ـ ١٩٧٢

١١ـ ومرّ صيف ـ رواية ١٩٧٧

١٢ـ أغلى جوهرة في العالم (مسرحية بالعامية) ١٩٧٥

١٣ـ دعوة إلى القنيطرة ـ قصة طويلة ١٩٧٦

١٤ـ أيام مع الأيام ـ رواية ١٩٧٩

١٥ـ الأيام المضيئة ـ قصص ١٩٨٤

١٦ـ معك على هامش ـ روايات غزل ١٩٨٧

١٧ـ أوراق فارس الخوري (الجزء الأول) ١٩٨٩

١٨ـ أوراق فارس الخوري (الجزء الثاني) ١٩٩٧

١٩ـ امرأة ـ (قصص) ٢٠٠٠

* * *

المراجع

١ـ ترجمة موجزة زودتنا بها السيدة كوليت خوري

٢ـ بعض كتب السيدة كوليت خوري .

٣ـ مقابلة أجراها الأستاذ عيسى فتوح لمجلة « دنيا المرأة » عام ١٩٦٠

٤ـ أعداد مختلفة من مجلة « الدنيا » التي كان يصدرها المؤلف

* * *



د. رَنا قبّاني

بَاحِثَة تدافع عَن وَطنِهَا في الغَرب

١٩٥٨ ـ ....

والدها دبلوماسي كبير ، ومؤسس عدد من الهيئات الإعلامية الكبرى

درست في دمشق وواشنطن ولندن

جاءت ثقافتها مزيجاً من الشرق والغرب

وفازت بأعلى الشهادات العالمية

أقامت بعد ذلك في الغرب ، بعيداً عن الوطن ومسقط الرأس

وظل الدم العربي في شرايينها لم يتبدل

حملت راية الدفاع عن العرب والإسلام ، ووقفت في وجه كل مفترٍ ومتطاول .

ألقت المحاضرات ، وأجرت المقابلات ، وألّفت كتابين ، وكلاهما دفاع عن العرب ، وردود على المفترين .

دافعت وتدافع عن حقوق الإنسان والمضطهدين

أعادت تزيين السفارة السورية في لندن ، وأضفت عليها طابعاً شامياً ساحراً

واختارها ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز لتكون مستشارة له في الشؤون الإسلامية

رنا قباني . . . سليلة الأسرة ، التي أنجبت العلماء والسياسين ، والتابعين .

المولد والأسرة

أبصرت الطفلة رنا ابنة د صباح قباني النور بدمشق في العام ١٩٥٨ وهي تنحدر من أسرة عريقة ، أنجبت عدداً من أهل الأدب والفن والسياسة جدها الأكبر مبدع المسرح الغنائي العربي في مصر والشام أحمد أبو خليل

القباني[1] ، وعمها الشاعر الكبير نزار قباني[2] ، ووالدها الدبلوماسي ، مؤسس التلفزيون السوري د صباح قباني[3] وجدها لأبيها الوطني المعروف والصناعي الشهير توفيق القباني[4]

أما أسرة والدتها ، فخال أمها المحامي والسياسي الوطني المرموق سعيد الغزي[5] ، الذي تقلد رئاسة الوزارة في سورية أكثر من مرة ، والسياسي الكبير فوزي الغزي[6] ، واضع الدستور السوري الأول عام ١٩٢٨

الموهبة والدراسة

تفتحت موهبتها الأدبية في سن مبكرة ، وكتبت قصائد شعرية باللغة الإنكليزية ، وهي ما تزال في السابعة من العمر ، عندما كانت في المرحلة الابتدائية في نيويورك ، حيث كان والدها يشغل منصباً دبلوماسياً كبيراً وبعد حصولها على البكالوريا السورية في دمشق ، التحقت بجامعة « جورج تاون » في واشنطن ، حيث نالت شهادتي البكالوريوس والماجستير في الآداب بدرجة شرف ، ثم انتسبت إلى جامعة « كامبريدج » في بريطانيا ، وحصلت على شهادة الدكتوراه في الفلسفة والآداب الإنكليزية عام ١٩٨٦

نشاطها الإعلامي

منذ أن أقامت الدكتورة رنا في لندن ، وهي تمارس الكتابة الثقافية

---

(١) انظر دراسة لتاريخه وأعماله في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف
(٢) انظر دراسة موسعة لحياته وشعره في كتاب « عبقريات من بلادي » للمؤلف
(٣) انظر ترجمة لحياته وأعماله في كتاب « أعلام ومبدعون » للمؤلف
(٤) انظر ترجمة لحياته وأعماله في كتاب « أعلام ومبدعون » للمؤلف .
(٥) انظر ترجمة مفصلة لتاريخه في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف
(٦) انظر ترجمة كاملة وموسعة لتاريخه ومصرعه مسموماً في كتاب « عبقريات وأعلام » للمؤلف

والسياسية في أكبر الصحف والمجلات البريطانية التي كتبتها باستمرار ، بمراجعة الكتب الحديثة ، ذات العلاقة بالتاريخ العربي والإسلامي ، والتي تتناول القضايا السياسية في شؤون الشرق الأوسط . ومن أبرز الصحف التي تكتب فيها « التايمز » و« الغارديان » و« الإندبانديت » ، و« الأوبزرفر » و« الهيرالدتريبيون » ، و« الديلي تلغراف » . وتكتب من وقت لآخر في بعض الصحف العربية ، التي تصدر في لندن ، مثل « الحياة » و« الشرق الأوسط » وغيرهما . كما تستفتيها باستمرار محطات الإذاعة والتلفزيون ، للمشاركة في الحوارات والمناقشات التي تجريها . وغالباً ما تدعوها هذه المحطات للحضور إلى ستديو الأخبار فيها ، ليحاورها مذيع النشرة الإخبارية ، ويطلب التعليق على خبر جديد أو تطور حدث للتو في المنطقة العربية ، أو في وطنها سورية . وتنطلق إجاباتها من رؤيتها العربية ، التي تهدف إلى تصحيح المغالطات التي ربما تكون قد وردت في الخبر المذاع .

وقد كلفها التلفزيون البريطاني بإعداد وتقديم مجموعة من البرامج الوثائقية ، كان من أهمها « توقٌ إلى الإيمان » تناولت في حلقاته الأربع ، أوضاع الجالية الإسلامية في بريطانيا . كذلك طلب منها عام ١٩٩٥ الذهاب مع فريق تلفزيوني إلى سورية لإعداد برنامج عن الجولان المحتل . ووصلت الدكتورة رنا إلى دمشق ، وقامت بتغطية هذا الموضوع من وجهة النظر السورية . وأجرت حوارات مع الذين شردهم العدوان الإسرائيلي ، بعد أن دمر بيوتهم ، وتحدثت بإسهاب عما تعرضوا له من ظلم . وأبرزت إصرارهم على العودة إلى ديارهم ، مهما طال الاحتلال الإسرائيلي . وقد أحدث البرنامج ضجة كبرى في بريطانيا وإسرائيل لدى عرضه . فقد استطاع أن يقلب الصورة التي كانت وسائل الإعلام تحاول رسمها عن الجولان ، من وجهة النظر الإسرائيلية .

ورداً على هذا البرنامج نشرت جريدة « جيروزاليم بوست » الإسرائيلية مقالين ، أحدهما افتتاحي ، هاجمت فيهما الدكتورة رنا والإذاعة البريطانية ، واتهمتها بأنها عرضت برنامجاً دعائياً لسورية ، وقدمته رنا بلغة عاطفية ، تهدف إلى استمالة المشاهدين وإقناعهم بالموقف السوري من الجولان

إن موقف الدكتورة رنا في هذا البرنامج ، يعكس موقفها المبدئي في جميع مقالاتها ومحاضراتها وكتبها ، والذي يتلخص في تمسكها بجذورها العربية والإسلامية ، والتصدي لكل ما يسيئ إلى هذا التراث وهذا الموقف بالافتراء أو التلفيق .

أساطير أوروبا عن الشرق

من هنا كان كتابها الأول الذي أصدرته عام ١٩٨٦ ، وهو أطروحتها للدكتوراه ، ويحمل عنوان « أساطير أوروبا عن الشرق ـ لفِّق تسد » وقد هشّمت فيه الصورة التي غرستها في أعماق القارئ الغربي منذ القرون الوسطى ، كتابات الرحالة والمغامرين الأوروبيين عن الشرق والعرب والإسلام

وقد قوبل الكتاب لدى صدوره باهتمام واسع في أوروبا وأميركا . وترجم إلى عدد من اللغات ، وقرَّظه نقاد كثيرون في بريطانيا وأميركا وقالت الناقدة الأميركية « ديبورا ميسن » في جريدة « نيويورك تايمز » : « لقد بينت رنا قباني أن حصيلة ما كتبه الرحالون المستشرقون هي تأكيد للتحامل الغربي ، وتخليد للصورة التي لفَّقتها أوروبا عن الشرق » وكتب آصف حسين في مجلة « الدراسات الإسلامية » التي تصدر في لندن « إن أهمية الكتاب تأتي لا من مجرد فضحه لأساطير الأوروبيين عن الشرق ، بل أيضاً من أنه يزود القارئ بدروس من الماضي ، لتكون عبرة للمستقبل ، فالغرب لم يتوقف قط عن

اختراع الأساطير وعندما تبرز كاتبة مثل رنا قباني لتتصدى لها ، فإن ما كتبته يجب أن يصبح قدوة لكل من يقاوم موجة الأساطير الجديدة » وكتبت الناقدة « آنجيلا كارتر » في جريدة « الغارديان » اللندنية « إن رنا قباني استطاعت كإمرأة عربية ، ذات حجة قوية ، أن تسقط الأقنعة عن وجوه الكتّاب الغربيين الاستشراقيين ، الذين كانوا في نظر مواطنيهم أنصاف آلهة »

كتابها الثاني

أما كتاب رنا الثاني « رسالة إلى الغرب » الذي صدر عام ١٩٨٨ ، فقد تابعت فيه الحديث عن استمرار الرؤية الغربية المشوهة للعرب والإسلام ، والذي ظهر جلياً بعد ظهور كتاب سلمان رشدي صاحب آياته الشيطانية وقد أثبت دفاع بعض الكتاب الغربيين عنه ، أن عداوة الغرب للشرق لم تنته ، وأن سيوف الصليبية لا تزال « مشهرة في وجوهنا ، مثلما كانت عليه في القرون الخوالي » .

وقد اهتمت دور النشر العالمية بالكتاب الجديد ، فترجم إلى الألمانية ، والدانمركية ، والهولندية ، والتركية

عندما ترجم الكتابان إلى العربية[١] ، توالت تعليقات الأدباء والنقاد العرب والإشادة بهما في عشرات المقالات في الصحف والمجلات العربية

قالت عنه الأديبة غادة السمان : « إن دراسة رنا الرصينة العميقة نموذج جميل لوعي المرأة العربية وقدرتها على الإبداع في الحقول كلها إن رنا العاشقة الدمشقية للحقيقة ، استطاعت أن تمنح المكتبة العالمية والعربية عملاً هاماً ، يلقى الأضواء على جذور سوء التفاهم بيننا وبين الغرب ، ويسهم في

---

(١) أصدرت الكتاب الأول دار طلاس بدمشق عام ١٩٨٨ . والكتاب الثاني أصدرته دار الآداب في بيروت عام ١٩٩١

إيجاد الدرب العملية للقاء إنساني عادل ومثمر »

وكتب الشاعر بلند الحيدري يقول « إن كتاب « أساطير أوروبا عن الشرق » لرنا قباني هو بمثابة ممر لعودتنا إلى محاكمة التاريخ الذي كتبه المنتصر الأوروبي وكان شاهد الزور عليه أيضاً ، ليكون له وحده الحق في أن يصنِّفنا أمماً وشعوباً وشيعاً ، كما يريد لنا أن نكون فالكتاب هو رد بالوقائع على افتراء الغرب لتاريخنا ، وهو جهد متميز ، وتذكرة للمؤسسات الثقافية العربية بمدى تقصيرها في هذا المجال ، ومدى ما عليها الآن ، بعد أن اتسعت للتزييف مجالات أوسع وأخطر عبر السينما والتلفزيون والفضائيات ، والتي تستوجب رصداً مستمراً ويقظاً »

نشاطات مختلفة

ولا يقتصر اعتزاز رنا بتراثها على التحدث عنه في محاضراتها ولقاءاتها الإعلامية ، ولكنها تعيشه بصورة يومية في بيتها اللندني الذي جعلت منه واحة شرقية جميلة ، لفتت أنظار المجلات البريطانية المختصة بالتصميم والتزيين ، فكتبت تحقيقات مصورة عن الطراز العربي ، الذي يتجلى في كل ركن من أركان البيت

في هذا البيت الأنيق الجميل ، تعيش رنا مع زوجها الكاتب والصحفي الكبير باتريك سيل وولديها الجميلين إسكندر وياسمين

وقد تطوعت رنا على مدى سنتين ، لإعادة تزيين مقر السفارة السورية في لندن ، وإضفاء الطابع السوري الجميل عليه ، وتزويده بالقطع الدمشقية ، التي تشع بالسحر والعراقة وهكذا استطاعت أن تعكس محبتها الكبرى لوطنها الغالي ، وحرصها على أن تكون صورة سفارته في الخارج بهية ومشرقة

ولا تنقطع الدكتورة رنا عن زيارة وطنها ، حيث تستضيفها برامج الحوارات السياسية ، التي يقدمها التلفزيون السوري باللغة الإنكليزية

إلى جانب هذا ، تعتبر رنا من الناشطات في حملات الدفاع عن حقوق الإنسان للنساء والأطفال والمضطهدين في أقطار العالم النامي وكانت لها مواقف معروفة في تنبيه الرأي العام البريطاني ، إلى مأساة البوسنة وكانت في مقدمة المتظاهرين والخطباء في ساحات لندن ، للتنديد بما كان يحل بمسلمي أوروبا من كوارث مفجعة

كما أن رنا تزوّد بمشورتها فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية ولي العهد البريطاني الأمير « تشارلز » ، الذي اعتمد على كثير من أفكارها ، في خطابيه الشهيرين ، اللذين ألقاهما عن « الإسلام والغرب » في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٧-٣-١٩٩٣ وعن « بناء الجسور بين الإسلام والغرب » في « ويلتون بارك » في ١٣-١٢-١٩٩٦

* * *

وتبقى الدكتورة رنا قباني ، إبنة الأسرة الدمشقية العريقة ، التي سبقت الإشارة إليها ، في مطلع هذا الفصل ، تبقى الإنسانة الأصيلة ، والصورة المشرقة ، لوطنها الأم ، أينما حلّت أو توجهت .

* * *

المراجع

١ـ كتاب « أساطير أوروبا عن الشرق » ـ د رنا قباني

٢ـ كتاب « رسالة إلى الغرب » ـ د . رنا قباني

٣ـ صحف ومجلات عربية وأجنبية مختلفة

٤ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة

* * *



IMPERIAL FICTIONS

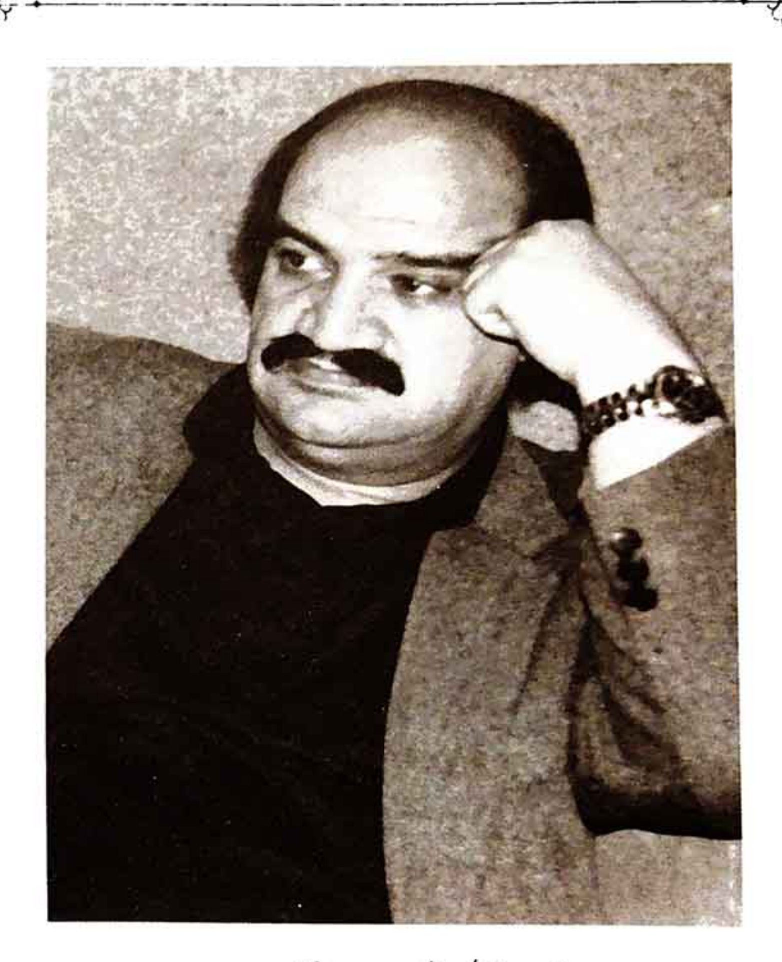
Europe's Myths of Orient



RANA KABBANI



غلاف كتاب « الأساطير الامبريالية » للدكتورة رنا قباني الصادر عن دار نشر فيراغو اللندنية



أحمد المفتي

الأديبُ الشاعِرُ والباحِثُ المفَنّ

١٩٤٨ - ....

عبقرية متفوقة ، في شتى العلوم والفنون

إذا وصفناه بكبير الخطاطين ، لا نكون قد بالغنا

وإذا قلنا إنه أديب ، ومؤرخ ، ومؤلف ، لانكون قد جانبنا الحقيقة !!

وإذا نعتناه بالشاعر المبدع والمجلى ، لا نكون قد أخطأنا

وإذا قلنا إنه فنان ، وأستاذ متفوق في كل ما ذكرنا ، نكون قد أنصفنا

أحمد المفتي ، بكلمات قليلة ، مجموعة مواهب ، إنه يشبه ـ بالتعبير الشامي ـ زبدية الصيني ، التي ترنُّ ، وتسمعك أنغامها الحلوة ، من أي مكان نقرت عليها

ويبقى السؤال المحير ، الذي لا نحسن الجواب عليه كيف استطاع ويستطيع أحمد المفتي ، أن يقوم بهذه المهام والأعمال ؟

طفولته ونشأته[1]

أبصر الطفل أحمد بن محمود المفتي النور بدمشق في العام ١٩٤٨ ويعرف والده التقي ، النقي ، الورع بهذه الصفات الحميدة ، يضاف إليها حفظه القرآن الكريم وكان هذا الأب الفاضل ، قد رزق بثلاث بنات قبله ، فلما أطلّ أحمد على الدنيا ، فرح به فرحاً شديداً ، وأولاه كل عنايته ورعايته لقّنه علم التجويد مع قراءة القرآن ، قبل أن يبلغ الرابعة من العمر كذلك علمه ضبط مخارج الحروف ، وضروب النغم قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية وكان فيما بعد القارئ الذي يقف في باحة المدرسة ، ليتلو في الصباح عشراً من القرآن ، وهو أصغر طالب

---

(١) بعض معلومات هذا الفصل زودنا بها مشكوراً الأخ الأستاذ أحمد المفتي

وكان جده لأمه الشيخ العارف بالله العالم الفرضي محمد جزّو[1] يُحضره مجالس العلم التي كانت تقام في داره ويحضره والده دروس العالم المتصوف الشيخ ملاّ رمضان البوطي ، والد العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، فاكتسب المعرفة والعلوم الدينية منذ نعومة أظفاره ، فاستقام لسانه ، ونما حبه للعلم والمعرفة ، قبل أن يتجاوز مرحلة الطفولة وأصبح نهماً للمطالعة ، وهو يجد نفسه في مكتبة جده التي تحفل بألوان من العلوم والفنون وكان جده عالماً بالخط العربي وفن التذهيب ، فصادف ذلك في نفس الفتى أحمد ، محبة قادته إلى تعلم هذا الفن .

درس الابتدائية والثانوية في بعض مدارس دمشق ، ثم انتسب إلى كلية الآداب في جامعة دمشق ، فرع اللغة العربية ، بعد أن قطع في حياته شوطاً كبيراً ، جعله الخطاط المشهور ، والأديب الأريب ، والخطيب المِصقع ، والشاعر المرهف ذاع صيته في مجال البحث العلمي ، ومن خلال برامج الإذاعة ، والتلفاز ، والصحافة ، وأصبح المرجع في علم النقوش والكتابة ، وفن المخطوطات

أخذ علم الخط عن جده في البدء ، وخلال دراسته الإعدادية عام ١٩٦١ تتلمذ على يد الخطاط الشهير بدوي الديراني[2] . خطاط بلاد الشام ، وأخذ عنه فن خط التعليق الدمشقي ، وصقل فيه موهبته . وله فيه شعر رقيق يقول فيه :

قيثارة « التعليق » كم من ليلة	قد همت فيها عازفاً بهواكِ
أدنو لأطبع فوق خدك قبلة	تتمنعين وتهزمين فتاك
حتى إذا لجّ الطما وتمكنت	بين العروق طبيعة النساك

---

(١) انظر « تاريخ علماء دمشق » ج٣ تأليف مطيع الحافظ ونزار أباظه

(٢) انظر في هذا الكتاب فصلاً عن تاريخه وأعماله .

وصقلت نفسي من غرور شابها وحرمت أنسي من عبير لقاك
وجنحت نحو « النسخ » أطلب وده قدمتِ ثغراً فاستبحت لماك

نشاط وأعمال مختلفة

سافر الأستاذ أحمد إلى استانبول في العام ١٩٦٧ وتعرف إلى الخطاط حامد الآمدي ، الفنان العملاق ، وأخذ عنه قواعد خط الثلث والنسخ كما كان يلتقي الخطاط العملاق هاشم البغدادي ، خلال زياراته للأستاذ بدوي الديراني في دمشق . كذلك زار مصر ، واطلع على ضروب الخط فيها ، ولاسيما سيد إبراهيم الخطاط ، والشاعر الأديب

عمل الأستاذ المفتي في مطلع حياته رساماً في مصلحة البريد وكانت رسوم وخطوط البريد في أعوام ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ تزدان بتوقيعه ، بعد أن درس فن الرسم ، وأتقن أسلوب المدرسة الإنكليزية ، التي تحتاج إلى صبر وأناة في الرسم بالريشة .

كذلك عمل رئيساً لتحرير جريدة « الرياضة » بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧٢ ، ونشر خلالها مئات المقالات الناقدة بأسلوب جميل . وكانت له في الجريدة زاوية بعنوان « حديث عيسى بن هشام » يكتبها بأسلوب المقامات حول مباراة من المباريات وفيها من الفكاهة والطرافة والسخرية ما يدل على قلم متمكن .

عمل كذلك مديراً فنياً لمؤسسة الرسالة للطباعة والنشر . وكان الفنان الذي أدخل غلاف الكتاب الملون وطباعته بالأوفست إلى دمشق . وبلغ رصيده من عام ١٩٧٠ حتى العام الحالي ٢٠٠٠ أكثر من عشرة آلاف تصميم . ومن بينها تصاميم كتب المؤلف ، التي تدين له بالحس المرهف ، والذوق الرفيع . وله

أيضاً مئات القصص المرسومة واللوحات التي جعلت منه رساماً وخطاطاً شهيراً

قدم في مؤتمر الأرابسك الذي دعت إليه منظمة اليونسكو ومنظمة أرسيكا المؤتمر الإسلامي ووزارة الثقافة السورية ، بحثاً جديداً حول تطور الرموز في القرآن الكريم وكان من أفضل البحوث التي قدمت عام ١٩٩٧

وقدم في المؤتمر الدولي الذي عقد في أنقرة عام ١٩٩٩ بمناسبة مرور سبعمئة عام على ولادة الدولة العثمانية ، بحثاً فريداً عن التأثيرات اللغوية على الأتراك العثمانيين ، من خلال الخط العربي

قدم برنامجاً متميزاً في تلفزيون دمشق بعنوان « رحلة القرآن الكريم » وله سهرات ثقافية وندوات تبث من قناة دبي ويحضّر الآن لإخراج برنامج عن طريق الحج وبرنامج وثائقي عن النقود والمسكوكات

قدم ندوات عن التصوف ، ومجالس الذكر ، والمدائح النبوية ، وأعياد المولد بأسلوب متميز

من الآثار التي أبدعها ، كتابة الألواح الأثرية والترميمات في جامع بني أمية الكبير ، والشريط الكتابي في جامع سعد بن معاذ بدمشق . كما ألف كتاباً عن الجامع الأموي وترميماته

المفتي على ألسنة الشعراء

اطلع عدد من الشعراء على أعمال الأستاذ أحمد المفتي ، فأطلقت هذه الأعمال الجميلة ألسنتهم ، وحرضت قرائحهم ، فكرموه بأشعارهم فقد قال فيه الشاعر الكبير عمر أبو ريشة

يا فارساً سبّاق مهرٍ سبتِ ... في فنه وجمالُ روعة صمت

فوق الرؤوس وقار بهجة سمت — لغة الحديث ، لطيفُ رقة صوت

أدب وذوق من أصالة بيت — والشعرُ ريحانٌ وزنبق نبت

في كل شطر من بحور البيت — سلمت يد برعت وفوق النعت

خطاطها الرسام أحمد مفتي

وقال فيه الشاعر الفلسطيني الراحل حسن البحيري قصيدة طويلة نقتطف منها قوله

يا « أحمد المفتي » بقيت الباهرا
بسبق فن يأسر المشاعرا
ويملأ القلوب بالأشواق
ويكحل العيون بالإشراق
فقد وُهبت الخط والرسم معا
فكنت في هذا وذاك المبدعا
كما حباك الله ذكراً طيباً
معطر النفح كأنفاس الربا
وخلقاً سهل القياد أحمدا
كأنما صفاؤه قطر الندى

وأرسل إليه شاعر اليمن الساخر قاضي القضاة ، السفير أحمد عبد الرحمن المعلّمي قصيدة طويلة يقول فيها

يا صاحب الفكر المشعّ — وصاحب الرأي المنير

يا من له قلم يخلّدُ — مجده عبر العصور

يا أحمد المفتي الأديـ — ـب سلمت من كل الشرور

أنت المفن إذا كتبت — وسحر فنك في السطور

وإذا رسمت أثرتَ ألباباً — وفقتَ بلا نظير

وإذا شعرت خلبت بالإبدا ع ربّات القصور
لله كم خلدت من أثر يدوم مدى الدهور
تبدي بريشتك الزكية روعة السحر المثير

وكتب عنه أدباء كثيرون في الوطن العربي وكلهم أبدىٰ إعجابه بخطه وشعره وأدبه

المفتي شاعراً

عمل أحمد المفتّي محاضراً في الدورات التدريبية لمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، وأستاذاً في معهد الآثار بدمشق ، وأستاذاً في معهد الفنون ، ومخرجاً مدققاً لمجلة نهج الإسلام

شارك في عدة مؤتمرات دولية ومحلية ، وكان الباعث لنهضة الخط العربي ، من خلال المعارض والمؤتمرت والصحافة والتلفاز

شغله الفن والبحث ، فلم ينل شعره الحظ الوافي من الشهرة ، مع أنه شاعر متمكن ، قادر على العطاء والارتجال له ديوان شعر كبير ، فيه من الفنون أحسنها وأجملها وما زال هذا الديوان سجيناً بين أوراقه ولا ندري متى يصدر الأخ المفتي العفو عنه ، ويأذن له بأن يرى النور ! .

من شعر الأستاذ المفتي في دمشق هذه الأبيات

فوق القماري عششت قمرية وبنى اليمام العش باطمئنان
وتفتحت نارنجة بأريجها والجلّنار غفا على الرمان
وشدا الهزار فرددت ألحانه وتدفقت كالماس كالعقيان
« فسقية » دفاقة تشكو الهوى وتعيد رجع الصوت في أوزان
والياسمينة فتّحت أزهارها والليلكية عرّشت بجُمان
والشمعة الحسناء تنشر عطرها وسط الديار وفي حمى الليوان

من خلف « خصٍّ » طل وجه فاتن قمـر يغيـب بنـورهـا الفتـان

يـا وردة شـامية بخـدودهـا والثغـر خمـر حـار فيـه بيـانـي

دنيـا مـن السحـر الظلـوم قـوامهـا فتزركشت « صرما » و« بالأغباني »

وتمنْطقت بالسوسن الغض الذي حـاكى البنفسج لـو عتى فبكـاني

هـذي دمشـق حبيبتـي بجمـالهـا غـامـت وراء المـد والعمـران

ومن شعره في الغزل قوله

طلعـت علـي طلـوع القمـر كهـالـة نـور بليـل سحـر

فهـاج بنفسـي حنيـن اللقـاء ولاح لعينـي حسـن الصـور

ورحـت أسـائـل طيـف الجمـال أأنـت مـلاك بـدا فـي خفـر

عيـون المهـا فيـك تسبـي العقـول وطـرف يبـزّ الـرشـا إن نظـر

وحمـرة ثغـر كـورد نـديّ وخـد بحمـرتـه قـد أسـر

وأنـف شمـوخ ووجـه صبـوح تـدغـدغـه نسمـات الـزهـر

وجيـد كظبـي بـدا شـارداً يضـوع عبيـراً كفـلٍّ نشـر

ونهـد كعـوب سمـا فـي إبـاء تحـدى الحسـان بنـاتِ البشـر

وخصـر نحيـل ذوى ضـامـراً وقـدٌّ إذا مـا تهـادى بهـر

فهللـت أكبـر فيـك الفتـون وقـدسـت أقـرأ فيـك السـور

وأيقنـت أنـك يـا حلـوتـي يتيمـة درٍّ تفـوق الـدرر

فـأنـت الجمـال وأنـت الكمـال وأنـت الحنـان لقلـب هجـر

تجمّلـت يـا ربـة الفـاتنـات بعطـر يضـوع إذا مـا انهمـر

بميـلاد عمـرك يـزهـو الـربيـع ويشـدو إذا هـزّ لحـن وتـر

من مؤلفاته المطبوعة

١ ـ فنون الرسم والتلوين ـ كتاب موسوعي يتحدث عن ألوان الفنون تاريخياً

٢ـ فن الزخرفة والتلوين

٣ـ الخطوات الأولى في فن الزخرفة

٤ـ البعد الثالث في الزخرفة العالمية

٥ـ فنون الزخرفة على الزجاج والمعادن

٦ـ الزخرفة الإسلامية

٧ـ فن صناعة الخزف

٨ـ فن الرسم بالفحم

٩ـ فن الرسم بالريشة

١٠ـ خط الرقعة

١١ـ الخط الديواني .

١٢ـ الخط النسخي

١٣ـ خط التعليق

١٤ـ العمدة في خط الرقعة

١٥ـ ميزان الخط العربي

وفي مجال الأدب والتاريخ

١ـ فتوح الشام لمحمد بن عبد الله البصري

٢ـ المكافأة وحسن العقبى لابن الداية أحمد بن يوسف كاتب الدولة الطولونية

٣ـ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ـ لابن عربشاه .

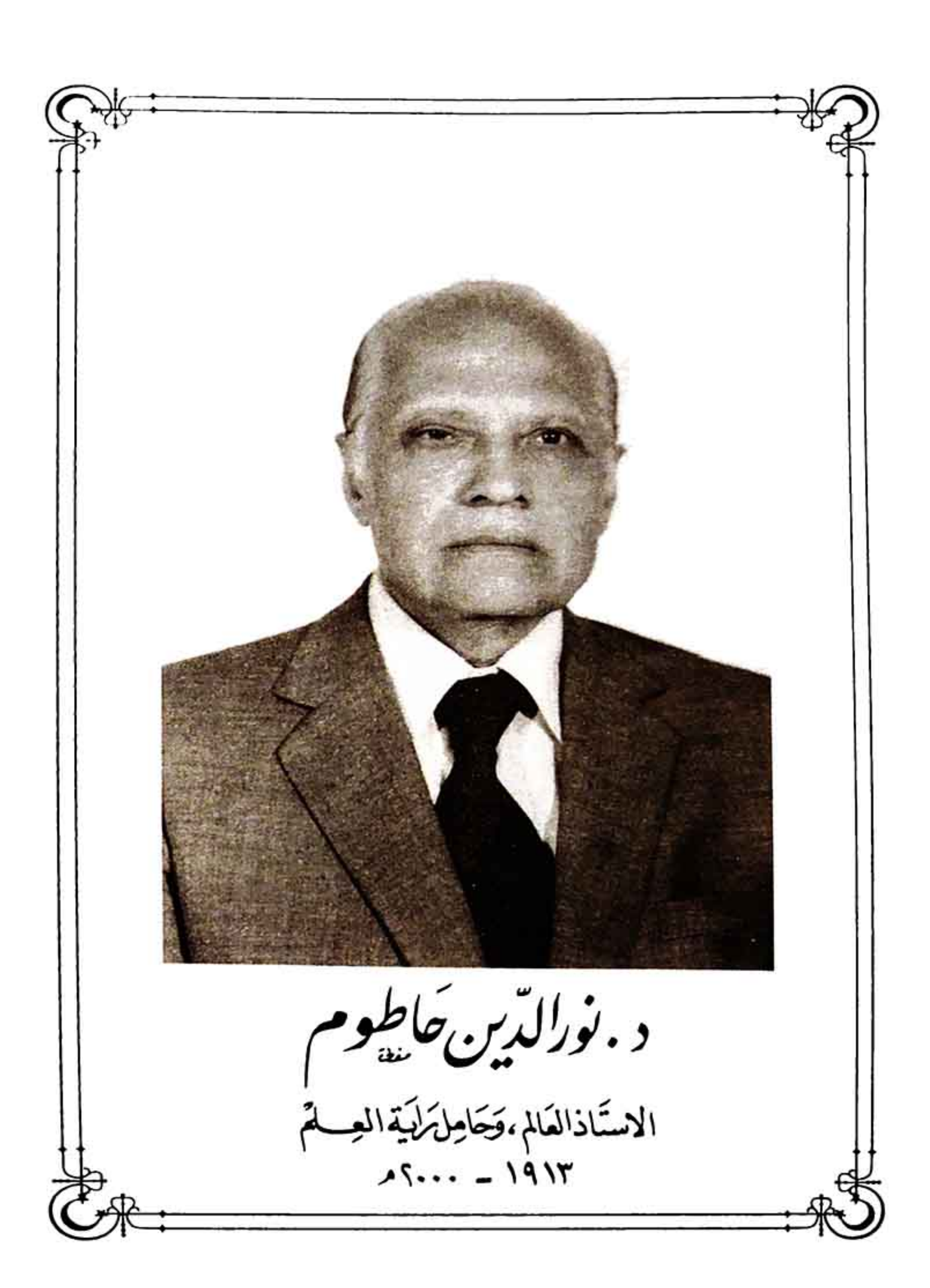
٤ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ تهذيب وتصويب .

٥ـ سيرة الرسول ﷺ ـ قصيدة لمحمود سامي باشا البارودي ـ من سيرة ابن هشام ـ ٤٧٥ بيتاً شرح وتعليق

في مجال الأطفال

له مئات الكتب التعليمية المصورة وله في سيرة الرسول ﷺ نحو مئة قصيدة مصورة ـ ١٩٧٦

* * *



د. نورالدّين حَاطوم

الاستَاذ العَالم، وَحَامِل رَايَة العِلمْ

١٩١٣ - ٢٠٠٠م

ابن دمشق ، وحي الميدان الشعبي العريق هذا هو موطن العالم ، والمؤرخ ، ومؤلف عشرات الكتب ، وأستاذ ألوف من أجيال العرب ، المنتشرين في أقطار العرب

تلقىٰ علومه الأولية والثانوية في وطنه ثم رحل إلىٰ ديار الغرب ، لينهل من علومه ، ويحصد أعلىٰ الشهادات ، ويعود مكللًا بالظفر

وبدأ رحلته الطويلة ، في بناء النفوس ، وإنشاء العقول

وأدىٰ رسالته في حدود وطنه الصغير علىٰ أكمل وجه

ثم تخاطفته أجزاء أخرىٰ من الوطن العربي ، في مصر والأردن ، والكويت

ووضع عشرات الكتب المدرسية والجامعية

وترجم ، وحاضر ، وقدم الأحاديث ، وشارك بالمؤتمرات والندوات ، واللقاءات . .

ولم يبخل بتقديم ما يملك من علم علىٰ أحد ، من أفراد العلم وعشاق المعرفة .

ولم يبخل وطنه في تقدير علمه الغزير ، وعطائه السخي

ويستريح الأستاذ العالم الجليل نور الدين حاطوم ، بعد أن قارب التسعين ، وبعد رحلة كفاحه الطويل ، في نشر العلم وتثقيف الأجيال

شيء من حياته

أبصر نور الدين بن محمد ديب حاطوم ، النور في حي الميدان الفوقاني ، العريق الأصيل من أحياء دمشق . ونشأ في هذا الحي ، وتلقىٰ تعليمه الابتدائي في مدرسة الحي ، التي كانت تعرف باسم انموذج الميدان الابتدائية

انتقل بعدها إلىٰ مكتب عنبر ، ودار المعلمين ، وحصل علىٰ أهلية التعليم

عام ١٩٣٣   ثم دخل ميدان التعليم ، فعُيِّن معلماً في مدرسة الكرك الابتدائية في درعا

تابع دراسته إلىٰ جانب عمله ، ونال في نهاية عام ١٩٣٤ شهادة البكالوريا ـ التعليم الثانوي

وعاد في العام التالي إلىٰ مدرسته الأولىٰ التي تعلم فيها في حي الميدان ، بعد أن أصبح اسمها مدرسة خالد بن الوليد . عاد إليها ليرد بعض الجميل الذي طوقت به عنقه   وقضىٰ في هذه المدرسة أربع سنوات (١٩٣٤ ـ ١٩٣٨) وقد عرفت هذه المدرسة بداية عطائه العلمي ، فقد أصدر خلالها خمسة كتب في الحساب العملي ، وبضعة كتب أخرىٰ في القراءة العربية والجغرافيا والحساب وشاركه بوضعها بعض زملائه

وفي عام ١٩٣٨ رحل إلىٰ فرنسا ، وأمضىٰ فيها سبع سنوات ، كانت أصعب السنوات لدىٰ الشعب الفرنسي ، بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية   غير أن أوضاع الحرب الصعبة هذه ، لم تحل بينه وبين بلوغ الهدف الذي جاء من أجله . فقد عاد نور الدين إلىٰ أرض الوطن عام ١٩٤٥ حاملاً معه ثلاث شهادات عالية هي

١ ـ إجازة في الآداب والتاريخ والجغرافيا من جامعة مونبليه عام ١٩٤١

٢ ـ شهادة الدراسات العليا في تاريخ أوروبا في العصور الوسطىٰ من جامعة مونبليه عام ١٩٤١

٣ ـ شهادة دكتوراه في الآداب والتاريخ الحديث المعاصر من جامعة باريس ، بتقدير مشرف جداً عام ١٩٤٥

بعد عودته من فرنسا ، بدأ الدكتور نور الدين مرحلة جديدة من حياته وعطائه   بدأها مدرساً للتاريخ والجغرافية في ثانويات حلب ودار المعلمات فيها .

في عام ١٩٤٧ ، وبعد سنتين من عمله في حلب ، نقل إلىٰ دمشق ، ليكون عضواً في لجنة التربية والتعليم بوزارة المعارف ، وأستاذاً مساعداً في كلية الآداب التي أنشئت حديثاً في جامعة دمشق ، وأحد مؤسسيها ، وأستاذاً ورئيساً لقسم التاريخ ، وذلك خلال سنوات ١٩٥٤ ـ ١٩٦٩ ، ثم عميداً لها بين أعوام ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ ثم ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥

لم تقتصر جهود الدكتور حاطوم وجهاده ، علىٰ حدود جامعته ووطنه الأم ، بل تجاوزتها إلىٰ مصر الشقيقة فكان في مصر أستاذاً زائراً في معهد البحوث والدراسات العليا بالقاهرة ، التابع لجامعة الدول العربية ، من عام ١٩٥٨ لغاية العام ١٩٧٣ كما استعانت به الجامعة الأردنية ، ليكون أستاذاً زائراً في كلية الآداب ، منذ إحداثها عام ١٩٦٥ ولغاية عام ١٩٦٩ ، حيث عُين أستاذاً للتاريخ الحديث والمعاصر في كلية الآداب بجامعة الكويت ، بين أعوام ١٩٦٩ و١٩٨٣

هذا الجهد الكبير ، رافقه جهد متواصل آخر ، في البحث والتأليف والترجمة والتعريب . وقد أغنىٰ هذا الجهد المكتبة التاريخية العربية بمراجع أساسية ، كانت في حاجة ماسة إليها . وكذلك أغناها الدكتور حاطوم بنشاط منوع ، بشؤون الثقافة ، ولا سيما في قضايا التاريخ والاجتماع والسياسة ، وبحوث ومقالات قيمة نشرها في الصحف والمجلات الكبرىٰ . كذلك ألقىٰ محاضرات في المحافل الفكرية والأندية الثقافية ، وبعض الإذاعات العربية . وشارك أيضاً بندوات تاريخية عربية ودولية .

مكانته العلمية والأدبية

يعتبر الدكتور نور الدين حاطوم ، واحداً من أبرز أركان النهضة العلمية والثقافية في سورية . فهو عالم ومعلم كبير ومرب جليل ، أمضىٰ زهرة العمر ، والشباب والشيخوخة في التحقيق العلمي ، والتأليف والترجمة . وأضاف إلىٰ المكتبة العربية مراجع وآثاراً تفتقر إليها .

أما نشاط الدكتور نور الدين ، فيشمل مختلف مجالات العلم والمعرفة

ألقىٰ محاضرات كثيرة في الأندية والمحافل العلمية

قدم الأحاديث العلمية من إذاعتي دمشق والكويت

شارك بالندوات واللقاءات الثقافية

نشر عدداً كبيراً من البحوث والدراسات في أمهات الصحف والمجلات العربية

وهو إنسان قبل أي شيء آخر إنسان في معاملته لمن حوله من الزملاء ورفاق الدرب

إنسان كبير مع طلابه ، يعاملهم كإخوة وأصدقاء ، يتابع سير دراستهم ، موجهاً ، ومرشداً . يستمع إليهم ويناقشهم بموضوعية وهدفه الوصول معهم إلىٰ القناعة والحقيقة

كان علىٰ الدوام يقدم إلىٰ طلابه النصح والإرشاد ، ويمد لهم يد المساعدة في كل ما يحتاجون ، ويقيل عثراتهم كأخ وأستاذ .

هذا الإنسان العالم ، جدير بالتكريم والتقدير والإجلال ولم تقصر الجهات الثقافية في الوطن عن أداء هذا الواجب وأقامت له في السنوات الأخيرات عدداً من حفلات التكريم في العام ١٩٩٣ أقامت له وزارة الثقافة حفلاً تكريمياً كبيراً ، تكلم فيه عدد من أهل العلم والفكر . وأقيم له غيرها من حفلات التكريم . وكان أحدث حفلات التكريم ، الحفل الذي أقامته دار الفكر ومؤسسها الأستاذ عدنان سالم في المركز الثقافي العربي بالمزة وذلك يوم الرابع والعشرين من نيسان الماضي عام ٢٠٠٠

كتبه وآثاره

للدكتور نور الدين حاطوم مجموعة من الكتب والمؤلفات ، نورد فيما

يلي بياناً مفصلاً بعناوينها

في التعليم الابتدائي والثانوي

١ ـ مجموعة كتب في القراءة العربية والجغرافية والحساب لصفوف المدارس الابتدائية ، بالاشتراك مع عدد من زملائه

٢ ـ خمسة كتب في الحساب العملي لصفوف المدارس الابتدائية

٣ ـ الإشراف على كتاب في التاريخ للصف الأول الثانوي

٤ ـ كتاب في التاريخ الحديث لطلاب الدراسة الاعدادية في مدارس الكويت ، بالاشتراك مع الدكتورين شاكر مصطفىٰ وحسين مؤنس

في التعليم الجامعي

١ ـ تاريخ الحضارة ـ الجزء الأول ـ بالاشتراك مع بعض الزملاء

٢ ـ المدخل إلىٰ التاريخ ـ بالاشتراك مع بعض المدرسين

٣ ـ دراسات في المجتمع العربي ـ بالاشتراك مع آخرين

٤ ـ تاريخ سورية من الاستقلال حتىٰ الوحدة

٥ ـ محاضرات في القومية العربية ، نشرها معهد البحوث والدراسات في الكتب الآتية

١ ـ المراحل التاريخية للقومية العربية .

٢ ـ يقظة القومية العربية

٣ ـ حركة القومية العربية

٤ ـ نحو الوحدة العربية

٥ ـ دراسة مقارنة للحركات القومية

٦ ـ نشاط البعثات التبشيرية في العالم العربي

٧ ـ محاضرات في معظم المدن السورية ، وفي بعض البلاد العربية

الأعمال الخاصة

مجموعة تاريخية ، بين تأليف وترجمة وتعريب ، تتألف من الكتب التالية

١ ـ تاريخ الحركات القومية في أوروبة ـ خمسة أجزاء

٢ ـ تاريخ أوروبة في العصر الوسيط ـ ثلاثة أجزاء

٣ ـ تاريخ عصر النهضة الأوروبية

٤ ـ تاريخ القرن السابع عشر في أوروبة

٥ ـ تاريخ القرن الثامن عشر في أوروبة

٦ ـ تاريخ القرن العشرين

٧ ـ تاريخ عصرنا

٨ ـ قضايا عصرنا

٩ ـ التاريخ الدبلوماسي (جزءان)

١٠ ـ في ذكرىٰ معركة حطين ـ بالاشتراك مع الدكتور عادل زيتون

١١ ـ المحاكمات الكبرىٰ في التاريخ

١٢ ـ تاريخ القرن التاسع عشر

١٣ ـ تاريخ أوروبة في العصر الوسيط

١٤ ـ تاريخ أوروبة في العصر الوسيط (القرن الرابع عشر والخامس عشر) .

*　　*　　*

المراجع

١ ـ بحوث ودراسات في التاريخ العربي ـ المقدمة بقلم الأستاذ ناظم كلاس

٢ ـ بعض كتب الدكتور نور الدين حاطوم

٣ ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش

*　　*　　*

تنويه :

عندما كان الكتاب ماثلاً للطبع، وبعد الفراغ من إعداده، علمنا بنبأ وفاة العلامة المؤرخ الدكتور نور الدين حاطوم . نسأل الله له جزيل الرحمة ، ونقدم أحرّ التعازي لأسرته وأسرة العلم والأدب .



حبيبُ الزيّات

بَاحِث وَمُؤرِّخ ، وَعَاشِق دِمَشق

١٨٧١ ـ ١٩٥٤

أبرز صفاته الأمانة والصدق

ولكنه تعرض في ربيع حياته ، لحادث مناف للأمانة والصدق فاستقال من عمله ، احتجاجاً علىٰ الإخلال بهما

وهاجر إلىٰ الاسكندرية ، وتدفق عليه المال هناك ، وبات من أصحاب الثروات

وقنع بما غنم ، وهاجر ثانية إلىٰ فرنسا ، وأقام فيها

كان عاشقاً للبحث والتنقيب في نوادر الكتب والمخطوطات واستطاع أن يجمع ثروة من المعلومات ، بعد أن جمع ثروة من المال

كان يستغل ثروته المادية ، لبناء ثروة ثقافية وفكرية

ثروة المعلومات التي جمعها ، حوّلها إلىٰ كتب نفيسة ، وبحوث قيمة

وتقدمت به السن ، وأخذ يتهيأ للرحيل

وقلب له الدهر ظهر المجنّ

فقد الابن الذي كان يُعدّه ليكون خليفته

وفقد جزءاً كبيراً جداً من ثروته .

وتحالفت عليه الأمراض والأدواء

ورحل حبيب زيات ، الباحث ، والمؤرخ ، وعاشق دمشق . رحل بصمت . . . ولم يذكره أحد من الأدباء والباحثين .

سيرة حياته

أبصر الطفل حبيب النور بدمشق في الخامس من كانون الأول عام ١٨٧١

والده نقولا ، وأمه هيلانه ، وينتمي إلىٰ أسرة دمشقية عريقة ، عرف بعض أفرادها باهتمامهم بمصالح الكنيسة ، والطائفة التي ينتمون إليها

عرف حبيب بحبه لطائفته ومدينته دمشق وكان شديد التعلق بهما ، والدفاع عنهما ، في مؤلفاته وآثاره

اشتهر حبيب بالأمانة والصدق كانت هاتان الصفتان شعاره المفضل وأبرز ما يوصف به

يروىٰ أنه في مطلع حياته العملية ، كان يعمل موظفاً في « المصرف السلطاني العثماني » ورأىٰ ذات يوم تفاصيل خلل أو سوء ائتمان في المصرف ، فطلب من رئيسه اتخاذ الإجراء اللازم بهذا الشأن ، غير أن رئيسه المسؤول ، تردد ولم يستجب لطلبه فما كان من حبيب إلا أن قدم استقالته علىٰ الفور وعبثاً حاول رؤساؤه استرضاءه ، ورده عن استقالته ثم عرضوا عليه منصباً رفيعاً في فرع القسطنطينية الأكبر ولكنه أصر علىٰ رفضه ثم غادر دمشق ، ورحل إلىٰ الاسكندرية ، وأخذ يتعاطىٰ التجارة مع أخيه « الياس » وقد استطاع حبيب ، بفضل ذكائه ، واستقامته ، ونشاطه ، أن يجمع ثروة طائلة أغنته عن مزاولة أي عمل ، وأتاحت له الفرصة كي يتفرغ للبحث العلمي والتاريخي ، دون أي شيء آخر

من الجدير بالإشارة أن تجارة حبيب زيات ، كانت تشمل استيراد نقوع المشمش وكان هذا الصنف من البضاعة مطلوباً بكثرة في مصر ، ولا سيما في شهر رمضان المبارك وعندما اشتعلت نار الحرب العالمية الأولىٰ ، أوقفت تركيا تصدير النقوع ، وكانت المصدّر الوحيد لهذه المادة فما كان من حبيب ، إلا أن رحل إلىٰ أسبانيا مسرعاً ، وزار بساتين المشمش فيها ، وعلّم أصحاب البساتين صناعة النقوع ، وعاد إلىٰ الاسكندرية ، ليستأنف نشاطه التجاري ، علىٰ أوسع نطاق

ثم إنه آثر بعد ذلك ، أن يقنع بما جمع من ثروة كبيرة ، فأنهىٰ أعماله في

الاسكندرية ، ورحل إلىٰ فرنسا ، وابتاع قصراً فخماً في مدينة نيس ، وتزوج ورزق ابنتين وثلاثة أبناء وظلت أسرته تقطن هذا القصر بعد رحيله

حياته العلمية

منذ فجر شبابه ، كان حبيب زيات مولعاً بالتاريخ والأدب ، راغباً بالبحث والتنقيب في زوايا الكتب الصفر والمخطوطات المنسية ، بحثاً عما أهمله التاريخ ، أو غاب عن أذهان الباحثين والمؤرخين

كان يتردد علىٰ المكتبة الظاهرية كل يوم ، ليقطف من هذا الكتاب زهرة ، ومن تلك المخطوطة ثمرة وقد أودع حصاد ما جمع في كتاب سماه « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » وطبع هذا الكتاب في مصر ، بمطبعة المعارف ، أوائل القرن الراحل وأشرف علىٰ طباعته صديقه الشيخ إبراهيم اليازجي

وكان حبيب شديد الحرص علىٰ معرفة ما يتعلق بطائفته ومسيحيي الشرق بشكل عام . وقد أشار إلىٰ ذلك ، في مقدمة كتابه آنف الذكر ، حيث قال

« واخترت التبسط في كل ما تعلق بتاريخ الروم الملكيين الكاثوليكيين علىٰ الخصوص ، إذ كانوا قومي الذين بهم أعتدُّ ، وإليهم أنتمي » . وقد كرّس كثيراً من جهده ووقته ، لمعرفة حالهم وأحوالهم منذ فجر الإسلام ، وتسجيل ما يعثر عليه في هذا الشأن في آثار أدباء الإسلام وشعرائه واستطاع بذلك أن يعثر علىٰ أمور وأحداث ، كانت من قبل مجهولة ، لأن من سبقه من المؤلفين والباحثين ، كانوا يرجعون إلىٰ ما كتبه المؤرخون اليونان ، أو الأجانب الآخرين بشكل عام

وإذا ألقينا نظرة علىٰ بعض عناوين كتبه وآثاره ، لمسنا اتجاه صاحبنا في البحث والتنقيب . وبين عناوين كتبه نقرأ هذه العناوين :

الروم الملكيون في الإسلام ، أدباء دمشق وبرِّها في الإسلام ، الديارات النصرانية في الإسلام ، سمات النصارىٰ واليهود في الإسلام ، خبايا الزوايا في تاريخ صيدنايا   ومن أجل تصنيف الكتاب الأخير ، اضطر حبيب أن يزور معظم خزائن الكتب الشهيرة   وكان يتردد بشكل خاص علىٰ مكتبة الفاتيكان ، باحثاً ومنقباً ، إلىٰ أن استطاع أن يسجل تاريخاً دقيقاً ، مدعوماً بالوثائق

ومن آثار حبيب ما جمعته مجلة « المشرق » بعنوان   « الخزانة الشرقية » في أربعة مجلدات   وقد ضمت هذه المجلدات كل طريف وثمين عن أحوال دمشق ، وأخبار بعض الشعراء ، الذين لم تنشر آثارهم   من ذلك علىٰ سبيل المثال   اليهود في الخلافة العباسية ، النساء الفرنجيات في عهد الصليبيين ، تفاح لبنان ، الورد بدمشق ، دار البطيخ بدمشق ، رسوم الفواكه والبقول فيها ، القراصية الدمشقية ، دراق دمشق ، أسواق دمشق خانات دمشق ، فن الطبخ في الإسلام   لغة الحضارة ، القبقاب   وهناك أكثر من ثلاثين بحثاً في شتىٰ الموضوعات الأدبية واللغوية

يضاف إلىٰ ذلك موضوعات كثيرة أخرىٰ ، نشرها في مجلتي « الكتاب » التي كانت تصدرها دار المعارف في مصر ، و« المسرة » التي تصدر في حريصا بلبنان

هذه الآثار النفيسة التي جمعها حبيب زيات ، دليل علىٰ الجهد الكبير ، والصبر ، والأسفار التي قام بها ، من أجل جمع هذه المعلومات الدقيقة   وهو عدا تردده علىٰ مكتبات دمشق والقاهرة ، رحل إلىٰ مدريد ، وزار مكتبة الاسكوريال فيها ، بحثاً عن موضوعات يعنيه أمرها   كذلك طاف في مكتبات عالمية أخرىٰ ، بحثاً عن كتاب مخطوط ، أو معلومة يحاول التأكد من صحتها أو عدمه .

لغته وأسلوبه

لغة حبيب زيات فيما كتب وصنف رشيقة ، خفيفة ، لا تعقيد فيها وهي فصيحة ، بليغة ، سهلة الفهم ، واضحة الأبعاد

وقد دأب حبيب علىٰ اقتناء نفائس الكتب وروائعها ، ولا سيما عندما تقدمت به السن ، وأخذ موعد الرحيل يقترب كان يفعل ذلك ، وهدفه أن يعدّ أحد أبنائه الثلاثة ، كي يتولىٰ خلافته فيما نذر نفسه له كان ينفق الأموال الطائلة علىٰ اقتناء الكتب من أجل هذه الغاية غير أن الرياح تجري أحياناً بعكس ما تشتهي السفن فقد غرق الابن الذي يعدّه في نهر ، عندما كان في جولة مع فرقة كشفية ، بإحدىٰ المدن الفرنسية وكان قد علمه العربية ، فأجادها وأتقنها

هذه الفاجعة الأليمة ، كانت أكبر كارثة تحلُّ به ، وهو في العقد الثامن من شيخوخته ، ينتظر ساعة رحيله ، فإذا بابنه ، وقرة عينه ، وخليفته المنتظر ، يرحل فجأة .

محنة أخرىٰ

يروي حبيب سيوفي ، وهو الصديق الوفي لحبيب زيات في ترجمته لحياة وأعمال صديقه ، أن حبيب زيات أصيب خلال الحرب العالمية الثانية ، والسنوات التي أعقبتها بكارثة مالية فادحة فقد هبطت أسعار النقد ، لأمواله المودعة في مصارف انكلترا ومدريد ومصر ، الأمر الذي أفقد هذه الأموال ، الجزء الأكبر من قيمتها . يضاف إلىٰ ذلك عجزه عن سحب هذه الأموال ، بعد أن منعت بعض الحكومات إخراج النقد ، بسبب ظروف الحرب

عاد حبيب زيات إلىٰ دمشق قبل ثمانية أعوام من رحيله ، ليبيع أملاكه في فلسطين ويقبض ريعها وكان يومذاك في أشد الحاجة إلىٰ المال خلال

وجوده في حيفا ، وكان الصراع بين العرب والصهاينة ، يشتد يوماً بعد يوم ، ألقيت قنبلة على الفندق الذي يقيم فيه ، وسقط على صدره ، جانب من سقف حجرته ، فتضعضع جسمه ، وسبّب له آلاماً لازمته إلى اليوم الأخير من حياته

عاد حبيب بخفي حنين إلى دمشق ، وهو يحسب أن ما يحدث في فلسطين لن يطول ، وأن الحياة ستعود إلى مجاريها ، وأنه سيرجع إلى فلسطين ثانية ، فيجمع أمواله ، ويعود إلى قصره في نيس

غير أن ما حدث ، كان عكس ما تمنى

كان حبيب في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ، يواصل البحث والتأليف كان يذهب صباح كل يوم إلى المكتبة الظاهرية أو مكتبة المعهد الفرنسي ، ليواصل بحوثه ومطالعاته ، ويعود ظهراً ، ليدون ، بعد قليل من الطعام والراحة ، ما حصل عليه من معلومات وينطلق عصراً نحو بعض البساتين ، ترويحاً للنفس ، وبين يديه كتاب يراجع بعض محتوياته

كانت أوجاعه وآلامه تزداد يوماً بعد يوم ثم أصيب بورم في البلعوم ، ولم يعد يستطيع تجرع الماء إلا بعد جهد

وآثر بعد ذلك العودة إلى قصره في فرنسا

وفي صباح اليوم الأول من شباط عام ١٩٥٤ رحل حبيب زيات بصمت وأغفل الكتاب والباحثون ذكره . . . وبذلنا كثيراً من الجهد في تقصّي أخباره ، فلم نعثر إلا على ما كتبه صديقه حبيب سيوفي ومنه استقينا معظم ما أوردناه من أخباره

* * *

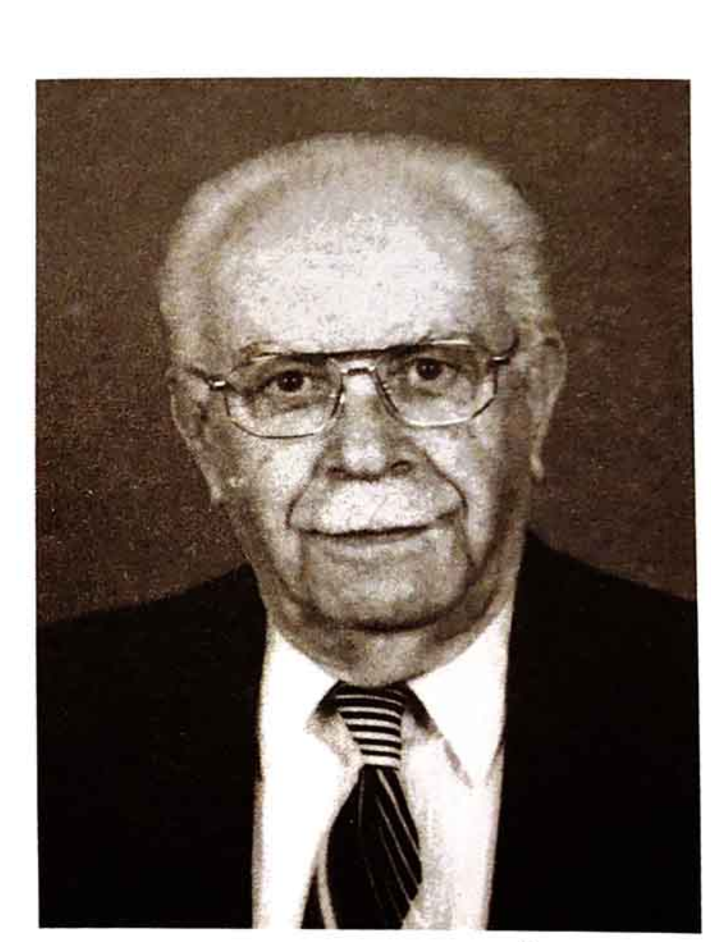
المراجع

١ ـ الخزانة الشرقية ـ حبيب زيات

٢ ـ مجلة المسرة ـ العدد ٤ ـ ١٩٥٤ مقال للأستاذ حبيب سيوفي

٣ ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش

* * *



شحادة الخوري

كَاتِبٌ وَمُدَرِّسٌ، وَمُتَرجِم

١٩٢٤ - ...

كان من المبرّزين في شتىٰ مراحل دراسته

في دراسته الجامعية العالية جمع بين الحقوق والآداب

تنقل في عدد من الوظائف ، وأدّىٰ كثيراً من المهمات

كتب ونشر أعداداً من المقالات والدراسات والبحوث

ألّف وترجم عدداً من الكتب القيمة

وكان من المتفوقين بالترجمة ، والمحبين لها

يؤمن بأن الكتابة ليست ترفاً ، ولا أُلهية ، ولا أداة ارتزاق ، أو وسيلة للظهور بل هي نشاط ذهني هادف ، يبذله الكاتب ، لخدمة الإنسان والمجتمع

حياته وأعماله

أبصر النور في بلدة صيدنايا بجوار دمشق في العام ١٩٢٤ تلقىٰ تعليمه الابتدائي في مدرسة البلدة التي ولد فيها

درس المرحلتين الاعدادية والثانوية في المدارس الارثوذكسية بدمشق ، ونال الشهادتين الثانويتين السورية والفرنسية القسم الأول عام ١٩٤٢ ثم درس القسم الثاني ، فرع الفلسفة في مدرسة جودة الهاشمي وفاز بشهادته عام ١٩٤٤

انتسب إلىٰ كلية الحقوق بدمشق ، فاز بإجازة الحقوق عام ١٩٤٧

وانتسب بعد ذلك إلىٰ كلية الآداب بجامعة دمشق وفاز بشهادتها عام ١٩٥٧

عمل مدرساً للتاريخ والتربية الوطنية سنتين في مدارس حلب ثم عمل مدرساً للغة العربية وآدابها في المدارس الاعدادية والثانوية الرسمية بدمشق والمدارس الأهلية والخاصة

نقل إلىٰ وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، وتولىٰ فيها عدة وظائف رئيس دائرة التسجيل التعاوني ، معاون مدير التعاون ، مدير التخطيط ، مدير العلاقات الدولية ، ثم مدير انعاش الريف ، وذلك من عام ١٩٦١ لغاية منتصف عام ١٩٦٩

نقل إلىٰ وزارة التعليم العالي عقب إحداثها ، فعمل مديراً للترجمة والتأليف والنشر ، وأشرف علىٰ تنفيذ برنامج ريادي لإصدار مراجع جامعية مؤلفة ومترجمة في مختلف العلوم ، ترفد التعليم العالي المعرب في سورية والوطن العربي وذلك منذ منتصف عام ١٩٦٩ لغاية منتصف العام ١٩٨١ وأشرف علىٰ عمل المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، خلال هذه الفترة

اختير خبيراً لوحدة الترجمة بإدارة الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التابعة لجامعة الدول العربية ، فعمل فيها منذ عام ١٩٨١ لغاية عام ١٩٨٩ ثم تعاون معها بعد ذلك وكان أهم ما أنجزه في هذا المجال

١ ـ إعداد وتحرير كتاب « دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي » جزءان ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ و« دليل المترجمين ومؤسسات الترجمة والنشر في الوطن العربي ١٩٨٧

٢ ـ وضع دراسة جدوىٰ إنشاء « المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر » ؛ التي وافقت عليها الهيئات المختصة . وباشر المركز عمله بدمشق عام ١٩٩٠

٣ ـ مراجعة « المعجم العربي الأساسي » الذي أصدرته المنظمة عام ١٩٨٩

٤ ـ وضع الخطة القومية للترجمة عام ١٩٨٥ والمشاركة في تحديثها عام ١٩٩٧

٥ ـ وضع دراسة عن واقع التعريب في الوطن العربي ثم المشاركة بوضع « الخطة القومية للتعريب » عام ١٩٩٦

لمحة عن حياته

عاش طفولته ويفاعته في بلدته صيدنايا ، وهي بلدة ذات جمال فريد ، وتعتبر أحد متنزهات دمشق ومصايفها

أقام في دمشق منذ أن بلغ الثانية عشرة من العمر ، وتابع دراسته في مدارس الآسية بحي القيمرية ، وهي مدارس عريقة تأسست عام ١٨٤٠ وتعرف بنزعتها العربية واتجاهها الوطني وكان شحادة الخوري متفوقاً في دراسة المواد العلمية والأدبية وذا ميل ظاهر إلىٰ اللغة العربية وآدابها ، وحب للمطالعة في كتب التاريخ والأدب .

واكب الحركة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي ، وكان خلال دراسته الثانوية والجامعية بين المناضلين والمؤيدين لكل مشروع وطني

نشر في وقت مبكر مقطوعات شعرية في مجلة « الكاتب المصري » ومجلة « العرفان » عام ١٩٤٦ ، ثم اتجه إلىٰ النثر والدراسات الاجتماعية والأدبية واللغوية .

التزم بنشاطه الأدبي بالأمور التالية :

أ ـ الكتابة ليست ترفاً ، أو ألهية ، أو أداة ارتزاق ، أو سبيلاً إلىٰ الظهور ، بل هي نشاط ذهني فاعل وهادف ، يبذله الكاتب من أجل خدمة الإنسان والمجتمع

ب ـ التجديد في النهج الفكري والأدبي ، لا يتعارض مع الأصالة التي هي

تراث الأرض والزمن وكل نتاج عقلي أو فني ، يُقوَّم بمقياس عصره

ج ـ النهضة العربية ترتكز علىٰ ثقافة عربية جديدة ومتجددة ، ومنفتحة علىٰ الثقافات الأخرىٰ واللغة العربية هي أداة ثقافتنا في الماضي والحاضر والمستقبل ومن الواجب تنميتها ، كي تتمكن من استيعاب المستجدات

شارك بالعديد من المؤتمرات والندوات والاجتماعات العربية في موضوعات الثقافة العربية ، واللغة والترجمة والتعريب

شارك بتأسيس رابطة الكتاب السوريين عام ١٩٥٠ ، التي تحولت إلىٰ رابطة الكتاب العرب عام ١٩٥٤ ثم انضم إلىٰ اتحاد الكتاب العرب في سورية منذ تأسيسه عام ١٩٦٩

كتبه وآثاره

بين عامي ١٩٤٧ و١٩٨١ كتب الأستاذ شحادة الخوري ونشر نحو مئة مقال ودراسة في الصحف والمجلات السورية والعربية ، ويدور معظمها حول موضوعات لغوية وأدبية واجتماعية

أما كتبه فهذه عناوينها

١ ـ حول المرأة ١٩٤٧ ـ بالاشتراك

٢ ـ تاريخ الأمة العربية من الجاهلية حتىٰ اليوم ـ « مدرسي » ١٩٤٩

٣ ـ الأدب في الميدان ـ ١٩٥٠

٤ ـ الحارس الفتىٰ ـ رواية مترجمة عن الكسندر فادييف ـ جزءان ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ـ بالاشتراك .

٥ ـ فصول في الأدب والاجتماع والتربية ، والثقافة والحياة العامة ـ ١٩٥٦

٦ ـ الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية » فصول

مترجمة - إصدار اليونسكو عام ١٩٧٧

٧ - التجديد في تدريس العلوم - ترجمة - إصدار اليونسكو عام ١٩٨٤ - بالاشتراك

٨ - تعريب التعليم الطبي والصيدلي في الوطن العربي - ١٩٨٧

٩ - الترجمة قديماً وحديثاً - ١٩٨٨

١٠ - دراسات في الترجمة والتعريب والمصطلح - ١٩٨٩

١١ - القضية اللغوية في الجزائر - ١٩٩١

١٢ - معجم اللغة العربية - المحيط - ثلاثة أجزاء ١٩٩٢ - مشاركة

* * *

أهل الفن



كان واحداً من العبقريات الذين أنجبتهم بلدة « داريا »

كان فناناً ونابغة في الخط بشتىٰ ألوانه

تلقىٰ أصول الفن وقواعده علىٰ العمالقة ، فوقف إلىٰ جانبهم ، وفاق الكثيرين منهم .

رحل إلىٰ مصر واستانبول ، وتعرف إلىٰ كبار المبدعين هناك

كانت تربطه بعمالقة الخط صداقات وثيقة وقد أفاد من هذه الصداقات ، واستطاع أن يجدد ويسمو بفنه إلىٰ الذرىٰ

عندما رحل بدوي الديراني ترك إرثاً من الخط لا يفنىٰ

آثاره ولوحاته تزدان بها الجوامع الكبرىٰ ، ومجلس الشعب ولجنة مياه عين الفيجة ، والمسجد النبوي وقصر الملك السعودي المؤسس

منحته سورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولىٰ

وأقامت له بيروت حفلًا تكريمياً كبيراً

حياته وأعماله[1]

أبصر الطفل بدوي بن أديب بن إسماعيل الديراني النور بدمشق في العام ١٨٩٤ وكان والده قد آثر الانفصال إلىٰ حي الميدان ، بعد أن هجر مسقط رأسه في بلدة « داريا » البلدة الجميلة ، التي أنجبت عدداً كبيراً من العلماء والشعراء ومن أبرزهم الشاعر البحتري ، صاحب القصيدة المشهورة ، التي يصف فيها لياليه وأيامه في بلدته ، ويقول

---

(١) عندما أردنا أن نعدَّ ترجمة لحياة وأعمال الخطاط الكبير بدوي الديراني ، لم نستطع العثور علىٰ بغيتنا في أي مرجع . غير أن صديقنا الشاعر الفنان أحمد المفتي استطاع كتلميذ سابق للأستاذ الديراني ، وصديق لبعض أسرته ، أن يلمّ بالمعلومات المنشودة . وقد تفضل مشكوراً بتزويدنا بهذه التفاصيل ـ المؤلف ـ.

العيش في ليل داريا إذا بردا   والراح نمزجها بالماء من بردىٰ
إذا أردت ملأت العين من بلد   مستحسن وزمان يشبه البلدا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً   أو يانعاً خضراً ، أو طائراً غردا

تلقىٰ بدوي دراسته الابتدائية في بعض الكتاتيب التي كانت منتشرة في بعض الأحياء وتعلم القرآن الكريم وحفظ أجزاء منه كما تعلم الحساب وحسن الخط

لدىٰ بلوغه الثانية عشرة من العمر ، بدأت هوايته للخط الجميل تظهر بوضوح بات يملك القدرة علىٰ التمييز بين ألوان الخطوط وفنونها ، صار مولعاً بمضاعفة عنايته واتقانه لما يكتب من آيات كريمة ، وأحاديث شريفة ، وحكم بالغة الحسن وتتلمذ بدوي بجمال الخط ، علىٰ أساتذة الخط وعباقرته كان أول من تتلمذ عليهم ، الخطاط الحمصي الشهير مصطفىٰ السباعي ، الذي كان موظفاً في دمشق ، وذا خبرة واطلاع علىٰ قواعد خط التعليق « الفارسي » ، ويحتفظ بنماذج رائعة لعمالقة هذا الخط ، أمثال عماد الحسني ومسكين قلم وزرين قلم وكان الأخيران قد زارا دمشق ، وتركا فيها آثاراً جيدة وقد اطلع الأستاذ الديراني علىٰ هذا التراث الكنز ، وازداد تعلقه بجمال الخط ، وبات أحد هواة هذا الفن الجميل وبدأ يستمع إلىٰ نصائح وتوجيهات أستاذه .

بعد حريق الأموي

كان مولد بدوي الديراني ، بعد سنة من الحريق الكارثة الذي أصاب جامع بني أمية الكبير في السابع عشر من تشرين الأول عام ١٨٩٣ وقد نهض أهل دمشق ، شيباً وشباناً ، لترميم الجامع وأرسل السلطان عبد الحميد الثاني ، أحد كبار الخطاطين من استانبول إلىٰ دمشق ، ليقوم بتزيين ألواح الجامع ، وهو « يوسف رسا » وكان بارعاً بخطّي الثلث والنسخ وما زالت خطوطه ماثلة إلىٰ اليوم علىٰ قبر النبي يحيىٰ عليه السلام وقد تتلمذ الأستاذ بدوي علىٰ

يديه ، وأخذ عنه قواعد هذين الفنين من الخط

بعد مجيء هذا الخطاط ، ظهرت في دمشق نهضة فنية ، وصارت تعقد جلسات ، يتدارس فيها الحاضرون الرواد ، أصول الخط وفنونه وقواعده وكان من بين هؤلاء الرواد الخطاط الكبير ممدوح الشريف[1] وصبحي البيلاني ، وحسين صديق البغجاتي ، ومحمد علي الحكيم ، والشيخ محمد الزرزور ، وحلمي حباب ، ورشدي الزيات ، وأبو خليل الزيناتي ، ومحمد سليم الحنفي ، وهو شاعر وموسيقي

في هذا الجو الفني ترعرع بدوي الديراني ، واكتسب المهارة الفنية ، وتفوق بخط التعليق « الفارسي » وبعد أن توفي أستاذه « يوسف رسا ١٩١٥ » و« مصطفىٰ السباعي ١٩١٩ » أخذ يعمل مع أستاذه الكبير ممدوح الشريف ، ولازمه طوال سبعة عشر عاماً ، وأخذ عنه قواعد الكوفي والديواني ، والرقعة . وشارك بتدريس الخط في معظم مدارس دمشق

لم يكتف الأستاذ الديراني بهذا القدر من فن الخط ، بل سعىٰ إلىٰ المزيد أنشأ علاقات وثيقة مع عمالقة الخط في مصر واستانبول سافر إلىٰ مصر ، واطلع علىٰ ما أبدعه خطاطوها ، وصادق أساتذة هذا الفن ، أمثال نجيب هواويني ، خطاط الملك ، وحسني البابا ، وهو دمشقي الأصل ، ووالد الفنانتين سعاد حسني والمطربة نجاة الصغيرة واطلع كذلك علىٰ فن الخطاط الشاعر سيد إبراهيم ؛ وقدم خطوطه وإبداعه لهم ، فأعجبوا به كل الإعجاب

وفي استانبول تعرف إلىٰ الخطاط العملاق حامد الآمدي ، وتبادل معه لوحات من روائع الفن .

---

(١) انظر ترجمة مفصلة لحياة وأعمال ممدوح الشريف في كتاب « أعلام ومبدعون » للمؤلف

ومن بغداد زاره الفنان هاشم البغدادي ، وجرت بينهما لقاءات وحوارات حول فنون الخط وعمالقته

الديراني نابغة عصره

ترك بدوي الديراني إرثاً كبيراً من روائعه ، تشهد له آثاره الباقية في جامع الروضة ، وجوامع المنصور ، والثريا ، والدقاقين ، والفردوس ، والعثمان ، ومجلس الشعب ، ولجنة مياه عين الفيجة ، ووزارة العدل ، ومبنىٰ جامع الحلقة السعودية في بيروت ، واللوحة الموجودة في الحرم النبوي الشريف ، وهي مكتوبة بالذهب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ ولوحة للملك عبد العزيز آل سعود ، وهي بالذهب أيضاً ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾

يعتبر بدوي الديراني مدرسة دمشقية شامية في فن خط التعليق ، لأن هذا الخط ينحصر في مدرستين وأسلوبين ، هما المدرسة الفارسية ، والمدرسة التركية ولكل من المدرستين أسلوبها الخاص في تنسيق الحروف وترتيبها وموازنتها

والمدرسة الفارسية أقدم من التركية وقد حاول الأتراك تطوير هذا النمط ، فلم يكتب لهم النجاح وظلت إيران رائدة هذا الخط وحين جاء الديراني . استطاع بذوقه المرهف ، أن يضيف إلىٰ هذا الطراز ما لم يستطع القيام به كبار الخطاطين في العالم الإسلامي ، أصبح بعد ذلك إماماً يحتذىٰ ، وبات خطه مدرسة في موازنتها واستطاع أن يبتكر ما عجز العمالقة عن تحقيقه

يعتبر بدوي الديراني نابغة عصره ، ومعجزة جيله وقد ذاع صيته في كل مكان ، وباتت لوحاته لا تقدر بثمن

وقد منحته الحكومة السورية وسام الاستحقاق السوري من الدرجة

الأولىٰ ، تقديراً لنبوغه وتفوقه

وكان الأستاذ بدوي قد تزوج في العام ١٩٠٩ وأنجب ولدين هما الدكتوران خالد ومحمد ، وست كريمات فاضلات

ورحل الفنان العبقري بدوي الديراني إلىٰ جوار ربه في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٦٧ ، وكتب شاهدة قبره الخطاط الشهير هاشم البغدادي

حفل تكريمه في لبنان

لمناسبة اعتبار بيروت عاصمة ثقافية ، دعا مركز البيان الثقافي ، والمكتب الإسلامي ، إلىٰ حفل تكريم للخطاط الفنان بدوي الديراني في هذا الحفل ألقىٰ تلميذه الشاعر الفنان الأستاذ أحمد المفتي خطاباً استعرض فيه تاريخ الخط في دمشق ، وتحدث عن بعض صفات أستاذه المحتفىٰ به وختم خطابه بقصيدة من رائع شعره نقتطف منها هذه الأبيات

ما كُرّم الخط إلا هزني الطرب ... إذ كان للعين في صفو الصبا أرب

فالخط فن جميل لا يهيم به ... ألا شفيف الجوىٰ بالحب يضطرب

لذاك جئت إلىٰ بيروت يحملني ... حب التراث وفي بيروت لي نسب

يا سادة القوم شوقاً جئتكم طرباً ... فاليوم ترفع فيما بيننا الحجب

بودكم صار موصولاً بكم نسبي ... إن المودة في أهل النهىٰ نسب

بيروت يا درة للشام زاهية ... يا نفس في مثلها قد يلزم الأدب

قوم سماحة مفتيهم لهم رشد ... ورأيه لرجا أحوالهم قطب

يا بن الكرام رشيد راغب علم ... بين الأنام به الأمثال قد ضربوا

كرمت شيخ خطوط الشام قاطبة ... في الثلث والنسخ والتعليق فهو أب

سحر الحروف علىٰ أيديه قد كملت ... ما خطها بعده عجم ولا عرب

أكرم به بدوي الاسم يمشقه ... من « دار ريّة » موسوم به اللقب

* * *



عبد الوهاب أبو السعود

رائد المسرح والرسم

١٨٩٧ - ١٩٥١

كان شعلة من الحماسة ، والوطنية ، والإخلاص

تعلق بالتمثيل والمسرح ، وأحبهما حتى العشق

وأحب معهما فن الرسم

كافح الاستعمار ، وتحداه ، وزرع في صدور طلابه ، حب الوطن ، والثورة على أعدائه

فلاحقه الاستعمار ، يحاول اعتقاله ، والبطش به

فتوارى في القرى ، وارتدى ثياب الفلاحين والرعاة

أسس المسرح السوري ، وأنشأ النوادي الثقافية ، وتخرجت على يديه أجيال وأجيال .

عقب رحيله ، أقيم له حفل تأبين حافل ، ورثاه أصحاب الأقلام والمفكرون .

كانت حياته صفحات من النضال المتواصل ، العلمي ، والقومي ، والوطني

قصة حياته

أبصر عبد الوهاب النور في مدينة نابلس عام ١٨٩٧ ، وهو ابن المرحوم عبد الله شوقي أبو السعود ، الضابط في الجيش العثماني وينحدر من أسرة أبي السعود ، التي يمتد تاريخها إلى منتصف القرن الحادي عشر

كان عبد الوهاب ما يزال رضيعاً ، حين آثر والده الهجرة إلى مدينة صيدا ، بسبب خلاف مالي بينه وبين بعض أقاربه على الإرث الذي غصبوه إياه

في صيدا أُدخل عبد الوهاب أحد الكتاتيب فتلقى بعض آيات القرآن الكريم وشيئاً من القراءة والكتابة

تاقت نفسه في مرحلة مبكرة إلى السفر بعيداً ، فأرسله أبوه إلى بيروت ،

فانتسب فيها إلى مدرستها الشهيرة يومذاك مدرسة « سلطاني بيروت » وفي هذه المدرسة استطاع أن ينجح ويتفوق على أقرانه وفيها تلقى مبادئ الرسم فتعلق به وأحبه ، ولاسيما بعد أن شاهد لوحات رفيعة المستوى ، فأخذت بمجامع قلبه ، وصنّفته في عداد عشاق هذا الفن الجميل

كان أبوه تقياً ، ورعاً ، متمسكاً بشعائر الدين ، لذا ألحّ عبد الوهاب على أبيه ، كي يوفده إلى مصر ، لينتسب إلى الأزهر ، ويتلقى فيه علوم الدين غير أن إلحاح عبد الوهاب على أبيه ، كان يخفي وراءه غاية أخرى ، وهدفاً أبعد كان الفتى قد سمع وعرف الشيء الكثير عن النهضة المسرحية والفنية بشكل عام في مصر ، فأراد أن يسبر أغوارها ، ويتعرف إليها عن قرب

في مصر انتسب عبد الوهاب إلى الأزهر ، وأفاد من علومه في الحديث والفقه واللغة ومع دراسته الدينية هذه ، أخذ يتابع تطور الفن والتمثيل بشكل خاص ، وما يقدم على المسارح المصرية من أعمال ناجحة

استهواه ما يقدم على مسارح القاهرة من مسرحيات ، بعضها موضوع ، وبعضها الآخر مترجم بعض منها يقدم بلغة عربية فصيحة ، وبعض آخر يقدم باللهجة المصرية العامية وعرف أن كثيراً من أعلام التمثيل ، تلقوا أصول هذا الفن وقواعده في أوروبا فأتقنوه وأجادوا فيه

صار عبد الوهاب يتردد على دور التمثيل كل مساء ، ويتعرف إلى بعض الممثلين ويصادقهم . وما هي إلا شهور ، حتى بات المسرح يشغل الحيِّز الأكبر من اهتمامه

وكانت هذه المرحلة ، بداية تعلقه بالتمثيل وانصرافه التام إليه

على المسرح لأول مرة

انقطع عبد الوهاب عند ذلك ، عن متابعة دراسته في الأزهر . واستطاع أن يجد له موطئ قدم للعمل في إحدى الفرق المسرحية هذه الفرقة كانت تبحث

عن موهبة فنية شابة للإفادة منها ، فوجدت في صاحبنا هذا ما كانت بحاجة إليه

كان هدف أبي السعود من عمله في هذه الفرقة ، مضاعفة الإلمام بفن التمثيل وأسراره وخفاياه

استمر عبد الوهاب في عمله بهذه الفرقة سنة ونصفاً وحين علم والده بأن ولده ترك الأزهر ، ليعمل في فرقة مسرحية ، غضب واستدعاه على عجل

لم تكن تربية عبد الوهاب ، وأخلاقه ، واتجاهه الديني ، تسمح له بالتمرد على إرادة الوالد ، فبادر بالعودة إلى صيدا ، وأرجأ مشروعاته الفنية إلى وقت مناسب

وفي صيدا مارس التدريس فترة من الزمن ، في بلدة حاصبيًا

الانتقال إلى دمشق

انتقل عبد الوهاب مع أسرته إلى دمشق ، عندما نقل عمل والده إليها وكانت فرحة الأسرة كبيرة بهذا الانتقال ، لأنهم جميعاً كانوا يحبونها على البعد ، ويحلمون بالإقامة فيها وكانت فرحة عبد الوهاب بالذات كبيرة جداً ، لأنه كان قد سمع بأخبار أبي خليل القباني[1] والنهضة المسرحية التي أسسها في دمشق ، ثم أرغمته الظروف على الانتقال إلى مصر ، ومتابعة نشاطه فيها

في دمشق ، أخذت نفسه تتوق لحمل الرسالة التي بدأها أبو خليل غير أنه فوجئ بدعوته للالتحاق بالخدمة في الجيش العثماني كانت هذه الدعوة ، بالنسبة له ولأسرته كارثة مدمرة ، ولاسيما أن الأتراك كانوا قد أخذوا قبله أخاه ، وأرسلوه إلى جبهات القتال خلال الحرب العالمية ، فذهب ولم

---

(١) انظر دراسة مفصلة لحياة وأعمال أبي خليل القباني في كتاب « عبقريات » للمؤلف

يرجع وهذا كان شأن معظم من يساقون إلى جبهات القتال ، في حرب ، لا ناقة لهم فيها ولا جمل !

غير أن ما حدث بعد ذلك ، كان مفاجأة أخرى بعد أن ركب عبد الوهاب القطار المتجه إلى جبهات القتال ، ورأى أمه ، وهي تبكي وتنتحب ، حزناً على فراقه الأبدي شبه المؤكد ، قفز من القطار في مكان غير بعيد واضطر للتواري عن الأنظار ثم اختار التدريس عملاً له ، لأن المدرسين كانوا يُعفون من الخدمة العسكرية ، ربما لشدة الحاجة إليهم وأخذ الأستاذ أبو السعود يمارس التعليم في مدرسة الملك الظاهر في باب البريد

في هذه المدرسة ، وجد صاحبنا متنفساً لأحلامه ، ومجالاً لممارسة التمثيل الذي أحبه حتى العشق فألّف مجموعة من التلاميذ ، وأخذ يشركهم في التمثيل وكان عمله هذا في دمشق ، بداية مشواره الفني الطويل ، الذي استمر خمسة وثلاثين عاماً

ومع التمثيل ، أخذ عبد الوهاب ، يغرس في المدرسة هواية أخرى هواية الرسم

في العهد الوطني

تابع الأستاذ عبد الوهاب عمله مدرساً في مدرسة الملك الظاهر ، إلى أن رحل الأتراك عن سورية ، بعد هزيمتهم المنكرة في الحرب العالمية الأولى

عندما دخل الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق ، شعر الأستاذ أبو السعود ، بأن الفرصة باتت سانحة للبدء بنهضة فنية ، ترفد نهضة سورية السياسية ، وحركة التحرر الجديدة من أجل هذا أخذ يستعد للظهور على المسرح في عمل فني ووطني كبير

حاول العثور على كاتب يُعدُّ له نصاً مسرحياً مناسباً ، فلم يجد سوى الأستاذ معروف الأرناؤوط[1] ، فلجأ إليه ، وطلب أن يُعدّ له عملاً مسرحياً ، وطنياً مناسباً وقد لبى الأرناؤوط رغبة عبد الوهاب ، وكتب له مسرحية « جمال باشا السفاح » ، وهي تدور حول ظلم السفاح التركي وطغيانه وقد بادر الأستاذ عبد الوهاب إلى إعدادها ، وتقديمها على المسرح بسرعة كبيرة ، ودمج الفنان أبو السعود الشعور القومي بالفن ومن أجل هذا قوبل عمله بترحيب ونجاح كبيرين

تم تقديم المسرحية في صالة « زهرة دمشق » وكان مقرها في ساحة الشهداء « المرجة » ، وتحديداً مكان بناء القباني الشامخ وقد حضر الحفلة الأمير فيصل ، وضباط الجيش العربي ، وعدد كبير من رجالات دمشق ووجهائها ، وشارك بالتمثيل عدد من الفنانين ، كان أبرزهم المرحوم توفيق العطري[2] وكان تقديم هذه المسرحية سبباً في ذيوع شهرة الأستاذ أبي السعود وأدرك الرجل أنه بات نجم سورية الأول ، كما كان قبله أبو خليل القباني رائد نهضتها الفنية

بعد هذه المسرحية ، قدم الأستاذ أبو السعود بين عامي ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ عدداً من المسرحيات ، كان الإقبال عليها كبيراً ومشجعاً

أبو السعود ، الوطني المناضل

عقب دخول القوات الفرنسية إلى دمشق ، تحول الأستاذ أبو السعود من فنان إلى مناضل وطني . . . لذا أخذت السلطة الفرنسية تلاحقه ، الأمر الذي اضطره للتواري والتنقل بين القرى ، مرتدياً ثياب الفلاحين والرعاة ، خشية الوقوع بين أنياب الطغاة المحتلين .

---

(١) انظر دراسة مفصلة عنه في كتاب « عبقريات من بلادي » للمؤلف

(٢) انظر دراسة عنه في كتابه « عبقريات » للمؤلف

عندما هدأت الأحوال بعض الشيء ، عاد عبد الوهاب إلى ممارسة عمله مدرساً ، بعيداً عن المسرح والتمثيل والتفت إلى الرسم ، وراح يبدع اللوحات الجميلة

ثم هجر صاحبنا التعليم ، بعد أن ضاق ذرعاً به ، وانصرف إلى الرسم ، وتفرغ له وعمل مدرساً للرسم في مكتب عنبر وكان الرسم مادة جديدة في البلاد ، غير أن الأستاذ أبا السعود ، استطاع أن يجعل الجيل الصاعد يتذوق هذا الفن الرفيع ويستسيغه

لدى قيام الثورة السورية عام ١٩٢٥ أسهم الأستاذ عبد الوهاب ببث روح المقاومة والوطنية بين طلابه ، كذلك أخذ يجمع المال للثوار واستأنف تقديم تمثيلياته الوطنية والاجتماعية ، وبينها تمثيلية « شكسبير » كذلك قام بتأسيس بعض النوادي والفرق المسرحية أسس « نادي الكشاف الرياضي » ، وجعل فيه قسماً خاصاً بالتمثيل غير أن السلطة شعرت بأهداف النادي الوطنية ، فأمرت بإغلاقه وأسس نادي التمثيل والألحان ، وشجع الحركة الفنية في مكتب عنبر وأسس عدداً من المدارس ، وكان ذلك كسباً كبيراً للمسرح السوري

الفنان الرسام

ذاع اسم الأستاذ أبي السعود على نطاق الرسم ، ولاسيما في الزخارف العربية والقاشاني وبعث إليه العلامة محمد كرد علي وهو وزير للمعارف عام ١٩٣١ بكتاب رسمي ، كلفه فيه بعضوية لجنة رسمية ، للإشراف على إقامة معرض للتصوير

وطاب له أن يصور شخصيات تاريخية ، فصورها تخيلاً ، لتكون نماذج ، أو وسائل إيضاح للكتب التاريخية . وقد رسم صوراً لكل من صلاح الدين

الأيوبي ، وطارق بن زياد ، وهارون الرشيد ، وخالد بن الوليد ، وأبي العلاء المعري ، وابن سينا ، والفارابي وغيرهم ونشرت هذه الصور في كتب التاريخ المدرسية

العودة إلى الدراسة

عندما قررت وزارة المعارف سنة ١٩٣٣ إعادة النظر في ملاكها ، وقررت أن يتم تصنيف موظفيها على أساس شهاداتهم ، أعيد الأستاذ عبد الوهاب للتدريس في الصفوف الابتدائية ، لأنه لم يكن يحمل شهادة جامعية فحزّ ذلك في صدره ، ودفعه للسفر إلى باريس ، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، ليتابع دراسته هناك ومكث الرجل في فرنسا نحو سنة ، زار خلالها إسبانيا وإيطاليا ، واطلع على تطور فني الرسم والتمثيل في البلدين

بعد رحلته هذه ، شمر عن ساعد الجد ثانية وكان نصيب المسرح ، في هذه المرحلة من حياته أكبر من الرسم . استأنف نشاطه الفني بحماسة أكثر ، ونشاط أعظم . وقدم أعداداً من التمثيليات في المدارس الثانوية وغيرها

وآن موعد الرحيل

ظل الأستاذ الفنان ، والمربي الكبير ، يبذل نشاطه المتدفق ، حتى آخر يوم من حياته . . كان نشيطاً في آخر أعوامه ، كما كان شاباً في ربيع الحياة

في صيف عام ١٩٥١ كان الفنان الكبير ، يقضي فصل الصيف في بلودان مع عائلته . يومذاك طلب إليه راعي إحدى الكنائس هناك ، إعداد مسرحية ، يحضرها رواد كبار ، توجه الكنيسة الدعوة إليهم . فوافق الأستاذ الفنان على ذلك . وطلب من أعضاء فرقته إعداد الحفلة المناسبة

وجلس الأستاذ أبو السعود مع المدعوين ، يشاهد بنفسه ، ما يقدمه

تلاميذه ، الذين أعدهم ودرّبهم   وكان من عادته أن يقف ، في مثل هذه المناسبة ، بين الكواليس ، يدلي بملاحظاته وتوجيهاته

ونجحت الحفلة نجاحاً كبيراً

وكانت هذه الحفلة آخر أعماله المسرحية

بعدها بفترة قصيرة ، أحس ذات مساء ، وكان يتمتع بكامل صحته ، بشيء من الوهن والإرهاق ، فمال برأسه على صدر زوجته ، وأسلم الروح خلال دقائق بين يديها

ورحل الفنان الكبير ، والأستاذ والمربي الجليل في أيلول من عام ١٩٥١ ، بعد جهاد طويل وشاق مع الفن

قوبل نبأ رحيل الأستاذ عبد الوهاب أبي السعود بكثير من الحزن والأسى في كافة الأوساط   فقد كان الراحل الكبير شعلة من الحماسة ، والوطنية ، والاندفاع   وكان يوصف بأنه « دينامو » التمثيل والرسم .

كان الأستاذ أبو السعود طيب القلب ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، حريصاً على العمل وخدمة طلابه وإفادتهم بكل ما يستطيع من علم ، ومعرفة ، وجهد .

وأقيم له ، بعد أربعين يوماً من رحيله ، حفل تأبين كبير ، تبارى الخطباء ، وهم من أعلام الأدب والفن ، بتعداد مآثره ، وأعماله ، وخدماته

* * *

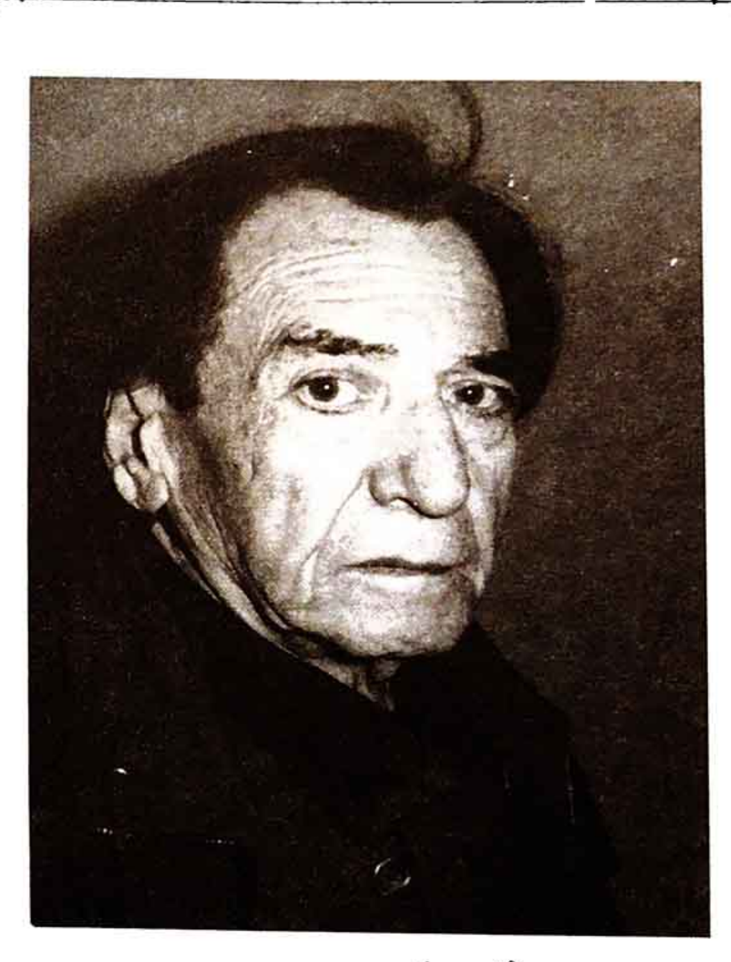
المراجع

١ـ عبد الوهاب أبو السعود ـ حياته وأدبه ـ رسالة جامعية أسعد جباصيني

٢ـ حياة الفنان عبد الوهاب أبو السعود ـ عادل أبو شنب

٣ـ معجم المؤلفين السوريين ـ عبد القادر عياش

* * *



فاتح المُدرّس

كبير الفنّانين وإمامهم

١٩٢٢ ـ ١٩٩٩

كان فناناً بأقصى ما في هذه الكلمة من معنى

استطاع بوزنه الثقافي ، أن يؤكد أهمية الفن المعاصر

نشأ في بيئة تجهل الفن التشكيلي ، ولا تقيم له وزناً ولكنه استطاع أن يمحو أمية الفن ، ويجعل كل مثقف نصيراً له

كانت خطواته الأولى في الفن ، لدى دراسته في أرض الوطن

أقام المعارض في دمشق وحلب ، ثم في أميركا والسويد

وأخذ يحصد ثمار إبداعه وتفوقه

ورحل إلى إيطاليا ، ودرس الفن ست سنوات في موطن الفن

وسافر إلى فرنسا ، ومكث فيها سنتين يواصل دراسة الفن

وعاد إلى دمشق ، وبات إماماً للفن ، ومدرسة لأهله

ودرَّس الفن في كليته ، وانتُخب نقيباً للفنانين

لم يكن فاتح المدرس فناناً كبيراً فحسب ، بل كان مثقفاً ، وشاعراً ، وأديباً

سيرة حياته

أبصر فاتح النور في مدينة حلب عام ١٩٢٢ ، وشهد في طفولته مقتل والده ، على يد عصبة من المستبدين الظالمين وقد تولت عمة له رعايته غير أنه لم يستطع الانسجام والتفاهم معها ، بسبب اعتراضها على ميوله الفنية المبكرة ، ووقوفها في وجه رغبته في الرسم وأمام إلحاحه الشديد ، أُعيد إلى أمه المعدمة وقد بذلت جهوداً شاقة في تربية أولادها ، وأولت كل عنايتها واهتمامها ، كي يتابعوا دراستهم كما شجعت ميوله واهتماماته الفنية . وكان لأمه أثر كبير في حياته ، ظهر في عدد من لوحاته

درس فاتح الفنون واللغة الإنكليزية في حلب ومدينة عاليه وشارك عام

١٩٤٧ في معرض للفنانين العرب أقيم في « بيت مري » ثم في المعرض الأول للفنانين التشكيليين السوريين في مدرسة التجهيز الأولى بدمشق ونظَّم عام ١٩٥٠ المعرض الأول لأعماله في نادي اللواء بحلب

كان عام ١٩٥٢ العام الأهم في تجربة فاتح المدرس ففيه شارك بمعرضين ، أحدهما في الولايات المتحدة ، والثاني في السويد إلا أن الحدث المميز أكثر ، كان فوز لوحته « كفرجنة » ، بجائزة المعرض الثالث للفنون التشكيلية في المتحف الوطني بدمشق وهي اللوحة التي اعتبرت فاتحة اتجاهات الحداثة في الفن التشكيلي السوري

بعد عامين سافر فاتح إلى إيطاليا ، فدرس هناك في أكاديمية الفنون الجميلة طوال ست سنوات وحين عاد بعدها ، أسندت إليه مهمة التدريس في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق لغاية العام ١٩٦٩

سافر فاتح بعد ذلك إلى باريس ، حيث تابع دراسته الفنية في الأكاديمية الفرنسية وخلال إقامته في فرنسا ، تعرف إلى الأديب الفرنسي الكبير جان بول سارتر ، فقام هذا بترجمة بعض شعر فاتح إلى الفرنسية

اتجاهاته الفنية

تتجلى أهمية فاتح المدرس في ثلاث اتجاهات أساسية

أولها إبداعاته التشكيلية ، التي يلتقي الجميع عند تقديرها ، حتى لو اختلفت سوية تقبلها وفهمها

وثانيها ريادته كفنان معلم لمفاهيم الحداثة في الفن التشكيلي المرتبطة بالتاريخ والجغرافية العربيين ، كما هي مرتبطة بعصرنا الراهن .

وثالثها دوره المؤثر في الحياة الثقافية ، الذي أسهم في إكساب الفن التشكيلي ومفاهيم الحداثة ، الاحترام ضمن مجتمع لا يزال سواده الأعظم ضعيف الصلة بهذا الفن من الأساس وأسهم ثانية في تأكيد ضرورة الثقافة ،

والتقاء الفنون ووجوب أن لا يكون الاختصاص الإبداعي سبباً في عزل الفنان عن باقي أشكال الإبداع

إبداعات فاتح التشكيلية بدأت تواجه المشاهد فعلياً منذ العام ١٩٥٠ ، عندما أقام معرضه الفردي الأول في حلب وبعد ذلك بعامين فازت لوحته « كفرجنة » بالجائزة الأولى في المعرض السنوي للتشكيليين السوريين ، معلنة انطلاق اتجاه للحداثة في الفن التشكيلي ، يستمد مصادره من الطبيعة والناس ، في البيئة المحلية ومن أساطير الأقدمين فيها وتراثهم الإبداعي المتمثل في نتاجات الفن الآشوري والآرامي والتدمري ، وكذلك من أحداث الزمن الراهن من أجل هذا ، يرد فاتح المدرس على من يضعون تجربته في إطار إحدى المدارس التشكيلية قائلاً ، إنه ليس تجريدياً ، ولا سريالياً ، ولا تعبيرياً ، بل هذا شاهد على جمال الأرض والإنسان ، كما هو شاهد على أحزان عصره . وهذا الفهم الخاص لتجربته ، أعطى فاتح المدرس ، كفنان معلم ، أهمية تُرجمت بإطلاق روح الإبداع عند طلابه ، بعيداً عن المفاهيم المدرسية البالية .

تأسست تجربة المدرس على موهبته التشكيلية وشمولية ثقافته ، وحواره الإبداعي الدائم مع الفكر الإنساني ونتاجاته الفلسفية والفنية وشاركت عدة مصادر في صوغ إبداعاته التشكيلية . أهمها ما حفظتها ذاكرة الطفولة ، حيث عاش شطراً قاسياً من حياته ، وغنياً بالصور . وتتقدم تلك الصور ، صورة وجه أمه ، المتكرر في لوحاته ، وشاهد السهول الفسيحة ، قليلة الأشجار .

إن اعتبار البيئة المحلية مصدراً أساسياً لأعمال المدرس ، إنما يؤكده حضورها القوي فيها ، ويكفي تأكيداً لذلك استعراض أسماء لوحاته ، بدءاً من لوحته الأشهر « كفرجنة » في غرب حلب ، حيث تجد لوحات تحمل أسماء مثل : صلاة البادية السورية ، نساء من بقين ، قصص الجبال الشمالية ، من

الشمال السوري ، وادي بردى ، مرتفعات بلودان ، التدمريون ، فتيات تدمريات

يقف وراء نجاح الفنان الكبير ، حضوره الثقافي الشخصي ، الذي حول مرسمه الشهير في شارع ميسلون بدمشق على مدى عقود ، إلى ثورة استقطاب للمفكرين والأدباء والمبدعين وكذلك ثقافته الواسعة ، واطلاعه الدائم على ما أبدعه كبار المفكرين والمبدعين في العالم

بعض جوانب دور المدرس في الحياة الثقافية ، ظهرت من خلال علاقاته في الوسط الثقافي ، ونتاجه الأدبي الشخصي ومن المعروف أن الأستاذ المدرس قدم مجموعتين شعريتين ومجموعة قصصية ، صنع منها شريطاً سينمائياً

محطات في حياته

انتخب فاتح المدرس نقيباً للفنون الجميلة ، وشغل هذا المنصب سنوات طويلة كما كان مدرساً في كلية الفنون الجميلة ، وأستاذاً في قسم الدراسات العليا فيها وكان تأثيره كبيراً جداً على طلابه ، وأسهم إسهاماً كبيراً بدفعهم نحو إطلاق حريتهم الإبداعية ، والبحث في التراث المحلي والموروث الإبداعي وكثيراً ما كان يتحدث عن تجارب طلابه في الندوات التي تقام بمناسبة معارضهم . وكان أحياناً يقدم تلك المعارض

وجدير بالذكر أن الفنان المدرس ، كان يهدي عدداً من لوحاته الرائعة إلى أصدقاء وفنانين ، وأدباء ومثقفين . ولعله أكثر الفنانين إهداءً للوحاته وروائعه

إلى جانب ذلك تحسن الإشارة إلى أن عدداً من أصدقائه حصلوا على لوحاته ، التي كان قد فرغ من إنجازها حديثاً مقابل مبالغ رمزية

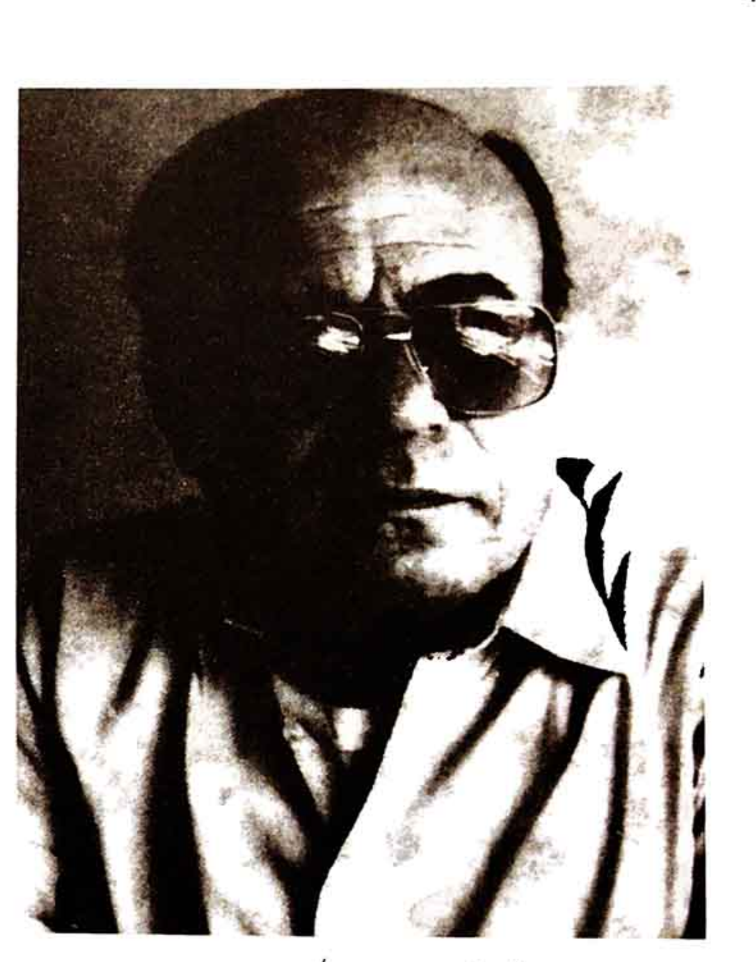
وبعد . . . يمكننا أن نقول ، بعيداً عن العاطفة والمبالغة ، إن فاتح

المدرس ، الذي رحل إلى جوار ربه في حزيران من عام ١٩٩٩ ، كان مشروعاً ثقافياً في كيان إنسان واحد كما كان عَلَماً من أعلام الثقافة ، على امتداد نصف قرن . . والخسارة بفقده فادحة ، ومن الصعب تعويضها[١]

* * *

---

(١) عندما عزمنا على كتابة هذا الفصل عن الفنان الكبير فاتح المدرس ، أعلن صديقنا الفنان والزميل سعد القاسم رئيس تحرير مجلة « فنون » عن رغبته بتزويدنا بما نحتاجه من معلومات حول أستاذه وصديقه الراحل . وأبى إلا أن يشرك قلمه البارع في الحديث عن إبداعه واتجاهاته الفنية . ـ المؤلف ـ



عبد القادر أرناؤوط

فنّان تشكيلي مُتَعَدِّدُ المواهِبِ

١٩٣٦ ـ ١٩٩٢

كان في طليعة الفنانين ، إبداعاً ، وتجديداً

أحب الفن ، وتعلق به منذ نعومة أظفاره

درس الفن أربع سنوات في العاصمة الإيطالية

ودرس الفنون الزخرفية في باريس سنة أخرى

فاز بالجائزة الأولى للإعلان عام ١٩٦٤ ، وفاز بها ثانية عام ١٩٦٥ في روما

صمّم أغلفة أعداد من الكتب ، وملصقات المعارض والمسرحيات والمهرجانات .

عمل في مجلة « الدنيا » ، وقدم لها مئات من الرسوم والعناوين الفنية الرائعة

جمع بين الرسم ، والتصوير ، والشعر ، والخط .

كان عبد القادر الأرناؤوط إحدى عبقريات الفن في العصر الحديث .

سيرة حياته

أبصر عبد القادر النور في حي الديوانية الشعبي بدمشق وتلقى دراسته الابتدائية والثانوية في إحدى المدارس الحكومية الرسمية .

تعلق بالفنون التشكيلية منذ حداثته .

رحل إلى روما في العام ١٩٦٣ ، وانتسب إلى أكاديمية الفنون الجميلة فيها ، وتابع دراسته حتى عام ١٩٦٧

خلال هذه الفترة ، نال الجائزة الأولى للإعلان في مدينة « تريفي » عام ١٩٦٤

وفاز بالجائزة الأولى للإعلان ، في المعرض الثاني لأثريات منطقة روما عام ١٩٦٥

وكان تفوقه في فن الملصقات « الأفيش » ، أو فن الإعلان ، حافزاً له لمتابعة عمله في هذا المجال ، وذلك عقب عودته إلى دمشق

عكف على تصميم أغلفة الكتب ، وملصقات المعارض والمسرحيات والمهرجانات الفنية ، وشعارات المؤسسات التجارية والصناعية

ولا يزال كثير من ملصقات معرض دمشق الدولي ، يحمل تواقيعه ، وتظهر فيها لمسات أنامله

في عام ١٩٥٢ طاب لعبد القادر ، أن يعود إلى مقاعد الدراسة ، فرحل إلى باريس ، ودخل المدرسة العليا للفنون الزخرفية ، ودرس فيها هذا الفن ، طوال ذلك العام

في حياته العملية ، كان يعمل في وزارة الثقافة ، ومديرية الفنون الجميلة ، ثم عمل أستاذاً لمادة الإعلان ، أو ما يعرف رسمياً باسم « الاتصالات البشرية » ، في كلية الفنون الجميلة ثم رأس هذا القسم ، طوال ما تبقى من حياته

ورحل الفنان الكبير عيد القادر الأرناؤوط فجأة إلى جوار ربه ، في صيف عام ١٩٩٢ . رحل وهو في قمة عطائه وإبداعه

عبد القادر في مجلة « الدنيا »

عندما استأنفت مجلة « الدنيا »[1] صدورها في صيف عام ١٩٦٢ ، بعد أن أوقفت في فترة الوحدة مع مصر ، كان أول ما فكرت به ، أن تحقق وثبة جديدة ، كي تستعيد أمجادها السابقة

---

(١) كان المؤلف صاحب مجلة « الدنيا » ورئيس تحريرها وقد صدرت في ١٧ آذار من عام ١٩٤٥ . وظلت تصدر حتى الثامن من آذار ١٩٦٣ عندما أوقفت مع سائر الصحف والمجلات .

عندما بدأ المؤلف يخطط لهذه الوثبة ، كان في مقدمة ما عزم على تنفيذه ، الاتفاق مع فنان مبدع ، يستطيع أن يزين صفحاتها برسومه وخطوطه ، فلم يجد خيراً من عبد القادر الأرناؤوط فناناً ، يجمع بين براعة الرسم ، وجمال الخط الحديث ؛ الذي ينسجم مع تطلعات مجلة راقية ، تريد أن تحقق نصراً صحفياً بين زحام الصحف والمجلات

وبدأ التعاون مع عبد القادر ، وكان وثيقاً وأخوياً جداً كان يكتب خطوطه الفنية للمجلة بسرعة مذهلة ، وذوق رفيع ، يلفت الانتباه ، ويفوز بالإعجاب والتقدير

كانت رسوم عبد القادر وخطوطه التي تتألق على صفحات « الدنيا » ، تثير الإعجاب والتقدير في الأوساط الصحفية

اعترافاً بالجميل والواقع نقول ، إنها كانت من أسباب نجاح المجلة وتفوقها في تلك المرحلة

بقي أن نشير ، إلى أن ثمة فناناً آخر من أسرة الأرناؤوط ، له في عنق مجلة « الدنيا » فضل ومِنَّةً ، هذا الفنان هو المرحوم علي الأرناؤوط[١] ، الذي كان له جهد ملموس في المجلة . إذ كان يزودها برسوم ولوحات رائعة للغلاف ، خلال سنواتها الأولى

نظرات في فنه

المسار السابق لرحلة عبد القادر الإبداعية ، يشير إلى تفوقه في مجال الإعلان ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ونعود لنتساءل عن مدى أهمية

---

(١) انظر فصلاً خاصاً بعنوان « علي الأرناؤوط الفنان المكافح » في كتاب « اعترافات شامي عتيق » للمؤلف .

لوحاته الزيتية   ويأتي الجواب بأنها لا تشكل ما هو مهم في تجربته الإبداعية

الواقع أننا لا نستطيع الجزم بهذا الأمر ، فقد تجلت عبقرية عبد القادر في أكثر من مجال إبداعي ، منها الخط العربي والشعر ، بالإضافة إلى التصميم الإعلاني واللوحات الزيتية   وكان في جميع هذه المجالات مبدعاً ومجدداً ، وباحثاً عن صياغة تجمع بين الأصالة والحداثة

إن اكتشاف عبد القادر الآفاق الرحبة للفن المساعد ، وانحيازه إليها منذ البداية ، جعله يحتل منزلة خاصة   ذلك أن الآفاق الجديدة في الفن ، كانت تربة صالحة لنمو أفكاره التشكيلية وأبحاثه الغرافيكية ، وربما كان حضوره الغرافيكي على الساحة الفنية ، قد حجب نشاطاته الفنية الأخرى ، لأنه كان من المعلمين الأوائل ، الذين أسسوا هذا الفن في سورية   غير أن أهميته كفنان ، تأتي من أنه اكتشف العلاقة المتينة بين فن الغرافيك ، وفن التصوير المعاصر وقد تأكدت هذه العلاقة في أعماله بعد عودته من إيطاليا   عندما أصبح الرقش العربي والإسلامي ، والإشارات المحلية من نقوش وأوشام وتعاويذ ، تؤلف مفردات لوحته التشكيلية   كل هذا كان في نظرنا نتيجة طبيعية لشخصية هذا الفنان ، القادم إلينا من حي الديوانية الشعبي ، القريب من بساتين الغوطة الشرقية ، ولثقافته الواسعة ، التي كانت تصل إلى حد الاختراع

هذه الرؤية لا تكاد تفصل بين عمله في التصوير الزيتي ، وعمله في مجال التصميم الإعلاني ، تلتقي مع ماقاله عبد القادر ، عندما سئل عن الكتابة والزخارف في لوحته ، بعد معرضه في صالة أورنينا بدمشق عام ١٩٧٧ . وقد أجاب بأنه يعطي الكتابة حساً روحياً ، أكثر منه زخرفياً ، ولا يفصل بين التصوير والزخرفة ، كما فصل النقد الأوروبي

قال عبد القادر : « أنا أهتم بالنور من وجهة مادية وروحية   في البداية طرحت النور من وجهة مادية ، وهذا له علاقة بالواقع   وبعد إنجاز عدة

لوحات ، بدأت أشعر بالوظيفة الروحية للنور دون تشبيه ، كنت أحس بنوع من الإشراق ، كالصوفيين »

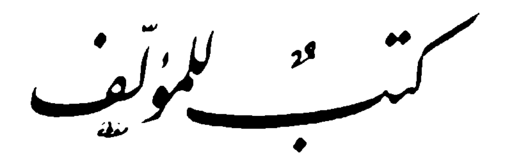
كان عبد القادر الأرناؤوط ، يسعى في تجربته الفنية المنوعة ، وراء هدف أساسي ، هو التأكيد على جوهرها الثقافي وهذا ما نلمسه في كتاباته الشعرية ، ولوحاته الزيتية ، وفي أعماله الغرافيكية ، وفي تصويره للخط العربي كذلك في سعيه لنشر الثقافة الفنية ولعل أبرز مظاهر هذا السعي ، دوره الكبير في تأسيس مجلة « التشكيلي السوري » ، التي تصدرها نقابة الفنون الجميلة بدمشق . غير أن المؤلم في أمر هذه المجلة أن « التشكيلي السوري » لم تصدر إلا بعد رحيل عبد القادر . ولكن الفنانين الذين يشرفون على المجلة ، أعطوا الدليل على وفائهم ، وتقديرهم لزميلهم الراحل ، فقد جعلوا غلاف العدد الأول منها لبعض أعماله ، وجعلوا الملف الأول كذلك للحديث عنه ، تكريماً لعطائه الثر ، وإبداعه المتفوق .

* * *

المراجع :

١ـ مجلة التشكيلي السوري ـ العدد الأول .
٢ـ معلومات زودنا بها الأستاذ سعد القاسم .
٣ـ أرشيف المؤلف ومعلوماته الخاصة .

* * *



١ ـ أدبنا الضاحك ـ الطبعة الأولى ١٩٧٠ ـ منشورات دار النهار ببيروت الطبعة الثانية ١٩٩٢ ـ الطبعة الثالثة ١٩٩٣ ـ الطبعة الرابعة ١٩٩٤ ـ دار البشائر بدمشق

٢ ـ قلب ونار ١٩٧٣ (نفد) قصص مؤلفة ومترجمة ـ قدم لها الأستاذ محمود تيمور ـ منشورات دار العلم للملايين ـ بيروت ـ .

٣ ـ عبقريات شامية ـ ١٩٨٦ ـ دمشق

٤ ـ دفاع عن الضحك ـ ١٩٩٣ ـ منشورات دار البشائر بدمشق

٥ ـ عبقريات من بلادي ـ الطبعة الأولى ١٩٩٥ الطبعة الثانية ١٩٩٨ ـ منشورات دار البشائر بدمشق

٦ ـ عبقرات وأعلام ـ ١٩٩٦ ـ منشورات دار البشائر بدمشق

٧ ـ عبقريات ـ ١٩٩٧ منشورات دار البشائر بدمشق

٨ ـ اعترافات شامي عتيق ـ ١٩٩٨ . منشورات دار البشائر بدمشق

٩ ـ أعلام ومبدعون ـ ١٩٩٩ . منشورات دار البشائر ـ دمشق

١٠ ـ حديث العبقريات ـ ٢٠٠٠ ـ منشورات دار البشائر بدمشق.

قيد الطبع :

١ ـ شيء من القلب .

٢ ـ كتبتُ ذات يوم .

٣ ـ بخلاء معاصرون

عنوان المؤلف

دمشق ـ سورية ـ صندوق البريد ٧١٥

هاتف المكتب ٢٢١٤٥٩٠

هاتف المنزل ٣٣٣٦٥٩٠

هاتف المصيف «بلودان» ٧١٢٢١٣١

المحتوى

الصفحة	الموضوع

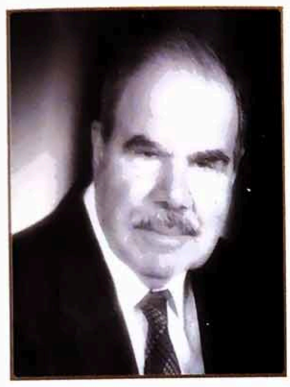
* * * *

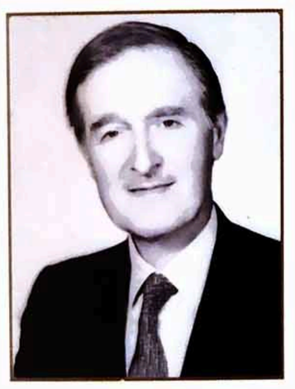
* * *

* *

*









حديث العبقريات

هذا الكتاب، حلقة جديدة من سلسلة العبقريات التي يتابع مؤلفها الكبير تقديم حلقة جديدة منها كل عام.

وإذا كان الكتاب العربي يمرّ في أزمة حادّة، فإن هذه الأزمة لم تستطع أن تشمل هذه السلسلة النفيسة والحمد لله، ذلك لأنّها تحمل في طياتها، المعلومة الأهم، والأكثر فائدة ونفعاً إلى القارئ العربي.

حلقات هذه السلسلة تضم «عبقريات شامية» و «عبقريّات من بلادي»، و «عبقريات وأعلام»، و «عبقريات»، و «أعلام ومبدعون».

«حديث العبقريات» هذا يضم ترجمة لحياة وأعمال خمسين علماً من رجالات الوطن في ميادين الجهاد، والوطنية، والعلم، والأدب، والفن.

إنه كتاب تفخر «دار البشائر» بتقديمه هدية نفيسة إلى المكتبة العربية وإلى كلّ قارئ يبحث عن الحقيقة في تاريخ رجالات الوطن.